

النبي موسى وأخر أيام تل العمارنة

الجزء الثالث



سيد القمني

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الثالث)

موسوعة تاريخية جغرافية إثنية دينية

تأليف
سيد القمني



النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الثالث)

سيد القمني

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٦٠٦ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٩.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور سيد القمني.

المحتويات

٧	الباب الأول: الفرعون إخناتون
٩	١- شخصية إخناتون وشخصية موسى
٤٩	٢- فنون العمارة
٦٧	٣- نهاية إخناتون الغامضة
٨٥	الباب الثاني: أوديب وإخناتون
٨٧	١- علاقة إخناتون الفرعون بأوديب الملك اليوناني
١٠٥	٢- سفاح القربى
١٣١	الباب الثالث: إخناتون وموسى وأوديب حسب نظريتنا
١٣٣	١- الثلاثة × واحد
١٥٧	٢- بقرة بني إسرائيل وثورها
١٦٩	٣- دور العقائد الميتانية
٢٠١	الباب الرابع: نهاية البطل
٢٠٣	١- آتون وآدون
٢٣١	٢- فرعون أعمى وأعرج
٢٥٥	٣- نهاية موسى
٢٧٥	المصادر
٢٧٧	الكتب الموسوعية

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الثالث)

٢٧٩	المصادر العربية والمترجمة إلى العربية
٢٩١	المصادر الأجنبية
٢٩٥	ملحق الأشكال

الباب الأول

الفرعون إخناتون

الوهم والحقيقة

الفصل الأول

شخصية إخناتون وشخصية موسى

ليس هناك باحث تناولَ بدراسته النبيَّ موسى، إلا وذكر الفرعون إخناتون، فرعون التوحيد، قياسًا على عقيدة التوحيد اليهودية، إضافةً إلى كثيرٍ من الأبحاث التي قامت على العلاقة بين العقيدة الآتونية، التي نادى بها الفرعون إخناتون في مصر، وبين عقيدة التوحيد الموسوية. وقد أدى إلى هذا التداعي لأحدهما — كلُّما ذُكر الآخر — عددٌ من العوامل التي تَشِي بعلاقةٍ ما بين العقيدتين، بل ربما بين الشخصين.

وأول الملاحظات تلك التي لاحظها علماء المصريين، تتعلق بالاسم «موسى»، فالاسم

مصري قح، فالكلمة المصرية القديمة  تعني «أنجب» أو «ولد»، وتدخل في تركيب أسماء مثل «تحت مس»، و«رع مس». لكن كلمة موسى قد تحتل معنى آخر هو بدوره مصري أيضًا، فربما كانت مُركَّبة من الشقين «مو + سا»، والكلمة «مو» وحدها تعني

«ماء» (مو )، والكلمة «سا » تعني «ابن». ويعني اسم موسى بذلك «ابن الماء»، وهو اسم يشرح ويفسر الحدث الذي ترويه التوراة؛ إذ عثرت عليه ابنة الفرعون في سَفَطِ بالماء، فأطلقت عليه الاسم الذي يليقُ به حال العثور عليه، وهو ما تُفصح عنه كلمات التوراة؛ إذ تقول: «ودعت اسمه موسى، وقالت: إني انتشلته من الماء» (خروج، ٢: ١٠). وعلى كلتا الحالتين، فالاسم مصري قح.

وكانت هذه الملاحظة الأولى التأسيسية مدعاةً للقول إنه ليس فقط الاسم هو المصري بل الشخص بذاته، وهو ما رأيناه عند فرويد في كتابه «موسى والتوحيد»، الذي تركنا نستنتج أن موسى كان أميرًا مصريًا من البيت المالِك، ولم يَكُن أبدًا راعيًا عبرانيًا.

تلك كانت الملاحظة الأولى عن علاقة موسى بمصر، وهو الأمر الذي يؤكده المقدس في تاريخه، حيث يروي لنا المقدس أن موسى رُبِّي في بيت الفرعون كابنٍ بالتبني، بعد أن

رَمَتْ به أمه في سفط بالنهر، وعثرت عليه ابنة الفرعون كما تقول قصة التوراة، أو زوجة الفرعون كما يقول القرآن، فالقصة هنا تريد القول إنه من أصول عبرانية، لكنه رُبِّي في القصر الفرعوني الحاكم بمصر.

ولأن فرويد كان يرى موسى مصرياً بالميلاد والعنصر والثقافة، فقد أعطى بعض الإشارات التي تترك القارئ يستنتج أن قصة التوراة عن عبرانية موسى كانت أكذوبة بالكامل. فلم يكن لهذا الأمير المصري أية علاقة ببني إسرائيل، وكان مصرياً بالجنس والاسم، ويبدو أنه أمير من البيت المالِك، و«من قرابة الفرعون المصري إخناتون» أول مَنْ نادى بالتوحيد في التاريخ الإنساني المعروف. وقدّر فرويد أن موسى آمنَ بعقيدة سيده الفرعون بشدة، واقترب من الفرعون وأثبت إخلاصه العميق له، وربما حلم هذا الرجل (موسى) بعرش البلاد بعد إخناتون، بحكم تلك العلاقة القرابية، وبحكم إثباته الولاء والإخلاص لسيده الفرعون ولديانته الجديدة.

وعندما سقط إخناتون وديانته بانقلاب قام به كهنة آمون أو العسكر أو كلاهما بالتحالف، أُسقط في يد موسى، الذي كان في ذلك الوقت قائد الحامية الحدودية في شرقيّ الدلتا. فهو إن عاد إلى طيبة سيظل مشكوكاً في ولائه لآمون وعقيدة البلاد، وفي هذه الحال لن ينال شيئاً، بل ربما لحقته بعض الأضرار التي تلحق بالمهزومين، وربما حُوكم باعتباره كان من المتحمسين لسيده وديانته. وهكذا ضاع حلمه في حُكم الإمبراطورية من الداخل، فتوجّه بديانته إلى العبرانيين الذين كانوا مُستبْعدين على حدود الدلتا الشرقية، وخرج بهم من مصر، ليقيم بهم دولةً بدلاً عن الدولة التي فقدها؛ فقد كان الموقف مصيرياً؛ إما العودة والمحاكمة، وإما القرار التاريخي الجريء. وبالفعل خرج يقود الإسرائيليين في سيناء، بعد أن علّمهم عقيدة سيده إخناتون الآتونية، لكنّ الإسرائيليين الأجلاف لم يحتملوا قوانينَ وقواعدَ تلك العقيدة الراقية، فقتلوا سيدهم في سيناء، وتحولوا إلى عبادة العجل القديمة، ثم بعد زمان شعروا بالذنب تجاه هذا السيد وربّه فعادوا إليها، لكنها العودة التي شابتها مصريةُ المؤسس الأول والحقيقي لديانتهم المُلتبسة بقوميّتهم. ورغم أن فرويد لم يقل ذلك صراحة، إلا أنه الاستنتاج الذي لا بدّ أن يصل إليه القارئ اللبيب؛ فقد قام الإسرائيليون يسلمون موسى عن مصريته، رفعاً لتلك الوصمة التاريخية، ويصوغون قصةً أسطورية تربطه بالميلاد ببني إسرائيل، فاستعاروا قصة الإلقاء في اليم، التي كانت منتشرةً إبّان ذلك في أساطير الأبطال في حضارات المنطقة القديمة، وقالوا إن موسى كان إسرائيلياً بالمولد، وأنه فقط رُبِّي في قصر الفرعون، فكان مصرياً بالتبني، «وصدق العالم تلك القصة الأسطورية».

على أية حال، نحن نقصد هنا بيان العوامل التي أدت باستمرار إلى الربط بين موسى وإخناتون، حتى وصل الأمر كما عند فرويد إلى القول أن موسى كان من أصل مصري ملكي، وأنه التلميذ المباشر لإخناتون. وقد ظلّ مثل ذلك الربط يحدث طويلاً في كتابات الباحثين، استناداً إلى شواهد مثل تلك التي قدّمها ديورانت، والتي قدّمها برستد عن التشابه الدقيق بين أناشيد إخناتون لربه الواحد، وبين أسفار المزامير والأمثال بالكتاب المقدس. هذا ناهيك عن الأوامر الصريحة بالكتاب المقدس عن عدم تصوير الإله، وهو ذات الأمر الذي اتّضح في ديانة آتون الإخناتوني.

وفي ذلك يقول عباس العقاد: «وقد عقد كلٌّ من هنري برستد وأرثرويجال Weigall، مقارنةً بين صلوات إخناتون وأحد المزامير العبرية، فاتفقت المعاني بينهما اتّفاقاً لا يُنسب إلى توارد الخواطر. وقد خطر لويجال أن «آتون» و«آتوم» تصحيف «آدوناي» بمعنى السيد أو الإله في اللغة العبرية، وأن إخناتون ورث آراءه «عن أمه، وهي تنتمي إلى سلالة آسيوية»، من شعبٍ يقيم بين سورية وآسيا الصغرى (يقصد ميتاني المزعوم أنها بأعلى الفرات)، حيث يُعبد آدوناي أو آتون على مختلف اللهجات»^١

أما الإشارة القوية التي كانت تُحيل دوماً إلى صلةٍ من أي نوعٍ بين موسى وإخناتون، فهو ما جاء ذكره عند المؤرخ اليهودي يوسفوس، وهو ينقل عن مانيثو المؤرخ المصري. فروى أن الإسرائيليين قد خرجوا من مصر، زمنَ فرعون زاهدٍ لا يحب الحروب ولا القتال. وهي صفات نعرفها الآن عن إخناتون، بل قال يوسفوس إن هذا الفرعون كان اسمه آمنوفيس، وأمنوفيس هو النطق اليوناني للاسم المصري آمنحتب، وهو الاسم الصادق للفرعون إخناتون، فهو آمنحتب الرابع ابن آمنحتب الثالث. لكن تلك النظريات جميعاً أخذت في السقوط والتداعي، بعد أن بدأ علماء المصريين يتجهون نحو الإجماع على أن الخروج قد تم في عهد مرنبتاح ابن رمسيس الثاني، وهو ما أدى إلى الابتعاد التدريجي عن فكرة العلاقة المباشرة بين موسى وإخناتون، والاتجاه إلى الفصل بينهما، وأنه إذا كانت ثمة علاقة، فهي تأثر موسى بتلك العقيدة القديمة بشكلٍ ما، تأثر عن بُعد تفصله زمنياً سنوات تزيد على القرن من الزمان، وليس تأثراً مباشراً وعلاقة تماسٍ بين الشخصين، وهو ما تعبر عنه رؤية فراس السواح إذ يقول:

^١ عباس العقاد، الله، كتاب الهلال، عدد ٤٢، القاهرة، سبتمبر ١٩٥٤م، ص ٥٦، ٥٧.

«إن تأثر الديانة اليهودية بالديانة الآتونية هو أمرٌ منطقي ويمكن، بصرف النظر عن حكاية موسى المصري؛ فالديانة اليهودية نشأت في زمنٍ لا يبعد كثيراً عن زمن ازدهار الآتونية، ونستطيع بسهولة أن نفترض أن الديانة الآتونية بعد انهيارها، تحوَّلت إلى ديانةٍ سرية، انتشرت بين المضطهدين الغرباء، وخضعت لتحولات أساسية عبر الوقت، إلى أن اتخذت شكلها الجديد على يد موسى. وقد استمرَّت بعض الصلوات الآتونية حية في كتابة التوراة.»^٢

ويضيف رمضان السيد قوله: «وتقرب هذه العقيدة (أي الآتونية) بين الأفكار الدينية المصرية، والأفكار الدينية السائدة في معظم المناطق، تحت اسم «أوهون» أو «آدون» بمعنى السيد.»^٣ ومن جانبه يقول سيجموند فرويد: «إن قانون الإيمان اليهودي كما هو معلوم يقول:

Sehem Jisroel (Adonai) Elohena Adonai Echod.

وإذا لم يكن من قبيل المصادفة أن اسم آتون المصري، يُذكر هنا باللفظة العبرية Adonai، وبالاسم الإلهي السوري أدونيس، وإذا كان التشابه نتيجة لتماثل بدائي في المعنى واللغة، فإن في استطاعتنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالي: أصغي يا إسرائيل: إن إلهنا آتون Adonay هو الإله الأوحد.»^٤

وكما انشغل الباحثون انشغلنا، وحددنا لنا موقفاً يلتقي في تفاصيله مع كل ما قلناه من البدء حتى الآن، وهو القول الذي كان بكامله إعادة قراءة لوضع الأمور في صحيح نصابها؛ تمهيداً لطرح رؤيتنا في علاقة الموسوية بالآتونية، وموسى بإخاناتون، والإسرائيليين بمصر القديمة. لكن قبل أن نطرح رؤيتنا هنا، علينا أولاً أن نمر على زمن إخاناتون وعهده، مع عرض بعض تفاصيل تلك الشخصية الثرية، التي شغلت الدنيا، ولم تزل.

^٢ السواح، مغامرة ... سبق ذكره، ص ١٠٦.

^٣ رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٩٣م، ج ٢، ص ١٠١، ١٠٩.

^٤ سيجموند فرويد، موسى ... سبق ذكره، ص ٣٤.

Adonai (Lord)



شكل رقم «١٥٣»: اسم آتون بالعبرية.

إخناتون

لوحة واحدة فقط ليس هناك غيرها، منقوشة على الجدار الجنوبي من الواجهة الخارجية لقاعة الأعمدة الكبرى البحري بالكرنك. يظهر فيها الفرعون «أمنحتب الثالث وبرفقته ابن له». وعدا ذلك لا يظهر لأمنحتب الثالث أي ابن في أي صورة تمثله مع أفراد عائلته. فقط زوجته «تي» وبناته في نقوشه الكثيرة. أما أبناء ذكور فلا، عدا تلك اللوحة اليتيمة التي تصور الفرعون وولده «يركبان سفينة بحرية»،^٥ وهو أمر لا شك له مغزى، لم نجد فيما وصلنا من مصادر موثوقة أي بحث تم بشأنه، «ولماذا على سفينة بحرية بالذات؟» أما الأمر الذي يزيدنا التباساً، فهو أنه في زمن تال لزنم أمنحتب الثالث وولده، تمت إزالة الاسم المكتوب لابن الفرعون على لوحة السفينة تلك، وكُتب بدلاً منه اسم لفرعون يأتي بعد ذلك بفترة، خاتماً الأسرة الثامنة عشرة، وبداً الأسرة التاسعة عشرة «حور محب».^٦ وبذلك فقدنا اسم الابن المدون على لوحة السفينة، كما أدى التدخل في اللوحة إلى التباسات مبكرة عند المؤرخين، وهو ما حدث عند مانيتو المصري، ومن أخذ عنه من مؤرخي العصر الكلاسيكي. فاحتسبوا حور محب الذي جاءنا بالنطق اليوناني «هورامبيس» في رواية يوسفوس، ولدًا مباشرًا لأمنحتب الثالث. وظلَّت أسرة العمارنة

^٥ محمد عبد القادر محمد، آثار الأقصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٧٣، ٧٥.

^٦ الموضع نفسه.

بعدما لحقها من مطاردة ومحو من على الآثار زمناً طويلاً أسرة مجهولة، حتى تم الكشف عن مدينة أخت آتون في العمارنة، لتعرف الدنيا أخبارها التي كانت غير معلومة بالمرة. أما الالتباس الثاني فهو أننا نعلم أن «أمنحتب الثالث»، قد رُزق بولدٍ اسمه «تحتمس»، وقد عُثر على سوطه وعليه نقش يقول: «ابن الملك وقائد الجيوش تحتمس».^٧ كل ما نعلمه عنه أنه قد تم إرساله إلى منف لتلقي العلم، ثم فَقَدْنَا أخباره بعدها؛ مما أدَّى، بقرارٍ من المؤرخين وليس من الوثائق، أن هذا الابن قد مات صغيراً،^٨ ويبقى السؤال: هل كان الابن المصور مع أبيه في السفينة هو «تحتمس»، أم إنه كان ذلك الذي عرفناه بعد ذلك باسم أمنحتب الرابع/إخناتون؟ ثم سؤال آخر لم يطرحه أحد بالمرة، بعد أن افترض المؤرخون أنه كان لدى أمنحتب الثالث ولدان؛ الأول باسم تحتمس الذي مات، والثاني باسم إخناتون. والسؤال هو: ألا يمكن أن يكون تحتمس هو ذات أمنحتب الرابع إخناتون؟ خاصة إذا علمنا أن الفرعون كان يحمل أكثر من اسم، وأن اسم أمنحتب الرابع كان اسم العرش. أما إخناتون فقد أطلقه هذا الفرعون على نفسه، بعدما قرَّر الإعلان السافر عن عقيدة آتون الإله الواحد، فانتسب إليه باسمه، وألغى اسم أمنحتب الذي ينتمي إلى الإله «آمون» = «آمون-حوتب». ثم الأمر المريب الشديد الغرابة: أننا لا نجد إطلاقاً أي لوحة أو أي نقش أو أي كتابة، تشير إلى ولدٍ أو ولدين لأمنحتب الثالث، سوى معرفتنا من السوط باسم تحتمس، الذي ذهب لعين شمس ثم مات صبيّاً، باستنتاجات المؤرخين، ولوحة السفينة بالكرنك، التي لا تفصح عن اسم ذلك الابن. فهل كان ذلك الإهمال مقصوداً في فنون أمنحتب الثالث ومدوناته؟ يبدو أننا يجب أن نسلم بذلك؛ لأنه من غير المنطقي إطلاقاً ألا يظهر وريث العرش في لوحات والده طوال حياته، لنجده فجأة على العرش بعد موت أبيه، حتى ظن الباحثون لفتراتٍ أن إخناتون مجرد مُغتصب للعرش، حتى تأكدوا أن إخناتون الذي اعتلى العرش، وظهر فجأة دون مقدمات، كان ابناً لأمنحتب الثالث.

أكثرنا على قارئنا من طرح التساؤلات والألغاز. ولكن ما حيلتنا ونحن لا نستطيع قبول الأمور، كما تُلقَى إلينا على علاتها، وإن كانت أسئلتنا مشروعة تماماً، فإنها أسئلة مقصودة؛ لارتباطها بما سنطرحه، خلال الفصول القادمة، من حلولٍ مقترحة لقضية

^٧ ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٩.

^٨ عبد المنعم أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٣٦.

إخناتون وموسى؛ لأننا أبدأ لم نقتنع بقصة الخروج زمن مرنبتاح ابن رمسيس الثاني؛ ولما تجمع بأيدينا من قرائن وأدلة تؤكد رؤية أخرى، ترى أنه كانت هناك علاقة ليست فقط مباشرة، بل أكثر من مباشرة، أكثر من علاقة شخصية بين شخصية الفرعون إخناتون وشخصية النبي موسى، وهو ما عهدنا له بالجهد السالف جميعه، ما سنوضحه في الفصول التالية.

وشخصية الفرعون إخناتون حازت من التضارب في الاجتهادات حولها، ما لم تحزه شخصية أخرى من التاريخ. وهنا نقف نستمتع إلى المصطلوجيين يحدثونا عن ذلك التضارب، فيقول لنا عبد المنعم أبو بكر:

«قد مجده البعض إلى درجة رفعوه إلى مرتبة الأنبياء، إذ اعتبروه أول مَنْ نادى بالتوحيد بين البشر، كما حمل البعض الآخر على إخناتون حملات منكرة، محاولاً الحط من قيمته إلى درجة أنه قيل عنه: كان هذا الرجل شاذاً في خلقه، شاذاً في عقله، منحدرًا إلى الحضيض في بعض تصرفاته ... أما شذوذه العقلي؛ فلمخالفته لأهل عصره في عدم تشييعه لآلهة طيبة، ومقته الشديد للإله آمون. أما شذوذه الخلقي فهو موضع الغرابة، فإننا لفي شك مريب في تلك العلاقة بينه وبين أخيه سمنخ كا رع؛ إذ كان حبه له وتعلقه به خارجاً عن نطاق العقل والمألوف.»^٩ فهناك شابان يظهران في أسرة العمارنة هما سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون، وقد احتسبهما المؤرخون أشقاء لإخناتون، رغم عدم ذكر نقوش ومدونات الأب آمنحتب الثالث لأبيّ منهما.

[انظر إخناتون يقبل سمنخ كا رع، الشكل رقم «١٥٥» صفحة ١٤٢٤]

ثم نستمتع إلى «سيد توفيق» يحدثنا عن إخناتون قائلاً: «وتعددت الآراء بل تضاربت أحياناً في تقييم هذه الشخصية، فالبعض يرى في إخناتون أول الموحدين، والفيلسوف الأول، وأول المثاليين، والمفكر الأول. بينما يعتبره البعض الآخر مجرد حالم عاطل، تسبب بإهماله وتراخيه في مواجهة مشاكل السياسة الخارجية في فقدان مصر للولايات الخارجية، التي كانت خاضعة لها أيام الإمبراطورية التي شيدها أبائوه وأجداده. واعتقد فريق ثالث

^٩ نفسه، ص ٣٩، ٤٠.

أنه سياسي ماهر، اتخذ الدين ستارًا لحماية نفسه وزيادة نفوذه الشخصي. وقد ظهر إخناتون في رأي «جون ويلسن» كداعية لشيء جديد في الدين، يدعو بصفة عامة إلى العالمية، في عادات وأخلاق الناس، وفي الفن واللغة والأدب. واعتبر فرويد إخناتون المصلح الأول الذي أتى قبل موسى عليه السلام، واعترف به كأول الموحدين. لقد كان إخناتون فريدًا في دعوته لعبادة آتون، فريدًا في إخلاصه وتفانيه للماعت (أي للحق والعدل والنظام في مصر القديمة، حتى إنه لُقّب نفسه بالذي يعيش على الماعت. المؤلف)، فريدًا في تماثله، حتى اللغة التي سادت عهده، كانت ذات قواعد خاصة بها.^{١٠} ويحدثنا عاشق المصريات مختار السويفي قائلًا:

«ما زالت شخصية إخناتون محلّ خلاف شديد بين المؤرخين وعلماء المصريات، القدماء منهم والمحدثين، بعضهم يرفعونه إلى درجة سامية، وبعضهم يهبطون به إلى الحضيض. ويدعون أنه كان شخصية غير طبيعية ومنحرفة، وأنه كان مختنئًا، واختفاؤه المفاجئ من الحياة المصرية والتاريخ المصري، ما زال لغزًا غامضًا حتى الآن، فلم يُعثَر له على جثة. وربما كان موته نتيجة لعملٍ عنيف. وعلى أية حال فقد تولى عرش البلاد بعده أخوه سمنخ كارع الذي مات وعمره دون العشرين، بعد أن حكم لفترة قصيرة جدًّا، ولكنها كانت حافلة بالصراعات الهائلة التي قادها كهنة آمون؛ لاستعادة أملاكهم وسطوتهم وسلطاتهم السابقة التي كانوا يتمتعون بها قبل عهد إخناتون.»^{١١}

أما المصروولوجيست الحجة سيرل آلدريد فيؤكد ذات المعاني؛ إذ يقول:

«يقول بعضهم: إن ديانة آتون خلت خلوصًا واضحًا من التحدث عن الأخلاق في الأناشيد التي كانوا يخاطبون بها آتون. ولم تنجُ شخصية إخناتون ذاتها من إلصاق التُّهم الأخلاقية بها، فأشارت له النصوص التالية لعصره باعتباره مجرمًا آثمًا، ثم شاركها بعض الباحثين الغربيين مثل هذا الهجوم، وتشككوا في مدى مصداقية إخناتون. فاعتبره أحد الباحثين فرعون الاضطهاد، واعتبره آخر

^{١٠} سيد توفيق، إخناتون أول الموحدين، فكر للدراسات والأبحاث، العدد ٩، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٧٠.

^{١١} مختار السويفي، مصر والنيل في أربعة كتب عالمية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٢٢.

فرعون الخروج الذي غرق. أما الأثري «جلانفيل» فرأى فيه ملكًا لا يستحق سوى اللوم والتأنيب. أما «برستد» عالم الآثار الأمريكي فقد امتدحه وقرظه، ووصفه بأنه أول شخصية متميزة في التاريخ. ويرى عالم المصريات «جاردر» أن نظراته تدل على التعصب ولبلة الفكر، مما يجعله نموذجًا للمصابين بالهوس الديني.^{١٢}

هذا رأي علماء عصرنا في إخناتون، ولم يكن رأي أهل زمانه فيه بأحسن من رأي أهل زماننا، فهذا عالم المصريات «مختار» يقول لنا:

«تكاثفت عناصر مختلفة ضده، فالشعب البسيط الذي يعيش على التقاليد، رفض أي تغيير لما كان في عهد آبائه وأجداده، كما أن رجال الجيش لم يغفروا له ضياع تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف التي أقاموها بدمائهم ودماء آبائهم، ثم رجال العقائد الدينية الأخرى وفي مقدمتها عقيدة آمون الذين تربصوا به يتكثرون ضده دفاعًا عن مصالحهم. ولقد توقف التاريخ فجأة فيما يتعلق بإخناتون، الذي اختفى فجأة وانطفأ نور رسالته، ولا ندري أين دُفن، وهل مات ميتة طبيعية أو قُتل، وأين جثته الآن؟ وغير ذلك من الأسئلة المتعلقة بنهايته، وهي أسئلة لا يجد التاريخ لها إجابة شافية».^{١٣}

ثم يتابع قائلاً:

«فيما يتعلق بسيرة حياته ومنجزاته وأفكاره وعقائده، فقد اختلف المؤرخون فيما يتصل بذلك، فهناك رأي يمجّد فلسفته وعبقريته، التي أخرجت عقيدة جديدة للتوحيد، كما أخرجت روائع فنية ومبادئ أخلاقية، كانت نتيجة مباشرة لوحيه الشخصي. أما الرأي الثاني فيعتبره حاكمًا أهمل واجباته المقدسة، مما أدّى إلى انهيار البلاد وتدهور أحوالها. ويقول إن المصريين القدماء في عهده رفضوا رسالته في أيامه وبعد موته، ولم يعترفوا عند تأريخهم للأحداث بحكمه

^{١٢} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧، ١٦.

^{١٣} جمال الدين مختار، تقديمه لكتاب جوليا سامسون (نفرتيتي) سبق ذكره، ص ١١.

كملك على البلاد، وأسقطوا اسمه من قوائم الملوك الرسمية، واعتبروه ملعوناً قد حُلَّتْ عليه اللعنة.^{١٤}

هذه فقط نماذج لإيضاح أي تناقض صارخ يواجهنا بشأن التعامل مع هذا الفرعون، ومكانم الفخاخ الكثيرة لباحثٍ يريد وجه الصدق التاريخي؛ لذلك وقبل أي بحث، علينا أن نجيب على السؤال الأبسط، مَنْ هو إخناتون كشخصٍ تاريخي؟ وفق الحسابات التاريخية، وتزمينات توافق عليها أهل علم المصريات، يفترض أن يكون إخناتون قد وُلد منذ حوالي ٣٤٠٠ عام تقريباً، في مدينة طيبة عاصمة مصر الإمبراطورية، في أقصى جنوب البلاد. وأبوه هو آمنحتب الثالث الذي حكم حوالي ١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م. وهو الفرعون المشهور برخاء عصره إلى حد تشبيهه عند الباحثين بعصر لويس الرابع عشر في فرنسا، وبِعصر هارون الرشيد في بغداد، حيث تدفقت خيرات البلاد المفتوحة سيولاً دافقة على عاصمة الإمبراطورية، فكان قمة عصر الرخاء في تاريخ العالم القديم. وعند ولادته أعطاه أبوه اسماً على مسماه هو شخصياً، امتداداً للعز والفخار الذي ارتبط به، فأسماه آمنحتب الرابع.^{١٥}

وكما قلنا ... فوجئ المؤرخون، وربما الناس في عهده، بظهوره المفاجئ لتولي العرش بعد وفاة أبيه. ويحيطنا عالم المصريات «سيد توفيق»، أحد الذين اهتموا بدراسة إخناتون دراسة خاصة، أن إخناتون «بدأ الحكم في طيبة بعد وفاة والده مباشرة، وكان عمره لا يزيد على ستة عشر عاماً، فعاونته أمه الملكة «تي» في السنوات الأولى من حكمه، ثم تزوج نفرتيتي. وقد بدأ حياته — مثل أسلافه من ملوك مصر — بعبادة الإله آمون؛ إله الدولة في ذلك العصر، والآلهة التقليدية المعروفة من قبل، مثل أوزيريس وإيزيس وحتحور وآتوم. وتدل على ذلك النصوص ... على جدران مقبرة خرواف رقم «١٩٢» بطيبة الغربية، والتي ترجع إلى أوائل حكمه في طيبة.»^{١٦}

ويحيطنا عالماً المصريات «شتيندورف» و«سيل» علماً أن الفرعون الجديد آمنحتب الرابع، قد اتخذ لقباً رسمياً هو «نفر خبرورع» الذي نقرؤه في الكتابات المسمارية في

^{١٤} الموضع نفسه.

^{١٥} سيد توفيق، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٠.

^{١٦} نفسه، ص ٧١.

رسائل تل العمارنة: «نبخوريا». ومعناه: «جميل الهيئة رع»، مع لقب آخر هو «وع إن رع»؛ أي: «وحيد رع». وكان هذا الفرعون رقيقاً ومخلصاً في علاقاته الأسرية، ويحاكي أباه في مظهره الشخصي. وتزوج من أميرة تُدعى نفرتيتي. يعتقد كثيرٌ من المتخصصين أنها «من أصل أجنبي»، من أميرات البيوت الحاكمة في البلاد المفتوحة للإمبراطورية المصرية، التي كان يتوافد منها، منذ عدة أجيال، أعداد غفيرة كهدايا من حكام غرب آسيا للفراعين. وعن الظروف التي اعتلى فيها آمنحتب الرابع عرش البلاد، يقول لنا سيرل آلدريد: «عندما اعتلى آمنحتب الرابع — ابن آمنحتب الثالث من الملكة تي — عرش مصر، كان في سن صغيرة وتنقصه التجربة. وقد ورث عن أبيه موقفاً صعباً؛ إذ وقعت ميتاني حليفة مصر في ذلك الوقت، تحت ضغط الحيثيين الذين استردوا قوتهم. وصاروا يثيرون الاضطرابات بين الولايات العميلة الجشعة في سوريا، وفي نفس الوقت كانت جموع البدو الخابيرو من محترفي السلب والنهب، تسبّب القلاقل في فلسطين».^{١٧}

وإخناتون هو فرعون المفاجآت، فهو يظهر فجأةً، ويقوم بتغيير شامل لعقيدة البلاد فجأةً، ويختفي فجأةً، ويترك وراءه كثيراً من الألغاز بدون حلول. يصفه المؤرخون بأنه كان «طفلاً هزيلًا ضعيفًا، تراكمت عليه الأمراض ولازمته طوال حياته، ويدل على ذلك تركيب جسمه الغريب؛ فوجهه كان نحيفًا إلى درجة الهزال، طويلًا، برزت عظامه وتدلّت ذقنه، واتسعت مقلتا عينيه، وارتسمت على شفّتيه الغليظتين ابتسامة خفيفة، إن دلت على شيء فهي تدل على طيبة قلبه وحُبه للسلام، وحمل رأسه الكبير عنقٌ طويل فوق كتفين ضيّقين منحدرين. وتميز جسمه ببطنٍ كبيرة متهدلة، لا تتناسب مطلقاً معه، كما كانت فخذه عريضتين، أما الساقان فكانتا رفيعتين بشكلٍ ملحوظ».^{١٨}

[انظر إخناتون في صباه المبكر، الشكل رقم «١٥٦»، صفحة ١٤٢٥]

وقد علمنا أنه ابن الملك آمنحتب الثالث، تاسع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية، الذي حكم حوالي ١٤٠٥-١٣٦٧ ق.م. وحمل ذات اسم أبيه، وبدأ الحكم في طيبة، عاصمة الإمبراطورية المصرية، كبرى إمبراطوريات ذلك الزمان بعد وفاة والده مباشرةً، ثم تزوّج

^{١٧} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٢، ٧٣.

^{١٨} عبد المنعم أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٣٧.



شكل رقم «١٥٧»: آمحتب الرابع/إخناتون، المتحف المصري.

من الجميلة نفرتيتي، لكنه كان يحمل أفكارًا مخالفة للسائد في الثقافة المصرية القديمة إلى حدٍّ بعيد؛ حيث أعلن لنفسه إلهًا باسم «آتون». ويبدو أن كهنة الإله آمون قد اضطروا أن يسمحوا للملك الجديد ببناء معبد لإلهه في الكرنك معقل آمون. فشيد لآتون معبدًا ضخمًا شرقي معبد آمون. وتم تسجيل آتون رسميًا واعترف به بين آلهة المصريين القدماء، وفي العام السادس من حكمه بدأ الفرعون حملة تغييرات شاملة، بدأها باسمه، فغير اسمه من آمحتب الرابع إلى اسمٍ فريد، لم يتكرر من قبله ولا من بعده، هو «إخناتون». ذلك الاسم الذي اختلف العلماء في ترجمته وتفسيره، فترجمه برستد «آتون راضٍ»، وفضل له

زيته «السعيد بآتون»، وفسره هاري سميث بأنه «روح آتون»، وذهب جون ويلسن إلى أنه «المفيد لآتون»، ثم فازيني الذي قرّر أنه «الروح الفعالة لآتون».^{١٩} وترجمه «علي فهمي خشيم» بقوله: إن الكلمة (إخناتون) مركّبة من ثلاثة مقاطع، هي «إخ. ن. إ ت ن»، والمقطع الأخير هو اسم الإله الذي اختاره، وحرف «ن» الأوسط الأداة المصرية للإضافة. ويبقى المقطع الأول «إخ»، الذي يحمل معاني أهمها: العظمة، المجد، البريق، السطوع، الفخر، النفع، الامتياز، القوة، السيطرة، الروح. لذلك ترجم «بدج» الاسم إلى معنيين مجدآت Glory of Aten، روح آتن Spirit of Aten. وهو بهذا المعنى يصبح قوة الشمس أو روحها؛ أي: روح الإله آتون.^{٢٠}

ويبدو أن إخناتون وجد نفسه في طيبة محاطاً بمناخ مُعادي، وبسلطان كهنة الإله آمون، فأخذ قراراً تاريخياً ببناء عاصمة جديدة ينتقل إليها مع حاشيته وأتباعه المخلصين. وقد استدعى لهذا الغرض رجال بلاطه وقوّاده العسكريين، وشرح لهم رغبة الإله آتون في بناء مدينة جديدة، تحمل اسم «أخت آتون»، وأن الإله هو الذي حدّد الموقع برغبته واختياره. وكان موقع تل العمارنة في منتصف الطريق بين القاهرة والأقصر، هو المكان الذي اختاره الإله آتون للتجديد الديني المقبل. وهناك حيث تتراجع الجبال الشرقية مخلفة سهلاً على شكل الهلال، قرّر إخناتون بناء مدينته. وسجل قراره: «سأبني في الشرق حيث تظهر الشمس؛ أي: في المكان الذي أحاط فيه نفسه بالجبال ... سأبقى هناك حتى يسودّ البجع ويبيض الغراب، وحتى تروح الجبال وتجيء، وحتى يسري الماء نحو المنبع». والمعنى أن عقيدته الجديدة ستبقى، حتى تحدث مستحيلات لن تحدث إطلاقاً. لكن ما حدث أنها كانت أسرع مدينة مصرية ملكية زالت من الوجود، قياساً على أي مدينة مصرية أخرى، لكن ألا يعني ذلك الإيمان المغلظ، أن الفرعون الشاب كان يتوقّع لمدينته نهاية قريبة؟

وبعد قرونٍ طويلة وزمانٍ سحيق البُعد، في عام ١٨٨٧ ميلادية، كانت إحدى الفلّاحات تجمع سباحاً من خرائب العمارنة، التي لم تُعرف هويتها بوضوح حتى ذلك التاريخ. وفي العمارنة التي تقع على مبعدة ١٩٠ ميلاً جنوب القاهرة، عثرت تلك الفلّاحة

^{١٩} سيد توفيق، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٠، ٧١.

^{٢٠} فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ص ٢٨٩، ٢٩٢.

على عددٍ كبير من الألواح الطينية المكتوبة بالأحرف المسمارية، وهو الأمر الجديد تمامًا في تاريخ مصر القديمة. ويؤكد جاردنر أنها الحالة الغربية والوحيدة، في تاريخ مصر جميعه، حتى زمن إخناتون، التي نجد فيها ألواحًا مسمارية. وذلك بقوله: «ولم يكن شيء مثل ذلك قد عُثر عليه من قبل في مصر إطلاقًا؛ لهذا لم يأخذ علماء المصريات الأمر بجديّة، وقرّر الأثريون أنها قِطْع مزيفة، لكن بعد دمار كثير منها، وبعد مناقشات طويلة، ومقارنات مع الموجود بمتاحف العالم من نصوص مسمارية، أدركوا حقيقة تلك المكتبة الكبرى وأهميتها، وأنها كانت مراسلات بين آمنحتب الثالث وولده إخناتون، وبين مختلف الحكام الآسيويين في عصرهم، وكانت الكتابة باللغة الآرامية، بالخط المسماري البابلي، قد أصبحت لغة المعاملات الدبلوماسية في العالم إذ ذاك».^{٢١}

وضمن تلك الرسائل عثر على قِطْع سامية أدبية مشهورة، مثل ملحمة جلجامش التي وُجدت مترجمة إلى لغتين هما: اللغة الحيثية واللغة الحورية أو الكارية، مع أساطير من آداب حضارة الرافدين، مثل أسطورة آدابا، وأسطورة سرجون الأكدي، الذي قذفت به أمه في سفط بالماء، حتى أنقذته الإلهة عشتار ومنحته حُكم البلاد. كما عُثر بدون مناسبة، ودون أن نعرف السبب على ملاحم أخرى، مثل ملحمة ملك الحرب الأكديّة التي تتحدث عن فتوحات سرجون الأكدي، وُجدت منها نسخة أخرى بالحيثية في عاصمة الحيثيين خاتوشاش بتركيا عند بوغازكوى الحالية.^{٢٢} وقد استنتج بعض الدارسين أن المقر الرسمي الأول لحفظ تلك الرسائل كان في مقر الحكم بالعاصمة طيبة، ثم نقلها إخناتون معه، حيث انتقل إلى عاصمته الجديدة في العمارنة.^{٢٣}

[انظر رسائل العمارنة: الشكل رقم «١٥٨-١٦١» صفحة (١٤٢٦-١٤٢٩)]

الدعوة الجديدة

أول ما نجد ذكرًا مجدًا لرب الشمس باسم آتون، عند الفرعون تحتمس الرابع، الجد المباشر لإخناتون. ويقول د. عبد المنعم أبو بكر: «ومن هذه التباشير تصوير قرص

^{٢١} جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

^{٢٢} طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص ٣٦٥.

^{٢٣} جوليا سامسون، نفرтитي ... سبق ذكره، ص ٢٨.

الشمس، تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشريتين تحيطان بالملك وتحميانه، وتُقدقان عليه النعم، وهو ذات التصوير الذي اختاره إخناتون فيما بعد لإلهه آتون، مع تحويل يُلائم عقيدته. بل عُثر على اسم آتون نفسه مذكورًا على جعل رجعران سجل عليه الملك (يقصد تحتمس الرابع) تمجيدًا لذاته، وإشادة ببابه وقوته، وجهاده في سبيل إخضاع الشعوب، وجعلهم من رعايا آتون.^{٢٤}

ومن بعده نجد إشارة إلى عبادة «آتون» في لوحتين في عهد آمنحتب الثالث، ابن تحتمس الرابع، تُنسبان إلى الفنانين سوتي وحور، اللذين كانا يعملان في طيبة، وكانا على صلة بولده إخناتون.^{٢٥}

ويقول «سليم حسن»: «الواقع أن الانقلاب الديني الذي أحدثه «آمنحتب الرابع/إخناتون» فيما بعد، لم يأت دفعة واحدة، بل جاء على مراحل. ومنذ عهد تحتمس الرابع، بدأت تبدو ميولٌ لتمثيل إله الشمس، في صورة جديدة غير صورته التقليدية، التي كانت تتخذ شكلًا بعينه على حسب الأحوال. وكلها كانت تتمثل في هيئة إنسانية برأس حيوان وبصورة إنسان، وحسب. أما الصورة الجديدة؛ فكانت على هيئة قرص الشمس وحسب/آتون. وقد أخذت عبادة الشمس بهذه الصورة، تنمو شيئًا فشيئًا في عهد آمنحتب الثالث، ولكن دون مساس عبادة آمون بأذى. لكن لما جاء آمنحتب الرابع اختمرت فكرة عبادة رع في صورته الجديدة على أن يكون إله الإمبراطورية، وأقام لنفسه حاضرةً جديدة في المكان المعروف الآن بتل العمارنة بالقرب من ملوي، وسماها إخت آتون أي أفق آتون. كما أسس مدينة أخرى بهذا الاسم في بلاد النوبة، ومن المحتمل كذلك أنه أسس ثلاثة في آسيا.^{٢٦} ومن جانبنا نرى أن أخت آتون الآسيوية ربما كانت تلك التي وردت في أسفار الكتاب المقدس، كما في (سفر القضاة، ١٢/١٣-١٥) باسم: «فرع-آتون»، أو «فرعتون». و«فرع» هو الشقيق أو الأخ، فهي بصدق النطق مع الدلالة «أخت آمون». وحدد قاموس الكتاب المقدس موقعها في جبل العمالقة في إفرايم، وأنها تحمل الآن اسم «فرعاته» على بعد سبعة أميال ونصف، جنوبي غربي شكيم (نابلس الحالية) بفلسطين.

^{٢٤} عبد المنعم أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٦٧.

^{٢٥} سليم حسن، الأدب المصري ... سبق ذكره، ج ٢، ص ١١٠.

^{٢٦} سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره.

وهكذا يؤكد عبد المنعم أبو بكر: «أن شر الثورة الدينية كان قد بدأ يتطير منذ أيام تحتمس الرابع، ووجد مناصرة قوية في عهد ابنه آمنحتب الثالث. هذا الملك أطلق اسم «بهاء آتون» على الزورق الملكي الذي أهدها لزوجته تي. كما عاش في عصر آمنحتب الثالث رجل اسمه «رع مس»، جمع بين وظيفتين؛ إحداهما: كاهن آمون. والثانية: مدير البيت في معبد آتون. بل أكثر من هذا، ما ورد في أحد النصوص في عصر هذا الملك، أن «بن بوي»، وكان عملًا كاتبًا لخزانة معبد آتون، كان يطلب من فرعون أن يتوسط عند الإله آمون، ليمده بالقربان الجنازية، كل هذا يدل على أن آتون كان معترفًا به في عصر آمنحتب الثالث، وأنه كان له معبد في طيبة قبل ثورة العمارنة.»^{٢٧}

ويحيطنا «سيرل آلدريد» علمًا أنه: «توجد بالمتحف البريطاني لوحة من مخلفات بيت بانحسي بالعمارنة، عليها منظر للملك آمنحتب الثالث يبدو فيها رجلًا بدينًا مسنًا، مسترخيًا على عرشه بجوار زوجته الملكة تي، وفوقهما الأشعة الآتونية.»^{٢٨} وسعيًا وراء ما يمكن العثور عليه حول الإله آتون في المراحل السابقة للفرعون إخناتون، نعلم من المصروولوجيست «سيد توفيق» أنه: «لم يكن آتون سوى صورة جديدة لإحدى ظواهر الشمس المختلفة المعروفة من قبل، اتخذت اسمًا جديدًا أول ما ظهر في الدولة الوسطى، وعلى وجه التحديد في الأسرة الثانية عشرة من ١٩٩١-١٧٨٦ ق.م. بمفهومين؛ الأول: كوكب الشمس. والثاني: الإله المقيم في هذا الكوكب. واستمر آتون بهذين المعنيين، حتى جاء إخناتون وحرره من المعنى الأول، واختار له المعنى الثاني. ولم يظهر الإله في صورته المألوفة لنا، وهي قرص الشمس ذات الأيدي الإنسانية في أوائل عهد إخناتون، بل تعبد الملك للإله آتون في صورته البشرية برأس الصقر حور أختي متوجًا بقرص الشمس ... بعد ذلك وقع اختيار إخناتون على قرص الشمس ذي الأيدي البشرية، ليكون الرمز المقدس لإلهه آتون. وقد عرف المصريون القدماء القرص ذا الأيدي الإنسانية منذ عهد الملك آمنحتب الثاني ١٤٥٠ ق.م. (والد تحتمس الرابع، والد آمنحتب الثالث، والد إخناتون/المؤلف)، مثل عليها القرص يخرج منه ذراعان آدميتان تحضنان وتحميان خرطوش الملك ... لقد اختار إخناتون إلهه صورة قرص الشمس محددًا، أي صورة أمامية مجسمة له، وذلك بخلاف ما عهدناه في الفن المصري، الذي تظهر فيه الشمس المجنحة، كزخرفة على الأعتاب

^{٢٧} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٦٩.

^{٢٨} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٠٤.

العليا لمداخل المعبد ... ويزينه الصل، وتخرج من القرص أشعة على شكل خطوط ترمز إلى الأذرع، وينتهي كلُّ منها بيدٍ بشرية يمسك بعضها بأحد رمزين؛ الأول: للحياة عنخ. والآخر: للسعادة واس، متوجهة بهما إلى أنف الملك والملكة فقط.^{٢٩}

[انظر الشكل رقم «١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥» صفحة (١٤٢٢، ١٤٣٠-١٤٣٢)]



شكل رقم «١٦٦»: إخناتون ونفرتيتي يتعبدان تحت أشعة قرص الشمس (لاحظ تاج إخناتون المستطيل وذؤابة تتدلى منه، لاحظ أيضًا أيدي آتون ممسكة بعلامة العنخ عند أنف الملك.

^{٢٩} سيد توفيق، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٥.

بل ونجد في طيبة أيام حكم آمنحتب الثالث، قبل الانقلاب الديني الذي قاده ولده إخناتون، المهندسين سوتي وهور ينقشان نشيدًا للإله آمون باعتباره الشمس، ويخاطب قرص الشمس باسمه آتون؛ لأن آتون كانت تعني قرص الشمس المادي ذاته، ويقول ذلك النشيد:

التحية لك يا قرص آتون النهار،
الذي خلق الناس وجعلهم يعيشون.
الصقر القوي ذو الريش المتعدد الألوان،
الذي جاء للوجود ليرفع نفسه.
الذي جاء للوجود من تلقاء ذاته دون أن ينجبه سواه.
حورس الأكبر الذي يقيم في نوت السماوية
عند طلوعه يبتهج الإنسان.
وعند غيابه يحدث للإنسان مثل هذا.
ذاك الذي يدير القطر المزدوج من أعظم كائن إلى أصغره.
أم الآلهة والناس،
صانع الخير الفنان الساحر الذي لا يعرف الكلل ...^{٣٠}

ومع الظهور المفاجئ للإله آتون زمن آمنحتب الثالث، الذي صيغت فيه الأنشودة السابقة، موجهة إلى الإله آمون وقرص الشمس الآتون، ثم صعود آتون وتفردته وحده بالربوبية زمن آمنحتب الرابع/إخناتون، حاول البعض القول إن عبادة آتون كانت أصيلة في مصر، فهي عبادة الشمس القديمة ذاتها، التي تجلت في حور وفي آتوم وفي رع وفي آمون. ويقول د. أبو بكر: «وعقيدة الشمس عُرفت في مصر منذ فجر تاريخها، وصوّرها المصريون على هيئة إنسان يحمل فوق رأسه تاج الملك، ويتربع على عرش الدنيا، ويطلقون عليه اسم آتوم، ويعتبرونه أول الخليقة وأصل البشر جميعًا.»^{٣١} خاصة إذا أخذ بالحسبان إمكان تبادل حرفي «ميم» و«نون» في آتوم وآتون، علمًا أن آتون كان هو قرص الشمس ذاته، فهو الأتون أي القرن الناري العظيم.

^{٣٠} دumas، آلهة ... سبق ذكره، ص ١٢٢، ١٥٦، ١٥٥، ١٢٣.

^{٣١} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٤٥.

هذا بينما يذهب آخرون إلى العكس تمامًا، فيقولون إن الديانة الآتونية ديانة غريبة على الفكر المصري القديم، خاصةً مذهبها التوحيدي الذي يناقض ما فُطر عليه المصريون من تعددية مفرطة، وحرية هائلة في مساحة الاعتقادات. ويزعم هؤلاء أن عبادة آتون قد وفدت على مصر مع الساميين، الذين كانوا في مجملهم يقدسون الشمس، ويرمزون لها بموقد ناري في المعبد،^{٣٢} يعمل الكهنة على اشتعاله الدائم، وهو ما نجده في الهيكل اليهودي وعبادات الفرس واليونان وغيرهم. فيقول أحد هؤلاء، وهو يتحدث عن عقيدة التوحيد في بوادي الشام: «إن دعوة التوحيد أصيلة في هذه المنطقة، وإنها انتقلت مع الهكسوس العموريين، أو العمالقة إلى مصر بين ١٧٨٥-١٥٨٠ ق.م. وسببت ظهور الديانة الآتونية التوحيدية التي دعا إليها إخناتون في ١٣٧٥-١٣٥٨ ق.م.» ويضيف آخر قوله: «ونحن لا نستبعد أن تكون عقيدة الوحدانية التي تبناها إخناتون قد جاءت إلى مصر عن طريق قبائل الهكسوس العربية، التي حكمت مصر زهاء قرنين قبل إخناتون.»^{٣٣}

ثم اختلفت الآراء بين الباحثين على مستوى آخر، عبّر عنها أبو بكر وهو يقول: «لقد اختلفت الآراء في ديانة إخناتون، وهل كانت وليدة تنافس سياسي بين إخناتون كملك على العرش، وبين سلطان كهنة آمون وراثتهم العجيب، أم كانت فتنة حتمتها ظروف الإمبراطورية المصرية، التي جعلت الثروة تنحصر في فئة قليلة من الناس، فقام النزاع المرير بين العمال وبين هؤلاء الأغنياء المستملكين لثروة البلاد، أم إنها كانت ثورة قامت بين كبار الموظفين المدنيين وكبار رجال الجيش؟»^{٣٤}

وربما يدعم الآراء الأخيرة ما ذكره «زينون كاسيدوفسكي» أن «إخناتون ... اختار مقربيه من الفئات الاجتماعية المضطهدة؛ لأنه كان باستطاعته أن يثق بهم أكثر. ويجدر أن نشير هنا إلى الكتابة التي وُجدت في مقبرة أحد أفراد حاشيته لقد كنت شخصًا ذا منشأ وضع من جهة أمي وأبي، لكن الملك أوقفني بكرمه وأعطاني قوتي اليومي، أنا الذي كنت فيما مضى أستجدي كسرة الخبز.» ثم ينبهنا كاسيدوفسكي إلى وجوب ملاحظة أنه «قد اكتُشف في تل العمارنة ... تابوت أحد النبلاء كان في خدمة إخناتون، وكان النبيل يُدعى

^{٣٢} عفيف بهنسي، إيبلا والتوراة، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، عدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨م، ص ٧٧.

^{٣٣} أحمد سوسة، العرب واليهود ... سبق ذكره، ص ١٧٢.

^{٣٤} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٤٠.

نيحيم (نظنها مناحيم الإسرائيلية/المؤلف) وهو آسيوي. أما وزير هذا الفرعون المدعو بانحامو، فقد عُد شخصاً جباراً في العصر الفرعوني، مع أنه كان آسيوي المنشأ.^{٣٥} بل إن جيش إخناتون نفسه، كان يتكون من أخلاط أجنبية، أو كما يقول «حماد»: «إن جيشه كان مكوناً من مختلف الجنسيات؛ إذ نرى صفّاً من الجنود، يتقدمهم مصري يرتدي النقبة ذات الثنيات، ويحمل الترس والرمح وبلطة. ويليهِ آسيوي يحمل الرمح والسيف الأقنى، والثاني نوبي (يقصد زنجي) يحمل قوساً مزدوج الانتهاء وسهاماً.»^{٣٦} بل وصل الأمر إلى حد أن كاهن آتون نفسه، المفترض أنه أهم شخصية حينذاك بعد الفرعون؛ فقد كان بدوره آسيوياً، أو حسبما يسجل التاريخ «وكان عصر العمارنة تحوُّلاً واضحاً في نظرة المصريين نحو الأجانب، وحيث بدأت الاستعانة بأعداد كبيرة منهم في مختلف مناصب الدولة، فكان الكاهن الخاص لإخناتون سوري الأصل «آسيوي»، ومن قبل عرف القصر الملكي في طيبة طوائف مختلفة من الأميرات الآسيويات في حريم الملك أمينوفيس الثالث.»^{٣٧} أي آمنحتب الثالث والد إخناتون. وهي العلامات التي ذهبت بلويس عوض إلى القول أن: «تل العمارنة قد أخذت اسمها من العمو Ammou أو العمرو Amro أو العمورو Amourru أو العموريين Amorites أو آل عمران، كما نسميهم في العربية؛ إما لأن العموريين احتلوها بالفعل، وكانت من مراكزهم الرئيسية في فترة ما. وإما لأن ذاكرة الأجيال حفظت رأي المصريين في أخيتاتون (مدينته العمارنة) وإخناتون وعبادة الإله الواحد، وتعريفهم بديانته على أنها ديانة الأعداء العموريين، وأنها كانت تستخدم الأعداء العموريين.»^{٣٨} وهي كلها مؤيدات لوجهة النظر التي ترى آتون إلهاً غير خالص المصرية، وأن إخناتون نفسه كان سامي الهوى آسيوي المزاج والتفكير؛ ولأن فرويد كان ذا اهتمام خاص بالفرعون إخناتون، فقد أدلى بدلوهِ لتفسير مسألة التوحيد الطارئة، واقترح الأسباب التي أدَّت إليها وأفرزتها، فيقول: «كانت الظروف السياسية قد طِفقت منذ ذلك العهد، تمارس تأثيرها على الدين المصري، فبفضل المآثر المظفرة لفتاح كبير هو

^{٣٥} كاسيدوفسكي، الواقع والأسطورة ... سبق ذكره، ص ٧٩.

^{٣٦} محمد حماد، كامس ... سبق ذكره، ص ١٨.

^{٣٧} محمد إبراهيم بكر، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ٢١٩.

^{٣٨} لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص ٢١.

تحتمس الثالث، أصبحت مصر قوة عالمية، ضمت إلى إمبراطوريتها بلاد النوبة في الجنوب، وسورية، وجزءاً من بلاد الرافدين في الشمال. وقد تجلّت هذه النزعة التوسعية منذ ذلك الحين في الدين في شكل نزعة شمولية توحيدية. فلما كان سلطان فرعون لا يشمل مصر وحدها، بل كذلك النوبة وسورية؛ فقد بات من المحتم ألا يبقى الإله مجرد إله قومي. وما دام فرعون قد أصبح السيد الأوحد، اللامحدود السلطان على كل عالم المصريين المعروف؛ فقد بات من المحتم أن يغدو إلههم الجديد إلهاً قوياً، وأوحد هو الآخر. لم ينكر آمنحتب الرابع قط أنه تبنى عبادة شمس أون ... بل إنه خطاً خطوة أخرى إلى الأمام، فلم يتعبّد للشمس بوصفها شيئاً مادياً، إنما بوصفها رمزاً لكائن إلهي، تتجلى قدرته في أشعتها؛ ففي أحد أناشيده جاء ما يلي بصريح العبارة: أيا أنت، أيها الإله الأوحد، الذي ليس إلى جانبه إله آخر.^{٣٩}

ومع إله أوحد غيور دكتاتور، يطلب كل المساحة لذاته، ويستبعد كل الآلهة، كان لا بد أن يمارس إخناتون أشد درجات التعصّب الديني، لأول مرة في التاريخ المصري، فيقول أحمد عثمان: «إن إخناتون اعتبر أن آتون — الذي ليس له صورة أو تمثال — هو إله واحد لكل البشر، ثم منع دخول معبده إلا لمن ترك المعبودات الأخرى، واثارت ثائرة الكهنة المصريين، فترك الشاب العاصمة، واختار موقعاً بمحافظة المنيا، قبالة مدينة ملوي، يُعرف الآن بتل العمارنة، وبنى فيه مدينةً جديدة؛ ليعيش فيها هو وأتباعه. وقرر الاعتماد على الجيش لتنفيذ سياسته، فعين خاله الثاني «آي» مشرفاً على الخيالة وقائداً للحرس الملكي، في مكان والده «يويا»، كما أنشأ فرقة عسكرية من أبناء الجاليات الأجنبية في مصر لحراسته. وهذا يتضح من رسومات مقابر النبلاء في تل العمارنة، ثم أرسل فرقة عسكرية إلى جميع المدن المصرية، لإغلاق المعابد ومصادرة أوقافها، وأمر بتسريح جميع الكهنة عدا كهنة آتون، ثم أمر بشطب اسم آمون من على جميع النقوش، حتى تلك التي تدخل في اسم والده آمون حوتب، وكذلك كلمة نترو، وهي جمع لكلمة نتر بمعنى معبود.^{٤٠}

ويحدد لنا شتيندورف وسيل بداية حملة التعصّب والكراهية في قولهما: «... وفي السنة السادسة من حكمه، أصبحت عبادة آتون الديانة الرسمية للدولة، وأغلقت معابد الآلهة الأخرى في كل مكان، وصودرت ممتلكاتها، ودُمرت تماثيل الآلهة القديمة، ومُحيّت

^{٣٩} فرويد، موسى ... سبق ذكره، ص ٢٩-٣٠.

^{٤٠} أحمد عثمان، تاريخ اليهود، ج ١، ص ٥٨، ٥٩.

صورها من نقوش المعابد، وأزيلت أسماؤها. وتركز الاضطهاد الشديد على آمون وعائلته، ليس فقط في المعابد، بل وحتى في حجرات المدافن الخاصة، إذا كان هناك سبيل إلى دخولها، وحرّم اسم آمون بالتحديد، وكل مَنْ يحمل اسمًا يحتوي «آمون» أُجبر على تغييره. وكان الملك نفسه من أوائل مَنْ فعلوا ذلك، فتخلّى عن اسم آمون حتب أي آمون راضي، وتسمّى بإخناتون أي المفيد لآتون.^{٤١}

ويشرح عبد المنعم أبو بكر مؤكّدًا ذلك التعصب الرهيب، الذي امتلك عقل إخناتون «فأعلنها حربًا لا هوادة فيها ضد آمون؛ إذ أمر بتجريد حملة من العمال والصناع، تعاونهم فرقٌ كبيرة في الجيش لإبداء حركة إرهاب عنيفة، هدفها محو آمون ليس من طيبة فقط، بل من كل أرجاء الإمبراطورية المصرية والقضاء على كهنته».^{٤٢}

وهكذا يأتي تعقيب فرويد موجزًا كل الأحداث يقول: «ولئن كان آمون هو الضحية الرئيسية لاضطهادات العاهل، فإنه لم يكن الضحية الوحيدة، فعلى امتداد أرجاء الإمبراطورية أغلقت المعابد وصُودرت أُملاكها، وحظرت العبادات وحجزت الكنوز الكهنوتية. وقد أمر العاهل مدفوعًا بحميته بالتنقيب عن نقوش الأنصاب القديمة، لنُحى منها كلمة إله في حال ورودها بصيغة الجمع. ولا غرو أن تكون هذه التدابير قد أثارت في أوساط الكهنوت المضطهد والشعب المستاء حاجة محمومة إلى الانتقام، أمكن لها أن تروي غليلها بعد وفاة إخناتون؛ ذلك أن ديانة آتون لم تكن ديانة شعبية، ولم يعتنقها في أرجح الظن إلا جماعة صغيرة من الأشخاص الدائرين في فلك العاهل». ثم ينقل عن ويجال في كتابه حياة إخناتون وعصره قوله: «ديانة آتون تستبعد الخرافات كافة، وشعائر السحر والشعوذة جميعًا. كان إخناتون يرفض الاعتراف بفكرة جحيم يثير من الرعب، مما لا سبيل إلى توقيه إلا برقى سحرية، لا تقع تحت حصر. ورمى إخناتون بهذه الرقى جميعًا إلى النار، وقدم الجن والغيلان والأرواح والمسوخ وأنصاف الآلهة وأوزيريس نفسه، مع بطانته كلها لقمة سائغة لآلسنة اللهب، فألت إلى رماد. ولم يسمح إخناتون بأن تُحفر لآتون أي صورة على القبول، وكان الملك يقول: إن الإله الحقيقي لا شكل له، وقد بقي على رأيه هذا طوال حياته».^{٤٣}

^{٤١} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٠٦.

^{٤٢} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٠.

^{٤٣} فرويد، موسى ... سبق ذكره، ص ٣١.

وهناك احتمالٌ أن حملة الكراهية تلك، جاءت بعد مؤامرةٍ فاشلة دُبرت ضد إخناتون، وهو ما يؤخذ من أقوال إخناتون نفسه، التي وجدناها مدونة على إحدى لوحات حدود مدينة أخت آتون، ويقول فيها:

أقسم بحياة والدي آتون؛
إن الكهنة كانوا أشد إثمًا من كل الأشياء التي سمعتها حتى
العام الرابع، بل وأشد ضررًا من كل الأشياء التي وقعت
حتى العام السادس.

ثم هناك وثيقة ثانية عبارة عن تسجيلاتٍ، وردت مرسومة على جدران مقبرة رئيس الشرطة ماحو، وتحتوي على تفصيلات مؤامرة دبرها ثلاثة أشخاص أحدهم مصري. أما الآخران فكانا من الأجانب، وبدت شعورهما مسترسلة وقصرت لحيتهما. ويبدو أن هدف المؤتمر كان اغتيال الملك؛ إذ نرى الوزير بعد القبض عليهم يتوجه بالشكر لآتون، الذي وفَّقه لكشف هذه المؤامرة قبل تنفيذها.^{٤٤}

ويبدو أن التحقيقات أسفرت عن يدٍ طويلة لكهنة آمون في هذه المؤامرة، وهو الاستنتاج الذي ينبني على تركيز حملة الكراهية تدميرها على آمون أكثر من بقية الآلهة. وهكذا وللظروف التآمرية المحيطة بالفرعون ودعوته، كان لا بد أن تكون مدينته الجديدة ثكنة عسكرية عظيمة، تُعطينا صورةً مخالفة عن الفرعون المحب للسلام، الكاره للحرب، الطبيب الرقيق الدمث، فقد أصبح مؤكدًا الآن أن إخناتون بسبب تعصُّبه كان شديد القسوة مع مخالفه. ويقول أحمد قدري: «إن الجيش كان المؤسسة الوحيدة التي اعتمدت عليها الدولة بعد سقوط طبقة الكهنة».^{٤٥}

وإن أخت آتون تحوّلت لتُصبح المقر الرسمي لأقوى سلاح بالجيش آنذاك، فقد أمست «المقر الرسمي لسلاح المركبات الحربية بالجيش المصري، حيث يدل على ذلك وجود الثكنات العسكرية، التي كانت تشغلها وحدات هذا السلاح، ووجود أرض التدريبات

^{٤٤} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٨.

^{٤٥} أحمد قدري، المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفي، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٥٧.

الحربية، التي كانت تتمرن عليها هذه الوحدات ... وهو ما يُعتبر دليلاً على مدى الأهمية، التي كان يوليها عصر العمارنة للقوات المسلحة المصرية.^{٤٦}

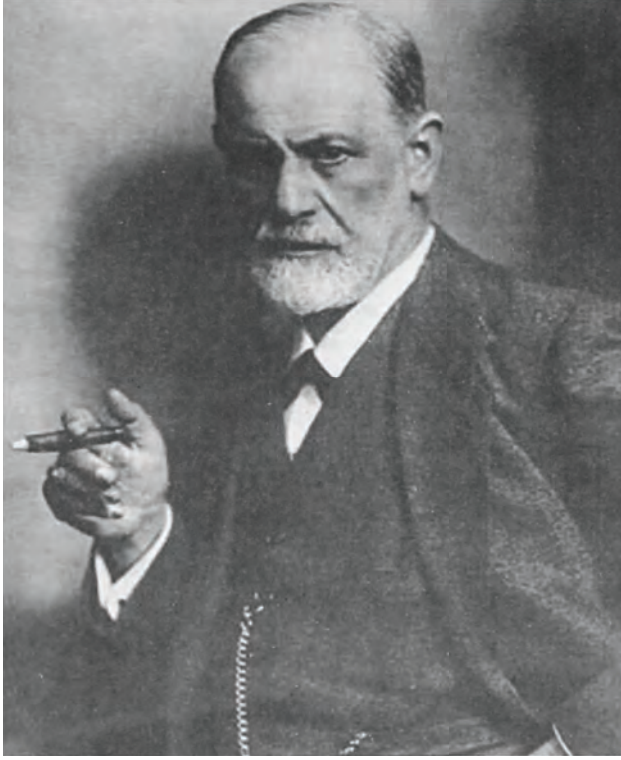
وتقول المصروولوجيست «جوليا سامسون»: «كانت هناك فكرة خاطئة، قال بها الكثيرون من المؤرخين وعلماء المصريات، مؤداها أن شدة اهتمام إخناتون بالدين الجديد الذي دعا إليه، وشخصيته كشاعرٍ حالم، قد جعلته ينصرف تماماً عن التفكير في شئون الدولة وشئون الحكم، خاصةً بالنسبة للشئون العسكرية والحربية وشئون الأمن المحلي والقومي. ولكن عُرف الآن أن إخناتون قد واصل سياسة حفظ توازن القوى بين مصر ومستعمراتها في أفريقيا وآسيا وبين دول الشرق الأدنى التي بدأت في الظهور والنمو. وعرفنا أيضاً أنه اتخذ إجراءً عسكرياً، بإرسال حملة حربية لإخماد القلاقل التي أثارها البدو في النوبة.»^{٤٧}

وكان المعلوم في خطابات العمارنة القادمة من الولايات المصرية في الخارج، أن تلك الولايات تتعرض للهجوم والاقتطاع من الأملاك المصرية، بواسطة الخابيرو وحكام ميتاني. والمظنون أن ميتاني تقع في أعالي الفرات، حسبما مَوْضَعُها المؤرخون، وهو أمر لا يلتقي مع وجود الخابيرو في تلك المناطق الفراتية، قدر ما يتناسب مع وضع ميتاني في مديان بسيناء عند العقبة وبلاد أدوم. فالخابيرو والمديانيون كما نعلم في التوراة بينهم صلات قرابية متصلة من النسب المتجدد، ناهيك عن سكن الخابيرو بلاد مديان ومحيطها معظم الوقت. وقد اتُّهم إخناتون تحديداً أنه السبب في ضياع أملاك مصر الإمبراطورية؛ لتقاعسه عن إرسال الجيش وكراهيته للحروب، لكن يبدو أن إخناتون قد اتُّهم ظلماً بسبب دعوته الدينية، وبأنه فرط في أملاك مصر بالخارج. فهذا «جاردنر» يقول: «ليس فقط إخناتون وحده مسئولاً عن ضياع هيبة مصر، إنما سبقه أبوه، فهناك رسائل من أكيزي لأمحبتب الثالث، بها شكوى مريرة من الهجوم الذي تتعرض له تلك الولايات. وفي رسائل العمارنة تُوَسَّلَت يائسة من ربٍ عدِّي نائب الفرعون في بيبيلوس، تطلب العون ضد عبد شري ومن بعده عزيزو حكام ميتاني، اللذين ارتبطا بالخابيرو وساجاز قاطعي الرقاب.»^{٤٨}

^{٤٦} نفسه.

^{٤٧} جوليا سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ١٣٠.

^{٤٨} جاردنر، مصر الفراغنة ... سبق ذكره، ص ٢٥٧، ٢٥٨.



شكل رقم «١٦٩»: سيجموند فرويد.

وهكذا يجمع المؤرخون الآن على أن المتقاعس الأكبر الذي أهمل ولايات الإمبراطورية هو الأب آمنحتب الثالث، الذي انغمس في الملذات، حتى أنهكت جسده وروحه، وأصابته أمراض الإسراف البدني مبكرًا. وفي ذلك يقول شتيندورف: «ومن غير المحتمل أن يكون آمنحتب الثالث، قد وضع قدمه على الأرض السورية، ومع ذلك فقد حاول أن يترك على آثاره انطباعًا، بأنه استطاع شخصيًا بسيفه الماضي، أن يخضع البلاد الأجنبية، بما فيها كوش البائسة ونهارين وسوريا، ويضعها جميعًا تحت قدمه. كما حاول أيضًا أن يقلد حملات سلفه العظيم تحتمس الثالث، فقام كهنته الأوفياء بتنفيذًا لمشيئته بتخليده في كل معابده باعتباره الحاكم الظافر. فهو يظهر مثلاً على نصب تذكاري عظيم، واقفًا في عربته

العسكرية، ممسكًا بالسوط والقوس في يده، وهو يقود خيوله منتصرًا فوق أجساد أعدائه الممزقة. بينما هو في الحقيقة قد قنع بالخروج للصيد والقنص، ليزبح الثيران والأسود بدلًا من الأعداء البشريين. وما أدعاه أنه قتل ١٠٢ أسدًا بيديه، خلال السنوات العشر الأولى من حكمه، يبدو أكثر إقناعًا من محاولته تصوير نفسه كفاتح عظيم.^{٤٩}

وأبدًا لم يقتنع المؤرخون حتى بشهادة أمانحتب بن حابو الحكيم، الذي عُين زمن أمانحتب الثالث في وظيفة الكاتب الملكي الرئيسي للمجندين، وقال فيما تركه مدونًا باسمه: «كنت أجند الشباب لمولاي، وعددت بقلمى الملايين من أعدادهم، لقد جندت أقوى الرجال من مقعد عائلاتهم، وكنت أفرض الضرائب على البيوت، بعدد من بها، وأختار القوات من منازلهم، وأغرقت الفلاحين بأحسن الغنائم، التي أخذها جلالته من ميدان القتال، وكنت أحصي كمية الغنائم من انتصارات جلالته وأنا بينها، وأتصرف طبقًا لما يقول وأنجز ما يكلفني به. ووجدت أن ذلك مفيد لي في المستقبل.»^{٥٠}

وربما يزيد في إدانة أمانحتب الثالث ميله الشديد لمسألة أنسابه، فلدينا رسالة من عاملة عبدي خيبا أو عبد هفا أو حاكم أورشليم، تردُّ بها فقرة واضحة الدلالة. فهو يتساءل غاضبًا مستنكرًا عن تقاعس الملك في إرسال كتائب الجيش المصري، لصد هجمات «الخابيرو». وهذه الفقرة تقول: «طالما أن سيدي الملك على قيد الحياة، فسوف أقول لندوب جلالته: لماذا تحب العابيرو وتكره أمير الولاية المقيم؟» ومن جانبنا ننقُب عن مصدر ذلك الغزو العابيري، فنقرأ رسالة أخرى من ذات الوالي الأورشليمي تم تصنيفها تحت رقم 286EA: «إلى كاتب الملك، سيدي من خادمك عبدي خيبا ... أفصح في قولك لسيدي الملك: إن جميع أراضي سيدي الملك قد فُقدت.» ثم نقرأ الرسالة رقم 288EA تقول: «إن أراضي الملك قد فُقدت، لقد أُخذت مني، وهناك حرب ضدي من بلاد سعيرو.»^{٥١} ويبدو لنا أنه رغم قيام أمانحتب الثالث ببناء المعبد العظيم بالكركن للإله آمون، ورغم رخاء عصره الذي لا شك عمَّ على كهنة آمون، وكان لهم النصيب الأعظم من جزى الشعوب المفتوحة؛ فإن هناك مشكلة أساسية جعلت كل هذه الرشاوى لا تجد صدًى مناسبًا من الكهنة؛ حيث كانت مشكلة الملك معهم مشكلة تأسيسية، تتعلق بالقواعد

^{٤٩} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٩٦.

^{٥٠} نفسه، ص ٩٨.

^{٥١} Albright, W., Akkadian Letters, The Amarna Letters, in A.E.T., p. 487.

والقوانين المقدسة للملكية، حيث كانت قاعدة القواعد وناموس النواميس، أن يَنُول العرش إلى بنت الملك الكبرى أولاً، ثم يتزوَّجها شقيقها، أو أي أمير يحمل الدم الملكي في عروقه عن طريق الأم وليس الأب، إنْ عَزَّ وجود هذا الشقيق. وكانت حالة أَمْنَحْتَب الثالث مخالفة لتلك القواعد بشدة؛ فقد تزوَّج أبوه تحتمس الرابع من «موت أم أويا»، وهي سيدة ميثانية من بلاط حكام تلك البلاد ولم تُكُنْ مصرية؛ أي من مديان حسب نظريتنا، فهي من بدو يعيشون على الحدود المصرية. وزاد الأمر سوءاً أن ابنه من بعده الملك أَمْنَحْتَب الثالث، لم يجد أميرة وارثة ليتزوَّجها، لتطبيق الشرع الإلهي لأحقية الحكم، والبعض يقول إنه كان له شقيقة طفلة اسمها سيت آمون لا تصلح للزواج، فتزوَّجها صورياً لكنه فضَّل عليها واحدة أخرى، هي مليكتة تي، وكانت بدورها من خارج الدم الملكي. وقرَّر الفرعون، فيما يبدو، الوقوف أمام القوانين المعمول بها والثورة عليها. لكنه كي يثبت أحقية الشرعية في التاج، أمكنه رشوة بعض الكهنة؛ لإيجاد قصة مناسبة ترقى به إلى الحكم الشرعي، فلجأ إلى حيلة استُخدمت قبل ذلك مرات متباعدة، وهي ترقى بالملك إلى رتبة أعلى من المحددات القانونية لشرعية الحكم، فتضعه في مكان المعصوم وتعطيه حصانة فوق القانون، وتتمثل في القول إن الملك قد أنجب الإله آمون مباشرة بنفسه؛ حيث كان الدم الملكي في نسل الأسر الحاكمة يعود مباشرة إلى الإله حور القديم عبر سلسلة مواليد إناث. ومن ثَم تأتي الحيلة لتنسب الملك مباشرة إلى رب الدولة آمون الذي عاش الأم الملكية، وهي في هذه الحالة الميثانية «موت أم أويا»، بعد أن اصطفاها من بين العالمين، وتمثَّل لها بشراً سوياً في شخص زوجها تحتمس الرابع، وضاجعها في هيكله بمعبده؛ لذلك فإن أَمْنَحْتَب الثالث إطلاقاً لم يَكُنْ ابن تحتمس الرابع، إنما هو ابن الإله آمون مباشرة. وفي ذلك يقول «شتيندورف»: «فهناك نقوش كثيرة من مختلف المعابد، تُصوِّر كيف أُنجب الملك من آمون، وكيف جاء إلى العالم تحت رعاية الآلهة. فنرى مثلاً داخل قاعة معبد الأقصر الإله خنوم Khnum، جالساً أمام عجلة الفخراي؛ حيث يشكل في وجود الإلهة إيزيس طفلين ذكرين، هما الملك القادم أَمْنَحْتَب الثالث وقرينه كا KA، الذي يشبه الملك تماماً في مظهره وطبيعته. وفي الصورة التالية نجد آمون يتصل بالزوجة الملكية العظمى موت إم أويا Mutem Wiye، ويولد منها الطفل الملكي الذي سبق أن خلقه خنوم. وفي منظرٍ آخر يظهر الإله تحوت Thoth للملكة، ويعلن لها حملها القادم، ثم نجد نقشاً مجاوراً يقود فيه خنوم وإيزيس الملكة إلى غرفة الولادة. وهذا يتم في حضور وبمساعدة عديدة من الآلهة وأنصاف الآلهة. وبعد أن تضع طفلها تحمل الربة إيزيس الأمير المولود،

وتُقدِّمه إلى أبيه آمون، الذي يأخذ الطفل بين ذراعَيْه، ويَعده بأن يحيا ملايين السنين مثل رع. وتقوم الربات والأبقار المقدسة بإرضاع الطفل الملكي، الذي ينمو تحت رعاية الآلهة، حتى يجلسه أبوه آمون في النهاية على عرش مصر.^{٥٢} وهكذا تمكَّن آمنحتب الثالث أن يحصل بالحيلة على مكان حصين إزاء شرعية الحكم؛ لأن أمه ليست من الأسرة المالكة، ولا يجري في دمها دم حور الملكي، ثم تزوَّج بزوجة غير ملكية الأصل هي الملكة تي. وحتى يثبت ذلك ويؤكدّه؛ تَمدى إلى حدٍّ أنه قرَّر أن يكون إلهاً معبوداً باعتباره الابن المباشر لآمون. وقد أصبح مؤكداً لدينا الآن، أنه كان يعبد في صورة تماثيل بصولب ومنف وهيراكيوبوليس/الكوم الأحمر وطيبة، وهو ما زال حياً، بل وقرَّر أن تكون تي بدورها إلهة لها ذات الحق؛ فقد وجدنا دلائل مؤكدة أنها كانت تُعبد في سيدنجا، بعد أن تم تعيينها ربة للإقليم.^{٥٣}

لكن ذلك كله وإن صار رسمياً، فإنه لم يكن ليخدع الكهان المخلصين من أتباع آمون، والذين ظلوا يعملون في الخفاء ضده وضد أسرته، كما سَنرى ذلك أيام ولده إخناتون؛ خاصة أن إعادة آمنحتب الثالث لفعله أبيه، بالزواج من فتاة غير نبيلة الأصل، ولا تجري في دمها الدماء الملكية هي «تي»، أضاف مزيداً من البلل إلى الطين؛ لذلك سنقف قليلاً مع الملكة تي، نستطلع شأنها وشئون أسرة العمارنة.

ويعود تشبيه المؤرخين لعصر آمنحتب الثالث، بعصر لويس الرابع عشر في فرنسا، أو بعصر هارون الرشيد في إمبراطورية العرب، إلى كون هذا الفرعون قد ورث إمبراطورية مصرية واسعة الأرجاء، تتدفق منها الخيرات على عاصمة الإمبراطورية طيبة، حيث مقر الحكم في أقصى جنوب مصر. وفي العام الثاني من حكمه، تزوَّج آمنحتب الثالث مملكته تي ابنة يويا وتويا، وأصبحت ملكة على تلك الإمبراطورية الواسعة، رغم أنها لم تكن من أفراد البيت الملكي. وكان المظنون أن أسرته من عامة الشعب، ويُرجح أن والدها يويا وأمها تويا، يعودان إلى بلدة تقع شمالي طيبة اسمها إخميم.

والمعلوم لدى علماء المصريات، أنه كان هناك أميرة تُدعى سيت آمون، ذكرت نقوشها أنها «الملكة بنت الملك»، لكنها كانت طفلة صغيرة عندما اعتلى آمنحتب الثالث العرش، وهو ما دعا إلى افتراض أنها كانت شقيقته وابنة تحتمس الرابع. وكان اللقب التالي

^{٥٢} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ١٠٣.

^{٥٣} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٦٥.

الذي حازته سيت آمون هو «ابنة الملك وزوجة الملك»؛ مما أدى إلى استنتاج أن آمنحتب الثالث عقدَ عليها زواجًا صوريًا، مراعاةً أو خداعًا للقوانين. لكن زوجته الفعلية كانت هي «تي»، التي صارت ملكة على الإمبراطورية المصرية منذ العام الثاني لحكم آمنحتب الثالث، بقراراتٍ جريئة من الملك، الذي قرَّر أن يفرض ملكيته على الجميع، وإنْ رَغِمَتْ أنوف، بل وقام يُعلن منحها لقب «الزوجة الملكية العظمى»، القاصر على الملكة بالوراثة في العادة المقدسة. ويقول لنا «سيدل ألدريد» بشأن الأصل غير للملكة تي، أن أباهَا كان يويا الكاهن الأكبر للإله مين في إخميم، والمشرف على ماشية المعبد. أما الأهم فهو أنه كان قائد فيلق المركبات الملكية (سلاح الفرسان). ويعقب ألدريد بقوله: «فهو إذن من الماريانو الأَشْداء محترفي الجندية.» ثم يُحيطنا علمًا أن «يويا» كان من أقرباء الملكة «موت-أم-ويا» زوجة الملك الراحل تحتمس الرابع، ووالده الملك آمنحتب الثالث.^{٥٤}

ويُحيطنا عبد المنعم أبو بكر علمًا بشخصية تي قائلاً: «وكانت تي سيدة ذكية صقلتها الأحداث، واستطاعت بدائها أن تظل حتى آخر أيام حكم زوجها صاحبة اليد العليا، ليس في مصر فحسب، بل في توجيه سياسة الإمبراطورية كلها، حتى بات ذلك أمرًا معروفًا عند الأمراء والحاكمين في أقاليم الشرق، فكانوا يقدِّرونها ويبعثون لها برسائل الود.»^{٥٥} وهكذا جاء حكم آمنحتب الثالث مشكوكًا في شرعيته من شقين: الأول أنه من أم ميثانية، والثاني أن زوجته بدورها ليست من حاملات الدم الملكي؛ لذلك سيكون نسلها مشكوكًا في شرعيته بدوره. وقد قرَّر آمنحتب الثالث تحدي الجميع بجعله الملكة تي الملكة الفعلية للإمبراطورية، بل وربة معبودة رغم أنف الجميع في تحدٍّ سافر للقوانين المقدسة. وذهب كثيرٌ من علماء المصريين إلى أن تي كانت من غمار الشعب المصري، وهو ما يؤكدُه عبد المنعم أبو بكر في قوله: «كان آمنحتب الثالث من أم ميثانية ... أُحيط بكل مظاهر الرعاية منذ طفولته، كما تجمعت له كل الأسباب ليصبح ملكًا، تخضع لأمره كل ثروات العالم، وتُجبى موارده كلها تحت أقدامه. نشأ مترفًا يعيش الحياة الرغدة، ويقبل على ملذات الدنيا، ويعتبره التاريخ مثلًا يُضرب لأبهة الشرق، فإن حبه للبذخ وإقباله على الانهماك في ملذات الدنيا، يجعلنا نعهده بحق سلطان مصر الفرعونية ... ولم يكد يكتمل العام الثاني لتربع آمنحتب الثالث على العرش، ولعلَّه كان قد بلغ الربيع الثامن عشر من

^{٥٤} نفسه، ص ٨٣-٨٤.

^{٥٥} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٢، ٧٣.

عمره، حتى اختار صبية لا تنحدر من أصلٍ ملكي زوجةً له. أبوها هو يويا كاهن الإله مين، وأمها هي تويا إحدى سيدات القصر المشرفة على الملابس في البلاط الفرعوني؛ أي لم يحمل أحدٌ من أبويها لقبًا ذا أهمية. هذه الصبية هي تي التي عُرفت بقوة شخصيتها، واستطاعت أن تجعل من نفسها إحدى سيدات التاريخ المصري الشهيرات؛ إذ كان لها أثرٌ كبير في توجيه سياسة الإمبراطورية المصرية في عصر زوجها، كما لعبت دورًا مهمًا في الأحداث التي جرت في عهد ولدها أمنتب الرابع/إخناتون ... وإذا كان أمنتب الثاني نصف ميتاني، ولم يكثرث أبدًا لنقاء دمه الملكي، فإنه كان أول ملك اختار الزوجة الملكية العظمى، من بين بنات الشعب المصري. لقد كان — ولا شك — جريئًا في تصرّفاتة، ومجددًا في التقاليد المصرية، والوثائق التي وصلت إلينا من هذا العصر، تشهد بمدى تدلُّه هذا الملك في حُب أثيرته ابنة الشعب تي، وإمعانه في إرضائها. لقد وجد من حقها عليه أن يعلن زواجه منها على شعب إمبراطوريته جميعًا. فحمل الرسل إليها بعددٍ من الجعارين الكبيرة، نقش عليها نصًّا يُعتبر بمثابة إعلان ملكي لزواجه ... وما من شك أن مثل هذا الإعلان، يحوي بين طياته اعترافًا قويًّا بشعور الملك، أنه أقدمَ على عمل ما كان له أن يُقدِّم عليه، كما يحمل إصراره على ذكر اسم والد «تي» وأمها. والدليل على أنه أقدمَ على هذا الزواج وهو يعرف معناه، لكنه لا يأبه للنتائج، وظلَّ بعد ذلك حريصًا على أن يقرن اسم زوجته الكبرى باسمه في كل مناسبةٍ دينية أو سياسية، ويشفع ذكرها بذكر أبويها أيضًا.^{٥٦}

وإن كنَّا نرى إصرار أمنتب الثالث على ترديد ذكر اسم والدَي «تي»؛ يويا وتويا، كلًّا ورد اسم ابنتهما الملكة، له أسباب أخرى غير تدلُّه الملك في حب «تي»، وهي الأسباب التي سيأتي بيانها في موضعها من هذا العمل.

ولم يقف إكرام أمنتب الثالث لزوجته «تي» عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد منه، فنراه يخالف كل القواعد القديمة في الفن المصري، التي كانت تحرص على عدم إظهار الزوجة الملكية إلى جوار زوجها في النقوش والتماثيل، إلا في مناسباتٍ معينة، وبشرط أن تقف الملكة بحجمٍ صغير جدًّا، بجانب ساق زوجها تحتضنه، ولا تصل قامتها بأي حالٍ إلى ركبته، بتواضع كأنما هي شخص لا أهمية له أبدًا. وإن حدث أن ظهرت الملكة بجانب الملك، فيجب تمييزها بحجمٍ صغير إلى جوار حجم الملك الكبير. لكن تي أضحت تُصوَّر في

^{٥٦} نفسه، ص ١٩-٢٣.

التمائيل والنحوت والرسوم على قَدَم المساواة مع زوجها الملك، ويصادق على ذلك تمثالها الضخم الذي يصورها جالسة إلى جوار زوجها دون تمييز في الحجم، وهو محفوظ الآن بالمتحف المصري.^{٥٧}

[انظر الشكل رقم «١٧٠»]

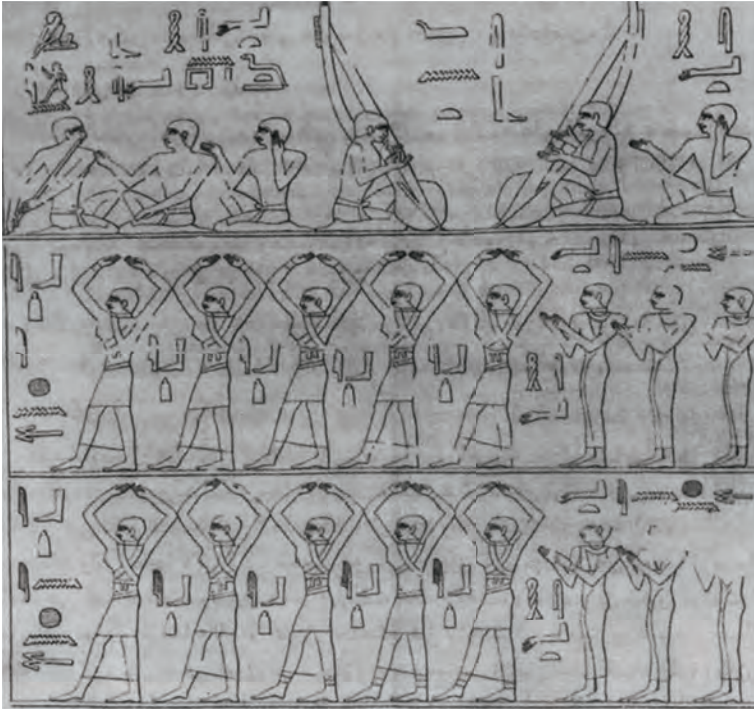
لكن إذا كانت تي وأبوها يويا يمتنون بصلة قرابة للملكة الوالدة «موت أم أويا»، كما قال ألدريد، وأن «موت أم أويا» من أصل ميثاني؛^{٥٨} ألا يفتح ذلك بابًا للشك في مصرية الملكة تي، وبذلك يكون آمنحتب الثالث قد خالف جميع القوانين السماوية دفعةً واحدة؟! هنا نجد من الضروري إيضاح الأحوال في مصر بعد طرد الهكسوس منها، فهذا عبد المنعم أبو بكر يصور لنا أحوال البلاد في لوحة واضحة المعالم؛ تفاصيلها في قوله: «كما تركزت تجارة العالم القديم في مصر، وكما انتشرت الحضارة المصرية في ربوع كثيرة، ولم تُعد قاصرة على فلسطين والساحل الفينيقي فقط، فإن المصريين فتحو أبوابهم للأسويين، فدخلت البلاد عناصر جديدة من المظاهر الحضارية، وظهرت في عصر الأسرة الثامنة عشرة أدوات موسيقية جديدة، أتت من آسيا مع أنواع من الرقص الغريب. بل انتشرت في مصر بعض العادات الآسيوية، وقبل المصريين عبادة آلهة آسيوية، كما رضي ملوك مصر أن يستعملوا في اتصالاتهم الخارجية اللغة البابلية. ودخلت على اللغة المصرية كلمات أجنبية كثيرة كمدلولات للأشياء الجديدة الدخيلة على مصر. وأصبحت طيبة عاصمة الإمبراطورية، بل عاصمة العالم تتمتع بأزهى ما وصلت إليه البشرية إذ ذاك، من مظاهر الرفاهية والرخاء.»^{٥٩} وهي ذات المعاني التي يكررها سير ألدريد، وهو يصف أحوال مصر الإمبراطورية في قوله: «كل هذه الثروة المنصبة داخل مجتمع عالمي منفتح، في دولة ذات بلاط فاخر، به حاشية ضخمة من الأميرات الأجنبية وبطانتهم، أثرت على البيئة المصرية النمطية ... وهذا الجو الذي لم تعهده الحياة الثقافية في مصر قبل ذلك، يرجع الفضل الأكبر فيه إلى انفتاح مصر في عهد الدولة الحديثة على جيرانها الأموريين والحثيين، وعلى دنيا الهندو أوروبيين. والحقيقة أن مصر بعد حكم الهكسوس، فقدت كثيرًا من ملامحها

^{٥٧} نفسه، ص ٢٣.

^{٥٨} ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٤.

^{٥٩} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٥، ١٧.

المحلية، واقتبست الكثير من مدينيات بلاد شرقي البحر المتوسط، فأصبح الملك الإله يشبه إلى حدٍّ كبير أبطال هوميروس ... وأصبح لأعوانه طابع الماريانو (المرتزقة المقاتلين)، الذين كانت لهم السيطرة على المجتمع الآسيوي في ذلك الوقت، وتزايد نفوذ وتأثير الزوجات الأجنيات والعبيد، بل حتى الموظفين العاديين.^{٦٠}



شكل رقم «١٧١»: تدريب على لونٍ من رقص الرجال الإيقاعي. لاحظ ربط الساقين لضبط الحركة، والمغني يضع يده على أذنه وصدغه بنفس الأسلوب الشرقي الحالي (أول الصف الأول)، فن اعتيادي بمصر القديمة.

^{٦٠} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٦٠.



شكل رقم «١٧٢»: من فنون الرقص المصري المعتمد على الحركة للصورة الفنية المطلوبة، فن اعتيادي بمصر القديمة.

المهم أن آمنحتب الثالث عاش حياة شديدة الرفاهية، غارقاً في الملذات، وهو ما تؤكدُه الخطابات التي كان يرسلها إلى أمراء مصر على البلاد الآسيوية، فهناك خطاب أرسله إلى «ميلكلي» أو «الملك علي» أمير جازر مع رسوله خانيا، يقول له فيه: إنه في حاجة إلى «أربعين فتاة من أجمل فتيات المدينة، يتميزن بوجوه جميلة وقوام ممشوق، وليس في إحداهن ما يعيب حُسنها»، ويردف الفرعون بعد ذلك القول: «وسأخذ من هذه الهدية مقياساً لحُسن ذوقك وخبرتك..»



شكل رقم «١٧٣»: ألوانٌ أخرى من الرقص المصري مع عازفة ومصفقات، ولم تزل العوالم والريفيات يطرقعن الأصابع بذات الحركات المصاحبة إلى اليوم، فن اعتيادي بمصر القديمة.

وهناك خطاب آخر أرسله إلى «شوبا ندو»، أحد الأمراء السوريين، وثالث إلى «عبدي خيبا» أمير أورشليم، يطلب منه إحدى وعشرين فتاة، أبكارًا غير ثيبات، ثم أرسل أكثر من أربع مرات، يلح في طلب ثلاثين عذراء، من حليفه الملك الميتاني «دوشراتا». وهو ما يعقب عليه عبد المنعم أبو بكر: «لا نكاد نشك أن البلاط المصري كان يعج بالغواني الأجنبية، وأن صاحبه كان منغمسًا حتى أذنيه في اللهو والمجون، وكانت النتيجة الحتمية لازدحام البلاط الملكي بهذه الوفرة من السرايا (وقد حضر منهن في عصر آمنحتب الثالث فقط ٤٢٨ غانية على أقل تقدير)، أن أخذ الدم الأجنبي يزداد امتزاجًا في عروق المصريين، وبخاصة أن سراة القوم وكبار رجال الدولة، أخذوا هم أيضًا يجارون الملك، ويعملون من جانبهم على استجلاب محظيات من بلدان آسيا القريبة، وكان لتجميع هؤلاء في البيوتات المصرية أيما أثر في انتشار كثير من العناصر الحضارية الأجنبية، وتغلغلها في الحضارة المصرية.»^{٦١} ويختم آلدريد وصف حياة هذا الملك، فيقول: «إن الملذات قد استنفدت صحته»، «حتى انتهى عاجزًا مريضًا، ومات بملذاته.»^{٦٢}

^{٦١} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨، ٣٠، ٣٥.

^{٦٢} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٩، ٦٩.

وسعيًا وراء العثور على طرف الخيط في الأصل الوطني للملكة تي، نقرب من يويا وتويا: كان يويا والد الملكة تي هو قائد المركبات الملكية وصاحب الخيل، أي كان قائدًا لسلاح الفرسان. وقد أثبت الفحص الطبي لمومياء يويا، أنه كان ذا مظهر مخالف للجنس المصري، فهو طويل القامة على غير المعتاد، شعر رأسه طويل أبيض متموج، أنفه كبير بارز معقوف، شفاه غليظتان بارزتان.^{٦٣} وهو الأمر الذي شكك تمامًا في انتسابه للمصريين، وقامت على ذلك أبحاث كثيرة.

وقد حاز «يويا» هذا في عهد الملك «أمنحتب الثالث» على ألقاب كثيرة وعديدة، ربما كان أهمها هنا: وكيل الملك للعجلات؛ أي: نائب الفرعون على قيادة سلاح الفرسان. و«حامل ختم الملك»، ومعنى ذلك: أنه كان الكاتب الملكي الرسمي وكاتم السر. وأيضًا لُقّب «فم الملك»، وهو ما يعني أنه كان المتحدث الرسمي باسم البلاط. ثم لُقّب «أذان الملك»؛ أي: إنه أيضًا كان رئيس الاستخبارات وشرطة أمن الدولة. ثم لُقّب «الذي أغناه ملك مصر»، وهو ما يعني أن يويا ما كان ليصل إلى مركزه هذا، إلا بفضل الملك ورضاه ورعايته وبقصد منه، وأنه لم يكن كذلك قبل ذلك. أما اللقب الأهم فهو «الأب المقدس» أو «والد الإله»، وهو اللقب الذي كان يعني لحامله أنه حمو الملك، ووالد زوجته الملكة أو شقيقتها.^{٦٤} لكن ما يجب تذكره جيدًا أن مقبرة هذا الرجل «يويا» وزوجته «تويا» التي اكتشفت بوادي ملوك، لم يُعثر بها على نقوش أو رسوم أو كتابات تمثل الاعتقادات المصرية، وخاصة تلك التي تمثل الاعتقادات في الحياة بعد الموت، وهو الأمر الذي يخالف المعتاد في كل مقابر مصر القديمة؛^{٦٥} مما يشير إلى أن صاحبها كان لا يعتقد، حسب عقيدته المجهولة لنا الآن، في عالم آخر من بعد الموت فيه بعث وحساب وجزاء وثواب وعقاب. والمعلوم أن الديانات السامية وأبرزها اليهودية، كانت لا تعتقد في بعث وحساب، ولم يطرأ ذلك الاعتقاد على الديانة اليهودية، إلا متأخرًا جدًا قبل قرنين فقط من الميلاد. كذلك كان الأنباط لا يهتمون إطلاقًا بالموتى، وكانوا يعتبرونهم لوًا من القمامة، والأغراض التي انتهت فائدتها يُهال عليها التراب؛ منعًا لضررها على الأحياء ليس أكثر.

^{٦٣} نفسه، ص ٥٢.

^{٦٤} أحمد عثمان، غريب في وادي الملوك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩م، ص ٦٦، ٦٧.

^{٦٥} نفسه، ص ٦٥، ٦٦.



شكل رقم «١٧٤»: الملكة تي سوداء سيناوية/رأس من خشب الأرز محفوظ بمتحف آثار برلين، العينان مطعمتان والرأس مكسو بقلنسوة من الفضة، والقلنسوة مُثبتة على الجبين بشريط من ذهب.

وبعد خلاف طويل بين الباحثين، انتهى الأمر إلى أن يويا وتويا، قد أنجبا عددًا من الأبناء والبنات، منهم من انطفأ ذكره مبكرًا، أو ليس لدينا عنه معلومات كافية مثل حنين Anen، الذي يترجم عادة «عانن»^{٦٦} ثم أشقاء وشقيقات أخريات أكثر أهمية، وصلتنا أسماءهم من هذه الحقبة الهامة في تاريخ مصر. فإضافةً إلى «تي» التي اختارها آمنحتب

^{٦٦} أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية ... سبق ذكره، ص ١٤٣.

الثالث ملكةً لإمبراطوريته، كان هناك أيضًا أسماء تحمل ذات التنغيم الغريب على اللسان والمسمع المصري، فقد كان من أبنائه الذكور «آي» الذي اعتلى عرش مصر بعد ذلك بفترة، وكان ذا يد طويلة في أحداث فترة العمارنة، وكانت له زوجة تحمل اسمًا من ذات النغمات «تاي». ولا نعلم إن كانت شقيقةً له وللملكة «تي» أم لا، لكنها قد حملت فيما بعد لقب «مربية الملكة»، وحمل «آي» نفسه لقب أبيه يويا «الأب المقدس»، و«والد الإله». وهو ما تم تفسيره بأن «آي» كان والدًا للملكة نفرتيتي التي تزوجها الملك آمنحتب الرابع/إخناتون؛ لذلك استحق «آي» ذلك اللقب، الذي يعني أنه حمو الملك إخناتون، كما تقلد كافة المناصب والألقاب، التي كان يحوزها أبوه «يويا».^{٦٧} وبهذا المعنى يكون آي ابن يويا وتويا والدًا للملكة نفرتيتي، وخالًا للفرعون آمنحتب الرابع/إخناتون وحمًا له. أما الأهم هنا فهو أن آي قد نُسبت إليه كثير من الآراء، التي جاء بها الفرعون إخناتون، التي تُسمى بالهرطقة الآتونية، بل إن النشيد الشهير لدينا الآن، في عبادة الإله آتون، والذي يظن البعض أن مؤلفه هو إخناتون، قد وُجد مسجلًا بالتحديد، وبالذات في مقبرة آي في العمارنة.^{٦٨} وقد أنجب آي إضافةً إلى نفرتيتي — إذا كانت نفرتيتي ابنته فعلاً — الأميرة التي حملت اسم موت سخمت، والقائد العسكري نخب مين.^{٦٩}

ومعلوم أن «آي» قد أصبح وصيًا على العرش بعد اختفاء إخناتون، وإبان حكم الصبيين اللذين خلفا إخناتون على العرش: سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، وبعد موتهما المبكر قفز على العرش، وشرع له بزواجه من عنخ أس. أن. با. آمون أرملة توت عنخ آمون.^{٧٠}

ويستلقت كل حواسنا ذلك التنغيم في أسماء أسرة العمارنة، ذات الأصول الميتانية «موت أم ويا»، يويا أو يهويا، وتويا وتي وأي أو ياي. وقد لاحظ عالم المصريات سيرل ألدريد ذلك فقال: «واضح أن العائلة كان لها وَلَع واضح بأسماء من نفس الفصيلة مثل ييي ويوا وأي، وكلها متقاربة الرنين قد توحى بوجود نوع من القرابة بين حاملها».^{٧١}

^{٦٧} نفسه، ص ١٤٦، ١٤٧. انظر أيضًا: ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٦، ٨٧.

^{٦٨} ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٥.

^{٦٩} نفسه، ص ٨٧، ٨٨.

^{٧٠} قذري، المؤسسة ... سبق ذكره، ص ١٧٨؛ وشتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

^{٧١} ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٤، ٨٥.



شكل رقم «١٧٥»: رأس تي، جاءتنا تماثيلها من سيناء بالتحديد وبالذات!

لكن الاسم المنغم هذا يحمل لنا إشارات واضحة إلى الرب التوراتي ياه، إهيه، يهوه، يهيه، يه، على مختلف التنغيمات. لقد كانت أسرة العمارنة من جهة الخئولة تعبد الإله يهوه السينائي المدياني؛ لأنها ببساطة كانت من نسل سيدات ميثانيات أو مديانيات. وهو ما يفسر لنا لماذا خَلَّتْ مقبرة يويا وتويا من أي نقش حول العالم الآخر؛ لأن عقيدة يهوه خَلَّتْ تماماً من أي اعتقاد في البعث والحساب، وكان اليهودي يعتقد أن مصير الجميع بعد الموت صالح وطلّح إلى هوية العالم التّحت أرضي، يعيشون هناك في الرغام والطين بين الآفات التّحت أرضية كالأفاعي والعقارب والديدان. وكان ثواب المؤمن أو عقابه دنيوياً، بطول العمر والسعادة المادية، أو العكس بالشقاء في الحياة، ثم الموت السريع.

ثم نتساءل: لماذا نجد تماثيل تي في سيناء، تحديدًا بالذات قرب الجبل المقدس كاترين؟ ثم ألا تشير تلك التماثيل إلى امرأة كوشية مهجنة، فهي سوداء لكنه السواد السيناوي بكل ملامحه.

ثم نعود بقارئنا إلى لوحات حتشبسوت في رحلة بونت، لنعلم دون أن تصيبنا الدهشة أن زوجة عظيم بونت بارح أو فرح أو رابع أو رابع أو رباح، كانت تحمل اسم «إ-تي»، وهو اسم يحمل معنى السيادة: الرئيسة.^{٧٢} (الرئيسة بمعنى السيدة)، كما في تسمية المصريين الآن للأفراد باسم «سيد»، ومنهم صاحب هذا الكتاب.

^{٧٢} سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج٤، ص٣٢٨، ٣٢٩.

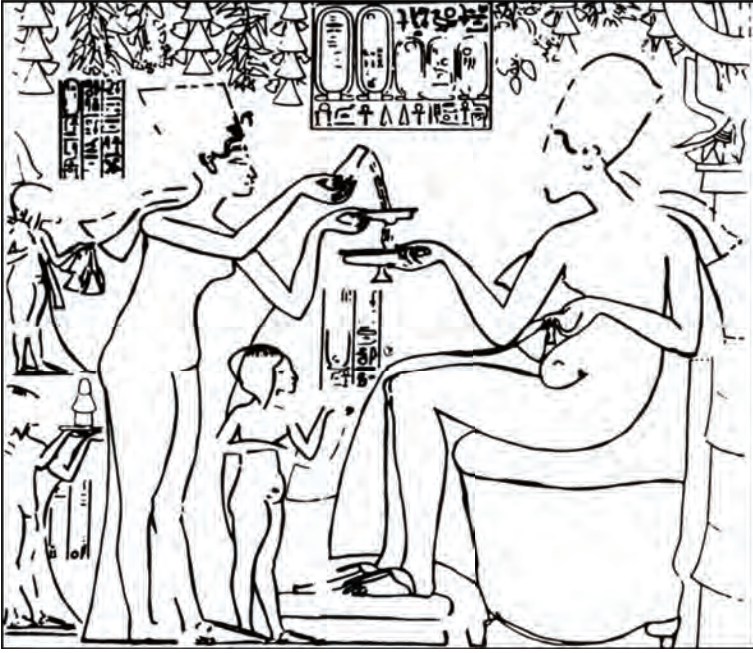
الفصل الثاني

فنون العمارة

لغزٌ يحلُّ ألغازًا كثيرة

ثلاث سمات تميز فنون تل العمارة عن الفنون المصرية الكلاسيكية السابقة عليها؛ أولاً: إكساب التماثيل والنقوش الحركة اللينة، وتصوير الطبيعة الجميلة في حركات كائناتها الرشيقية. ثانياً: العري الغريب الذي يغلب على نحوت ونقوش كل فنون العمارة، فنادراً ما مثل البيت المالك بملابس ساترة. بل إن نفرتيتي بالذات، وكذلك الملكة تي حماتها، قد صُورتا بأرديةٍ مغلقةٍ إغلاقاً خفيفاً من عند الثديين بدبوس يترك الثوب مفتوحاً، لتتسع الفتحة كلما هبطنا مع الجسد، حتى يفصح الثوب عن فخزين عاريتين، بينهما فرج عارٍ تماماً.

ويقول أبو بكر حول التجديد الفني الغريب في فنون العمارة: «ولا بد أن كهنة آمون، كانوا قد أحسوا بأن هناك مؤامرة تُحاك ضدهم، وأن الأحداث تجري سراعاً، وما زاد الطين بلة أن التيارات الجديدة، التي أقلقّت مضاجع كهنة آمون، كان يصحبها تجديدات فنية، قلبت الأسلوب الفني القديم وقواعده رأساً على عقب، بل هدمته وأودت به. لقد طلب الملك من الفنانين أن يتوخوا الأسلوب التعبيري في فنهم، وأن يتجنبوا المبالغة في إبراز صور الأفراد، فالرسوم الموجودة على أحجار ذلك المعبد، الذي شيده الملك لاتون في الكرنك، مرسومة بهذا الأسلوب التعبيري الذي يميز حكمه، والذي يظهر جسمه مشوهًا. بل إن التماثيل الضخمة التي عُثِرَ عليها في معبد الكرنك، توضح لنا بوجوهها النحيلة



شكل رقم «١٧٦»: نفرتيتي باعتبارها «الزوجة الملكية العظمى» تصب الشراب عبر مصفاة في كأس إخناتون (من جمعية الاستكشافات الأثرية المصرية). لاحظ عري الأسرة جميعًا.

وأفخاذها المتكررة، أن فن العمارنة كان مُنفَّذًا منذ أول أيام حكم إخناتون، أي قبل أن يبدأ النزاع رسميًا بينه وبين آمون وكهانه.^١

وتحاول عالمة المصريات «جولياسامسون» أن تبرر العري في لوحةٍ تقرأها لنا، فتقول: «المنظر العائلي المنقوش على جدران مقبرة النبيل آي، غير مكتمل من الناحية الفنية. ومن الواضح أن العمل الفني قد توقف قبل أن ينتهي، فلم تكن ملابس الملك والمملكة قد أُضيفت إلى الرسم. ولكننا مع ذلك نلاحظ بوضوح، أن كلاهما كان يضع تاجه المميز على رأسه، كما نلاحظ أشعة آتون الممتدة على شكل أياٍ، تمنحهما البركة، كما

^١ أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٧.



شكل رقم «١٧٧»: أونا يصنع تمثالاً عاريًا للأميرة بكتاتن، بينما تلميذه يتابعه (من جمعية الاستكشافات الأثرية المصرية).

تمنحهما الحياة عنخ. ومن الواضح أن الفنان قد اعتبر ذلك من أساسيات المنظر، الذي يحرص على تسجيلها منذ بدأ عمله الفني. ومن الواضح في هذا المنظر أيضًا أن نفرتيتي أصبحت تشارك زوجها مراسم وشئون الحكم، حيث تظهر وهي تساهم في منح وإهداء قلادات الياقات الذهبية إلى النبيل آي.^٢

ورغم محاولة سامسون تفسير العري في تلك اللوحة، بنسيان الفنان للملابس، أو وقف العمل في اللوحة قبل اكتمالها، رغم أن تفسيرها يغض البصر عن رسوم البطون والفروج والأفخاذ، بكل التفاصيل ووضع التيجان وأيدي آتون؛ لأن المسألة لو كانت عدم

^٢ جوليا سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ١٤٤.

إكمال الفنان لوحته بالملابس؛ فلماذا أنهك نفسه بنقش تفاصيل الجسد، المفترض أنه سيتم تغطيته؟ وجوليا سامسون نفسها تقول في موضع آخر تقول: «ومن هذه الحرية في التعبير ... ظهرت خطوط وتعبيرات فنية غير مسبوقة في تاريخ الفن، وأصبح الفنانون قادرين على تصوير الملك والملكة في أوضاع مختلفة، لم يكن مسموحًا بها على الإطلاق، في أي عصر من عصور التاريخ المصري القديم قبل عصر العمارنة ... ولكي يلاحظوا حيويتها وجمالها، الذي خلدوه في أعمالهم الفنية، قد سمح لهم أن يجلسوا في حضرة الملكة لساعات طويلة؛ لكي يراقبوا في كل وضع ومن كل زاوية. ومن الملاحظ أن أغلبية النقوش التي صورتها هي وبناتها، كانت تصورهن وهن يرتدين ملابس شفافة، تكشف خطوطاً ومنحنيات الجسم. وكانت نفرتيتي تفضل في أغلب الأحوال ارتداء أثواب مصنوعة من قماش شفاف، ومفتوحة من الأمام ولا ترتدي أية ملابس داخلية.»^٣

وتصف هي سامسون لنا لوحة أخرى فتقول: «نرى أحد هذه المناظر التي تصور رئيس النحاتين الفنان أونا، وهو جالس يؤدي عمله ... يضع اللمسات الفنية النهائية لتمثال للأميرة باكت آتون ... وقد وصفت هذه الأميرة بأنها ابنة الملك ... الأميرة كانت ترتدي ثوبًا مفتوحًا من الأمام، يبين معالم وتفاصيل جسمها.»^٤ مما يجعل الأمر يبدو عادات جديدة غير مصرية على الإطلاق، وأنها ربما كانت تأثراً بثقافة الميتانيين أو المديانيين.

أما السمة الثالثة التي تسم فنون العمارنة، فهي التيجان المميزة لإخناتون ونفرتيتي، وتقول هنا «سامسون» عن نفرتيتي: إنها «صممت لنفسها تاجًا خاصًا، أصبح من المعالم الهامة لشخصيتها. وقد استوحت نفرتيتي تصميم تاجها ولونه الأزرق من تاج الحرب خرش، الذي كان يرتديه الفرعنة المحاربون كرمز عسكري، والذي كان يرتديه إخناتون في أغلب الأحيان، بعد تطويره تطويرًا فنيًا خفيفًا، جعله أشبه ما يكون بغطاء رأس مميز.»^٥

مرة أخرى تحاول سامسون التفسير، فتشاهد تيجانًا غريبة تمامًا على الفن المصري، وتظهر بهذا الشكل لأول مرة، فتبحث لتجد أنها تشبه تيجان الحرب خرش مع بعض

^٣ نفسه، ص ٦٠.

^٤ نفسه، ص ١١٦.

^٥ نفسه، ص ٥١.



شكل رقم «١٧٨»: منظر جزئي من إحدى نصب أو علامات الحدود، التي أقيمت حول العمارة، ونرى إخناتون ونفرتيتي وهما يتعبدان للإله آتون، وخلفهما الأميرتان الصغيرتان (لاحظ عري نفرتيتي التحتي، وكذلك بناتها، وأيدي الإله آتون الرفيعة).

التحوير، لكن لماذا تلك الاستطالة المفرطة في هذه التيجان؟ إن أول ما سيلحظه المُطالع لفنون العمارة، تلك الاستطالة المفرطة في رعوس أسرة إخناتون. وهنا تدخل سامسون مرةً أخرى للتفسير، لتقول عن رعوس العمارة: «قد رُسمت جميعاً باستطالةٍ من الخلف، حتى لقد شاع ظن خاطئ بأن الأسرة الملكية كلها، كانت مصابة بمرض الاستسقاء في الدماغ ... وربما بسبب حرارة الجو في أيام الصيف، كان من اللازم تسريح الشعر وتجميعه خلف الرأس؛ لتخفيف الحرارة عن الرقبة وأعلى الكتف. وكان الرأس يبدو في مثل هذه التسريحة، كما لو كان في حالة بروز وانتفاخ».^٦

^٦ نفسه، ص ١١٤.



شكل رقم «١٧٩»: بنت من بنات إخناتون.

كان هذا اقتراح «سامسون» لتفسير الرءوس المستطيلة لبنات إخناتون، لكن لماذا لم يظهر أثر الصيف وتسريحاته تلك، إلا في لوحات العمارنة دون تاريخ مصر جميعه؟ ثم ماذا عن إخناتون نفسه، الذي حمل الرأس نفسها؟ ثم ماذا عن تاج نفررتي، الذي لا شك كان يُخفي تحته ذات الرأس؟ بل وكثير من رجال الحاشية ونسائها وفنانيها الموسيقيين، كانوا يحملون ذات الرءوس رجالاً ونساءً.

لنستمع إلى تبرير آخر، يلجأ إلى التفسير بأنها كانت عملاً فنياً، يتم فيه تحويل أشكال أفراد الحاشية ليأخذوا شكل الفرعون؛ فهو وحده الذي كان يحمل هذه الصفات. فيقول سيل وشتيندورف: «ولم يكتفوا بتصوير الفرعون وحده بهذه الطريقة غير المألوفة، إنما

أصبح شكله هو الطراز المصري المثالي. وهكذا صوّروا بنفس الأسلوب — لا الملكة فقط التي كانت وثيقة صلة القرابة بإخناتون أو الأميرات اللاتي ربما ورثن بعض ملامح الشبه عن أبيهن. إنما أيضاً كل المصريين الآخرين [لا نعلم لماذا وصفهم شتيندورف وسيل جزافاً بأنهم مصريون؟/المؤلف]، وهكذا منحوا نفس الخصائص البدنية المشار إليها آنفاً، والتي اختصت بها طبيعة الملك وحده، حتى أصبحوا أشبه بالصور الكاريكاتورية.^٧

هذا بينما ذهب عبد المنعم أبو بكر إلى أن هذه الرؤوس الطويلة، لم تكن مجرد محاكاة في الرسوم والنقوش لشخص الفرعون وصورته الجسدية. بل إنها كانت اتجاهاً فنياً ظهر فجأة مع أسرة العمارة؛ حيث يقول شارحاً: «ليس من شك في أن هذه الاتجاهات الجديدة التي سبق ذكرها، قد طبعت فن العمارة بطابعها، وجعلته يختلف اختلافاً واضحاً عن الفنون التي سبقتة والتي أتت بعده. ومن أجل هذا يود البعض أن يبحث جاهداً في إيجاد نوع من التأثير الأجنبي، لعلَّ إخناتون يكون قد استوحى منه القواعد الجديدة في فنه. هؤلاء يؤكدون تأثر فن العمارة بفنون شعب البحر المتوسط، وخاصةً بفن جزيرة كريت، وبفن ميسينا في شبه جزيرة البلقان، ويعتمدون في ذلك على أن الفن المصري لم يعرف الحركة، كما لم يحاول الفنان أن يُكسب أجسام البشر والحيوان في تحركهم تلك الالتواءات في الأعضاء، التي تتناسب مع الحركة التي يقوم بها الجسم ... لقد أبدع فنان العمارة في صياغة هذا الموضوع في رسومه، بحيث جعله ينبض بالحياة الملوءة بالحركة. ويقول أصحاب نظرية تأثر فن العمارة بفنون أجنبية: إن هذا الأسلوب الفني قد أخذه الفنان في عصر إخناتون عن الفن الكريتي».^٨

والذي لم يلتفت إليه هؤلاء المفسرون، رغم أهميته، أو أهملوه عمداً لعدم وجود تفسير واضح، أن المومياءات نفسها كانت تفصح بهذا الشذوذ في طول الجمجم، حتى من لم يرسم برأس طويل منهم، بسبب اختفاء الرأس تحت التاج، كما في حالة سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون، اللذين تليا إخناتون على حكم مصر، وهما صبيان صغيران وماتا في ريعان الصبا، حيث يقول «سير ألدريد»: أصبح من المسلّم به أن سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون كانا أخوين. والواقع أن رفاتهما المتبقي يُظهر تشابهاً غير عادي، وخصوصاً بين قياسات جمجمتيهما المفرطتين الشاذتين ... وقد ثبت في دراسة حديثة اعتمدت على

^٧ شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢١٥.

^٨ أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٠٩، ١١٠، ١١١.



شكل رقم «١٨٠»: نقشٌ عُثِرَ عليه في ورشة فنان العمارنة لإخناتون ونفرتيتي. لاحظ رأس نفرتيتي تغطي رأسها بقميص ضيق، لا يُخفي تفاصيل رأسها.

تحليل فصيلة دمائهما كانت واحدة، مما يعزز اعتبارهما أخوين، وتطابق شكل الملكين الصغيرين يدل على أنهما شقيقان لأب وأم. فإن كان إخناتون هو الأب فلا بد أن تكون نفرتيتي هي الأم.^٩

ولهذه الأسباب تحديدًا سيق تفسير آخر لرءوس العمارنة الطويلة، فقليل إن إخناتون — حسبما تشير نقوشه ورسومه — كان مصابًا بأعراض اضطراب الغدة النخامية ويوجد بمتحف اللوفر بباريس نقش يبدو من أسلوبه أنه ينتمي إلى فترة مبكرة ... يبدو فيها إخناتون ذا فك متضخم وبطن بارز وردفين ثقلين ... وهذه صورة معتلة لأعراض التشوه الجسماني، التي سوف يتجسّم بعد ذلك بشكل صارخ، عندما يبدأ الأخذ بالأسلوب الفني الجديد.^{١٠}

^٩ آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٩٣.

^{١٠} نفسه، ص ١٢٠، ١٢١.



شكل رقم «١٨٩»: إخناتون، عيون آسيوية وفم أفريقي، لاحظ الأساور في المعصم تذكّرنا بأولئك الذين حدثنا عنهم الكتاب المقدس في بلاد آدوم، الذين يلبسون أساور في أياديهم.

ومع اضطرابات الغدة النخامية قيل: إن إخناتون كان مصاباً بمرضٍ نادر يُدعى «متزامنة فراوليك»، وقد اعترض ألدريد على ذلك بقوله: «فكيف يتمشى ذلك مع رجلٍ كثير الإنجاب، متوافق مع زوجته جنسياً، في الوقت الذي نعلم فيه أن حالة متزامنة فروهليش، من شأنها أن تسبّب للمريض العقم والعجز الجنسي ... ويترتب على ذلك أن نقول إن إخناتون قد عانى من المرض، إلا أنه لم يصل إلى المرحلة الخطيرة، التي تؤثر على خصوبته.»^{١١}

^{١١} نفسه، ص ١٢١.



شكل رقم «١٩٠»: رسم لنفرتيتي من العمارنة (من لبيسيوس).

وهكذا تعود فنون العمارنة إلى مرض أصاب إخناتون باستسقاء البطن والدماغ، فظهر بهذا الشكل. وسعى فنانون العمارنة إلى جعل كل الأسرة وبعض الحاشية، يتشابهون مع الفرعون فقط في النقوش، إما لجعل عيبه الجسدي ميزة يتوق إليها شعبه، أو لمجاملته ليس إلا. لكن المومياوات نفسها تشير إلى أن العيب كان أصيلاً في أجساد أصحابها، وهو إن تم تفسيره بالوراثة في بناته، فهو ما لا يفسر لنا وجود أعضاء في الحاشية ليسوا من أفراد الأسرة، ويحملون ذات الرؤوس الطويلة».

أما الباحث الزنجي «أنتاديوب»، الذي يريد أن يعيد كل مآثور في المنطقة، لما أسماه بالحضارة الزنجية، كرد فعل على سيادة حضارة الرجل الأبيض الآنية، فقد أخذ ينقّب



شكل رقم «١٩١»: نفرتيتي كفرعون محارب، لاحظ التاج العالي الذي يغطي الرأس المستطيل.

ليعثر على الزوج، كيفما اتفق له في الحضارات القديمة، فهو يقول مثلاً: إن اليهود من أصل زنجي، لماذا؟ لأنه تم العثور على جماجم فينيقية في غرب ميناء سرقوصه بجزيرة صقلية، وكانت مستطيلة بارزة الفكين، تدل على أن أصحابها زنوج الأصل.^{١٢} لكنه هو نفسه ينقل عن «كونتينيو» قوله: إن بعض تلك الجماجم بها تشويه معتمد، يبدو أنه تم بطريقة اصطناعية بربط الجمجمة، مما أدى إلى استطالتها من الأمام إلى الخلف،

^{١٢} أنتاديوب، الأصول الزنجية ... سبق ذكره، ص ١٤٦، ١٤٧.

على شكل بيضة. إنه ذات التشويه الذي ظهر في عصر العمارنة، وبالأخص في شخصيات الأسرة المالكة.

وليس لدينا شعب عمد إلى ربط رعوس الأطفال، بقصد صنع هذه الاستطالة المميزة في الرعوس، ويرى ذلك علامة مميزة على شعبٍ متميز على العالمين، سوى قبائل سكيث/ساجاز، قاطعي الرقاب الآرامية، التي هبطت من قزوين إلى شرقي المتوسط، لتتمركز في بلاد مديان آدوم، التي يكتبها المؤرخون ميتاني، ويضعونها في أعالي الرافدين. ومعلوم أن ثلاثة أجيال متتالية من النساء الميتانيات أفضين إلى أسرة العمارنة، بدأت بالملكة موت أم أويا زوجة تحتمس الرابع، ثم تبعتها الملكة تي زوجة آمنحتب الثالث، ثم نفرتيتي زوجة آمنحتب الرابع إخناتون، والتي ربما كانت — في رأينا — شقيقة أمه تي بنت يويا وتويا. تلك الأسماء المنتسبة إلى ذات التنعيم اليهودي السيناوي المدياني.

ومن بين الفراعين تميز الفرعون إخناتون، بأنه كان يضع رباطاً عريضاً حول رسغَيْ يَدَيْهِ.^{١٣} وهي عادات إسكيثية واضحة، وتظهر أيضاً في لوحة يلبسها الإله تيشوب الحيثي، كما أنها عادات مديانية كانت معلومة لدى المحرر التوراتي، الذي سجّل لنا أغطية الرأس التاجية المديانية أيضاً في قوله عن المديانيين التجار الأثرياء:

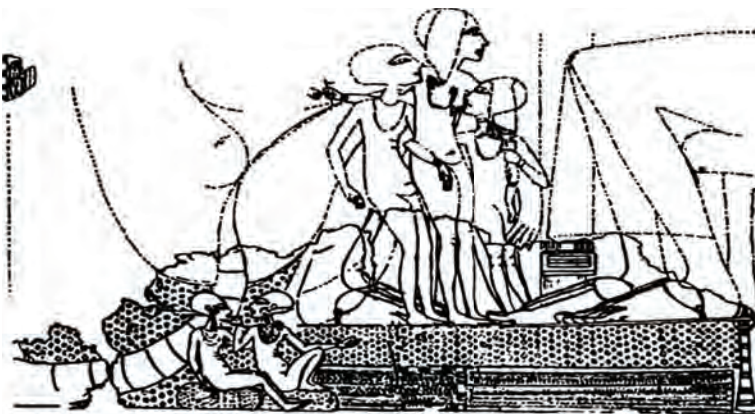
وصوت جمهور مترفهين معها مع أناس من رعا الخلق، أتى ب斯卡رى من البرية الذين جعلوا أسورة على أيديهما وتاج جمال على رعوسهما.

(حزقيال، ٢٣-٤٣)

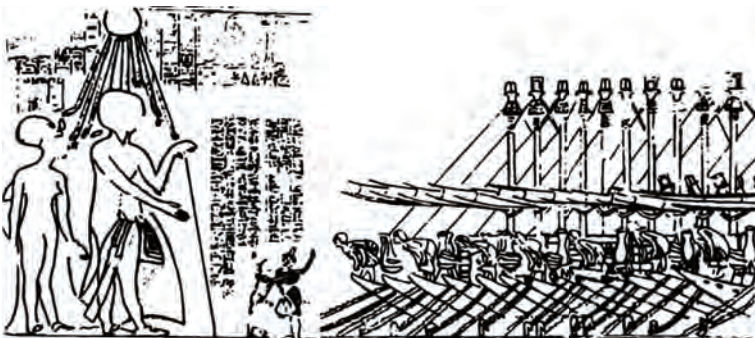
أما نفرتيتي فهي الزوجة الملكية الوحيدة في مصر التي صورت في وضع محارب يضرب أعدائه، مما يذكّرنا بنساء الإسكيث الأمازוניات.

[انظر رعوس العمارنة: الأشكال رقم «١٨٨-١٨١»]

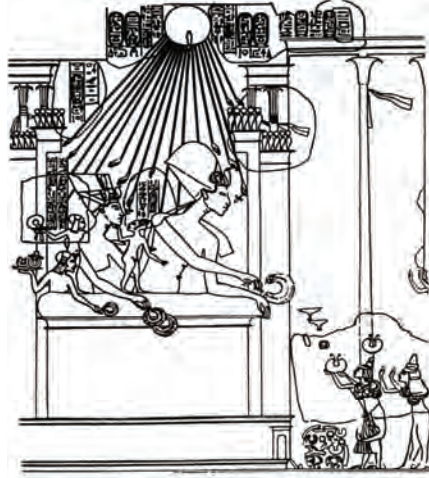
^{١٣} جوليا سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ٣٤.



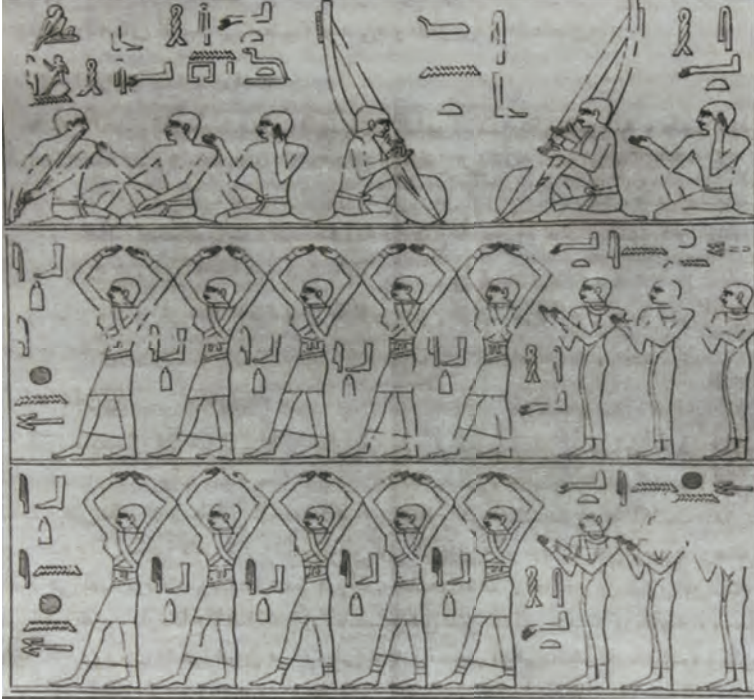
شكل رقم «١٩٢»: نقش جداري للأميرات الصغيرات في منظر عائلي (من جمعية الاستكشافات المصرية).



شكل رقم «١٩٣»: الملك إخناتون والملكة نفرتيتي في مناسبة منح الأوسمة للنيل مري رع، والتفتيش على سفن الأسطول (من جمعية الاستكشافات الأثرية المصرية) (لاحظ نفرتيتي العارية تمامًا).



شكل رقم «١٩٤»: إخناتون ونفرتيتي وهما يمنحان القلادات الذهبية للنبييل آي وزوجته تي، ونرى الأميرات الصغيرات وهن يحاولن مساعدة أمهن (من جمعية الاستكشافات الأثرية المصرية).



شكل رقم «١٩٥»: تدريبٌ على لونٍ من رقص الرجال الإيقاعي، لاحظ ربط الساقين لضبط الحركة، والمغني يضع يده على أذنه وصدغه، بنفس الأسلوب الشرقي الحالي (أول الصف الأول)، فن اعتيادي بمصر القديمة.



شكل رقم «١٩٧»: من فنون الرقص المصري المعتمد على الحركة للصورة الفنية المطلوبة، فن اعتيادي بمصر القديمة.



شكل رقم «١٩٨»: ألوانٌ أخرى من الرقص المصري مع عازفةٍ ومصفقات، ولم تَزَلِ العوالم والريفيات يطرقعن الأصابع بذات الحركات المصاحبة إلى اليوم. فن اعتيادي بمصر القديمة.

الفصل الثالث

نهاية إخناتون الغامضة

كانت أياماً عصيبة على كهنة آمون والمتدينين عمومًا، وهم عموم الشعب المصري، فعلامات الساعة تقترب، ويعلو عرش مصر آمنحتب الثالث كاسرًا كل القواعد المقدسة، فهو من أمِّ ميتانية هي «موت أم ويا»، ومعنى اسمها يُشير إلى قدومها عبر المياه، فهو «موت القادمة بالسفينة»، ثم يزداد الأمر سوءًا فيتزوج بدوره من ميتانية، بل ويجعل من زوجته الميتانية تي الملكة العظمى هي الملكة «تي»، ويُسدل ستارًا كثيفًا من النسيان على الأميرة الطفلة سيت آمون صاحبة الحقيقية للعرش، حسب القوانين الإلهية المقدسة السرمدية.

ثم يأتي ولده إخناتون بدوره من أمِّ ميتانية هي الملكة «تي»، الذي يسير سيرة أبيه فيتزوج نفرتيتي، ليُسَمِّيها اسمًا على مُسمَّى؛ لأن نفرتيتي الاسم المصري الذي أطلقه عليها الفرعون، ويعني الجميلة قد أتت، أو قد وصلت، والتي تشير إلى مجيئها من بلاد أخرى. وإذا كان آمنحتب الثالث قد استنجد بكهنة مرتشين، بنى لهم معبد آمون بالكرك، لينقش له رجاله المخلصون على واجهته قصته المصورة، عندما أنجبته أمه «موت أم ويا» من الإله آمون مباشرة، فإن ولده إخناتون جاء بقصة أخرى تمامًا، واتخذ أسلوبًا مخالفًا تمامًا، فقد قام بنفي آمون نفسه وبطانته وقوانينه المقدسة، ثم كل الآلهة دفعة واحدة، لينصب ربه آتون وحده ربًّا للجميع طوعًا أو كرهًا. ولكنه كان قد حاز مبكرًا الرفض من قبل كهنة آمون لأنه بميلاده ذاته، كان بشخصه نفسه قمة مخالفة القوانين الإلهية، وتسبب العرش وبه تلك المعايير المفضلة الأصيلة في بذرته.

وحول الشك في شرعية حكم إخناتون، يقول أحمد عثمان: «أحبَّ آمنحتب الثالث تي ابنة وزيره يويا، وتزوَّجها في السنة الثانية لحُكمه، وجعلها ملكة على مصر، خروجًا على التقاليد المصرية التي كانت لا تمنع الملك من اتخاذ أي عدد من الزوجات، لكن الملكة التي تلد ولي العهد، يجب أن تكون هي الوريثة الشرعية، أي ابنة البكر للملك السابق. ولأن

أمنحبت الثالث لم يلتزم بهذه التقاليد، عندما أصرَّ على اعتبار تي — وليست أخته سيت مون — هي الملكة، رفض الكهان اعتبار الولد الذي تلده تي ابناً شرعياً لآمون. وكان أن اختفى ابنها الأول تحتمس في ظروف غامضة، بعد أن عيّنه أبوه ولياً للعهد لمدة قصيرة؛ ولذلك عندما حلَّ موعد ولادتها الثانية في العام الثاني عشر لأمنحبت تركت القصر الملكي، وذهبت لتعيش في القصر الصيفي في زارو [أو ثارو أو شارو أو سيله أو شور/المؤلف]، وكان أول ما نسمع عن ابن تي أنه وصل إلى العاصمة طيبة، عندما كان قد بلغ ١٦ عاماً. وبحسب الاعتقادات المصرية فإن آمون يرفض الحول في جسد الملك، إذا لم تكن زوجته هي الوريثة الابنة البكر للملك السابق. وعلى ذلك فإن ابن تي لا يُعتبر ابناً لآمون، ولا يحق له الجلوس على العرش ... لكن أمنحبت الثالث تجاهل كل هذه التحذيرات، وأشرك معه ابن تي في الحكم بعد أن زوجه نفرتيتي.^١

وهكذا يذهب أحمد عثمان إلى مذهب المدرسة، التي ترى إخناتون قد ظهر فجأة، وعُمره ستة عشر عاماً في طيبة، ليشترك أباه الحكم فترة تصل إلى ست سنوات، ليموت بعدها أمنحبت الثالث وينفرد إخناتون بالعرش. رغم أن هناك مدرسة نميل نحن إلى الأخذ برأيها، تقول إن إخناتون ظهر فجأة ليحكم في طيبة، ولكن بعد موت أبيه أمنحبت الثالث ليحكم بمفرده سبعة عشر عاماً. وتُقدِّم تلك المدرسة على ذلك أدلةً قويةً إلى حدٍّ بعيد. وأهمها خطابات الملك الميتاني «دوشراتا»، أو كما قرأناه نحن «ذو الشرى»، التي أرسلها إلى إخناتون تسديه النصيحة بالرجوع إلى أمه الملكة تي، لاستشارتها في أمور الدولة وعلاقتها بالدول الخارجية. وهو ما يعني أن الملك لم يكن قد اكتسب خبرة كافية عند انفراده بالحكم لاحتياجه إلى رأي أمه. ويعززون رأيهم بما جاء في إحدى رسائل ني الشرى (دوشراتا المدياني/الميتاني). وكانت أولى رسائله لإخناتون بعد وفاة أمنحبت الثالث مباشرة. وكانت تتعلّق باحتفالات تأبين الملك الراحل، وكان على الرسالة بطاقة تاريخها هو السنة الملكية الثانية، ويذكر فيها أن الملك إخناتون كان في مقر إقامته بطيبة، وهذا يدل على أن إخناتون أقام أثناء سنوات حكمه المبكرة بطيبة، ولم ينتقل إلى العمارنة إلا في السنة الخامسة من سنوات حكمه.^٢ لكن الدليل الدامغ في رأينا فهو رسالة الملك الميتاني إلى إخناتون يهنئه بارتقاء سنام العرش المصري ويعزيه في الوقت ذاته في وفاة

^١ أحمد عثمان، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ج ١، ص ٥٥: ٥٧.

^٢ آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٠٣.

والده، مما يشير إلى التعاقب المباشر للحدثين [مات الملك عاش الملك]، وهو ما يعني أن إخناتون لم يحكم مشاركاً لأبيه قبل وفاة والده، كما ذهب بعض علماء الآثار. يقول الملك الميتاني في رسالته:

عندما أبلغت بأن أخي نيموريا [كما كان آمنحتب الثالث يُعرف في الألواح المسمارية/ المؤلف] قد ذهب إلى مصره، بكيت في ذلك اليوم، لقد جلست هناك نهائياً وليلاً. في ذلك اليوم لم أتناول طعاماً ولا شرباً؛ لأنني كنت حزينة، وقلت: ليت الذي مات كان شخصاً آخر في أرضي أو أرض أخي، وأخي الذي أحببته وأحببني كان لا يزال حياً؛ لأن حبنا باقٍ كبقاء السماء والأرض، لكن عندما تولى الحكم نابخوريا [الاسم بالنقش المسماري لإخناتون ويكتب أيضاً نفوريا من اسم العرش نفر خبروا رع/ المؤلف] الابن الأكبر لنيموريا من الزوجة العظمى تي، قلت: لم يمُت نيموريا إذا كان ابنه الأكبر نابخوريا يحكم مكانه، إنه لن يغير كلمة واحدة من مكانها السابق. والآن يا أخي سوف نحتفظ بصداقة أقوى عشر مرات مما كانت في عهد أبيك.^٢

فيما عدا ذلك فإن أحمد عثمان أفادنا بخبر نافع، يبدو أنه استنتاج ناجح من جانبه، مع تذكّر مساحة للقارئ لمزيد من الاستنتاج، ليصل إلى أن إخناتون قد استبعد صغيراً من مصر، حيث ولدته أمه على المدينة الحدودية مع سيناء (شارو)، ولم يظهر له ذكر بعد ذلك إلا عندما تربّع على العرش. وإذا تصورنا أنه لحماية الطفل من الدسائس والمؤامرات، تم استبعاده وهو على حدود سيناء، وإلى الجوار من أخواله الميدانيين، فإن هذا الاستبعاد لا بد أن يكون إلى هؤلاء الميدانيين تحديداً، ليقضي هناك طفولته حتى يفوجه صبيّاً في السادسة عشرة من عمره.

ونستعيد هنا رواية يوسف يوسفيوس اليهودي، نقلاً عن مانيتون المصري، وهو يحدثنا عن فتنة أوزرسيف الكاهن المصري، الذي هرب من عين شمس إلى الأسرى المضطهدين من بقايا الهكسوس، على الحدود المصرية في مدينة حواريس الهكسوسية، وكيف قام أوزرسيف وأتباعه بفتنة عظيمة زمن فرعون باسم آمنحتب، وأن أوزرسيف أرسل

^٢ شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ١٢٩، ١٣٠.

واستدعى هكسوس فلسطين المطرودين من مصر منذ زمن أحمس، وعاونهم لدخول مصر في غزوة هكسوسية ثانية.

ويقول لنا يوسفوس إن بقايا هؤلاء الهكسوس أصحاب الفتنة، الذين عاشوا في حواريس، هم الذين أصبحوا بني إسرائيل بعد ذلك، وإن الملك آمنحتب كان لا يحب الحروب؛ لذلك أرسل ابنه «هارمبيس»، وكان في الخامسة من عمره، إلى ملك صديق، وانسحب جنوباً بجنده تحاشياً للحرب، ليحلوا ضيوفاً على ملك إثيوبيا. وقضى القدر أن يعيش آمنحتب ومعه ثلاثمائة ألف جندي في هذا المنفى الإثيوبي ثلاث عشرة سنة، عادوا بعدها للقتال، وجاء ابنه هرمبيس أو حرمبيس (حور محب) بجيش آخر من البلاد التي تربى فيها، بعد أن بلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، واشتركا معاً في قتال الهكسوس والناس الفاسدين: أوزرسيف ورجاله، وهزموهم وطاردوهم حتى سوريا. وهنا نقف مع اسم آمنحتب كملكٍ يعتبره مانيتون ومن بعده يوسفوس ويوليوس الأفريقي وغيرهم، هو فرعون خروج بني إسرائيل، لنجد أحداث ذلك القص يتوافق مع أحداث تاريخية بين أيدينا. فإخناتون يغادر البلاد طفلاً، ليعود ملكاً على عرشها، وهو ابن آمنحتب الثالث الاسم الذي يلتقي مع آمنحتب في رواية مانيتو، كذلك هرمبيس تم إرساله إلى بلاد صديقه، ثم عاد إلى بلاده بجيش ليصبح بعد ذلك ملكاً، وكلاهما حكم صبيّاً في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره. ونتذكر الآن اللوحة الوحيدة اليتيمة، التي صُوِّر فيها ابنُ ذكر لآمنحتب الثالث، وتصوّرهما يركبان سفينة؛ مما يشير إلى أهمية الحدث، وضرورة تسجيل لحظة وداع الأب لابنه المغادر. لكننا نتذكر أيضاً أنه تم محو اسم الابن، وكُتب محله اسم «هرمبيس» (حور محب)، الذي جاء عند يوسفوس بالنطق اليوناني هرمبيس، بعد انقضاء زمن العمارنة ومجيء الثورة الآمونية بقيادة قائد الجيوش حور محب الذي أنهى عهد العمارنة تماماً، ومحا اسم آتون وإخناتون من كل أثر. وضمن ذلك تم محو اسم ابن آمنحتب الثالث، وهو آمنحتب الرابع، ودُوِّن بدلاً عنه اسم حور محب، فظهر حور محب بذلك كما لو كان الابن المباشر لآمنحتب الثالث، وهو الخطأ الذي وقع فيه جميع المؤرخين القدامى، فبسقوط أسرة العمارنة كاملة (إخناتون، سمنخ كا رع، توت عنخ آمون، أي) من التاريخ، أصبح الانتقال يتم من آمنحتب الثالث إلى حور محب مباشرة، وهو الذي يُنطق يونانياً هارمبيس، ذلك الذي استبعده آمنحتب غير المحدد، أبوه المذكور باسم آمنحتب دون تحديد، وهو طفل صغير، أيام فتنة أوزرسيف في رواية مانيتون الرائع.

ويعود الطفل صبيًا ملكيًا يافعًا يضرب بيدٍ من حديد، ليدفع بالخلاف مع الكهنة وقوانينهم إلى أقصى مدى، ويسدّ ضرباته لآمون ومعابده ويغلقها ويصادر أموالها، ويهاجم معه كل الآلهة الأخرى، ويعلن أنه الوحيد الذي يعرف الإله الوحيد، وأنه نبي ورسول هذا الإله الذي يُلقى إليه بالوحي، وأنه مُرسل إلى كل البشر، بل وكل الكائنات حتى الجبال! وهو ما يفهم من الحوار المدوّن في مقبرة وزيره رمسيس، حيث يقول إخناتون لوزيره: «كلمات رع ألقيتها إليك، إن الإله علّمني إياها وكشف لي عن خباياها، وهذه الكلمات عرّفها قلبي وانشرح لها صدري.» فيرد عليه وزيره رمسيس قائلاً: «إنك الوحيد الذي اختاره آتون لكي يُلقى إليه بتعاليمه، والخوف منك يملأ قلوب الناس، والجبال تستمع إليك كما يستمع الناس.»^٤

ثم إن إخناتون اعتبر نفسه ابناً مباشراً للإله آتون، حتى أنكز بنوّته لأبيه آمنحتب الثالث. وضمن تراثيل إخناتون نستمع إلى هذا الشعور القوي بالنبوة وبالبنوة — حيث كان معنى النبوة هو معنى البنوة المباشرة للإله — إذ يخاطب ربه آتون قائلاً:

إنك في قلبي!

وليس هناك من يعرفك سوى ابنك نفر خبرو رع وع إن رع، الذي أطلّعتَه على أسراركَ وقوّتك ... إنك أنجبت جلالته كما تُنجب نفسك كلّ يوم دون توقّف. لقد خلّقتَه مثل أشعّتك لتجعل حياته مثل آتون ... يا آتون الحي الوحيد، إنك أنت الأبدية، والسماء هي معبدك الذي تشرق فيه كلّ يوم، لتلد ابنك الذي خرج من جسدك ملك الجنوب والشمال نفر خبرو رع وع إن رع ... إنك أنت الأبدية وابنك مثلك ... إنك تعمل طبقاً لما يخرج من فمك، إنك تلبي طلباته، إنك تحبه وقد صنعتَه مثل آتون ... ابنك الذي خرج من أعضائك. إنك تسمع له وتسمع لما في قلبه ... يا آتون الحي الذي يشرق كلّ يوم، لتلد ابنك الذي خرج من جسد ملك الجنوب والشمال، نفر خبرو رع وع إن رع.^٥

القصيدة فيها تمجيد واضح للذات، ولم يجد إخناتون حرجاً في أن ينال صفات آتون الإلهية، وهو ما آمن به وأعلنه للناس، بل يقول لنا عالم الآثار «سيد توفيق»: «كان الشعب

^٤ أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٠٣.

^٥ سيد توفيق، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٣.

يخاطب إخناتون بصفته إلهاً، أو على الأقل في مصافِّ الآلهة؛ فقد أشارت إليه النصوص على أنه الإله الذي خلق نفسه بنفسه، الذي خلق الأرض كلها ... وهو الذي خلق الإنسان وخلق معه الزمان وحدد عمره ... وهو الأم التي أنجبت كل البشر ... إن إخناتون لم يكن ملكاً فحسب، بل ارتفع إلى مصافِّ الآلهة، فكان له كهنته الذين يقومون على خدمته مثل باقي الآلهة المصرية.^٦

نعم كان المصري القديم يؤمن بقدسية الملك؛ لأنه يحمل في تكوينه شقاً إلهياً، فهو لاهوت قبل أن يكون ناسوتاً. لكن لم يحدث أن أعلن ملك عن ألوهيته الكاملة، وطلب من رعيته عبادته إلا في حالات نادرة، منها حالة آمنحتب الثالث ثم ولده إخناتون. وبعد ذلك لا نجدها إلا عند رمسيس الثاني. وهكذا أعلن إخناتون ألوهيته في حديث «سيد توفيق»، حيث يقول: «وقد أشار جون ويلسون إلى أن ديانة العمارنة، كان فيها إلهان رئيسيان؛ الملك الذي قال هو عن نفسه الابن الجسدي لآتون، وبدليل المناظر العديدة التي تمثله على جدران مقابر تل العمارنة، يتعبد إلى قرص الشمس الخالد، بينما ينحني جميع رجال بلاطه وهم يعبدونه. ويعتقد جون ويلسون أن صلواتهم لم تكن موجهة إلى آتون، بل كانوا يتوجهون بها رأساً إلى إخناتون. وقد وجه أي الذي أصبح ملكاً فيما بعد حديثه إلى إخناتون قائلاً: ليتك تهبني عمرًا طويلاً سعيداً كأحد المحبوبين منك ... ليتني أسمع صوتك الجميل المقدس عندما تؤدي ما يسر له أبوك آتون الحي!»^٧

ثم يُورد لنا توفيق ترنيمة صلاة أخرى يؤديها أحد نبلاء العمارنة لإخناتون مباشرة، فيرفع إليه الدعوات قائلاً: «ليتك تجعل ابنك المحبوب إخناتون يعيش معك إلى الأبد، ليفعل ما يحبه قلبك، وليرى ما تفعله كل يوم؛ لأنه ينشرح صدره برؤية جمالك، دعه يبقى هنا في تل العمارنة حتى يتحول لون الإوز العراقي إلى السواد، وحتى يبيض الغراب الأسود، وحتى تتحرك الجبال وتسير، وحتى يجري البحر إلى النهر، وليتني أظل أخدم الإله الطيب إخناتون، حتى يمنحني القبر الذي يعطيه.»^٨

هذا بينما تم تنزيه وتجريد الإله إلى مستوى لم تعرفه العقائد المصرية من قبل، فيقول «شتيندورف»: «في سنوات إخناتون المبكرة كان الإله يُصوّر على الآثار في شكل

^٦ نفسه، ص ٧٤.

^٧ الموضع نفسه.

^٨ الموضع نفسه.

أدّمي له رأس الصقر؛ مثل رع حور آختي القديم، ثم لم تلبث أن حرّمت الديانة الجديدة تصوير الإله، على أن تُوجّه العبادة نحو الأشعة المرئية المنطلقة من قرص الشمس. ومن المؤكد — على أية حال — أن إله الموتى القديم أوزيريس الأول بين الغربيين [أي حاكم مملكة الموتى في الغرب/المؤلف]، فقد مكانته وحلّ محله فيها آتون الحي، الذي ينثر أشعته على الموتى المباركين في ساعات الليل، ولكن العادات الجنائزية عمومًا ظلّت فيما يبدو كما هي بدون تغيير.^٩

نعم كان الإله آمون قد بلغ رتبةً عالية من التجريد، فيصفه دوماس على ما بيديه من وثائق مصرية تتحدث عن آمون بأنه «الإله الذي لا يمكن معرفته، إنه ليس خفيًا وحسب [كلمة آمون تعني الواحد الخفي/المؤلف]، ولكنه يقع بعيدًا عن وسائل البحث البشري. لقد استخفى عن ذاك الذي خرج منه، وهو المصباح الساطع ذو الأشعة العظيمة؛ إذ لا يُرى إلا من خلال شعيرته المحجوبة، ويبين نشيد «بردية ليدن» عمقًا روحياً يدعو للإعجاب: إنه خفي بين الآلهة، لا يعرف المرء مظهره، إنه أبعد من السماء، إنه أعمق من الجحيم، إن أي إله لا يُعرف شكله الحقيقي ... إنه بالغ الخفاء، حتى إن مجده لا ينكشف، إنه أكبر من أن يُفحص، وأعظم من أن يُعرف. إن المرء لَيَسْقُطُ في الحال من الرعب، إذا تلفظ باسمه الخفي الذي لا يستطيع أحدُ معرفته.» ويعقب دوماس بالقول: «لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه تجاه هذه القصيدة المعاصرة على وجه التقريب لموسى النبي، من استثارة ذكرى الكلمة التي قالها يهوه: لا يمكن أن يراني إنسان ويعيش.»^{١٠} وهكذا جاء آتون باسم مجرد يدل على قرص القرن الشمسي، لكن يبدو أن الاسم «آتون» كان هو الاسم الخفي، الذي عثر عليه إخناتون للإله؛ حيث كان معتقدًا أن الله اسمًا يجب عدم النطق به. وكان ذلك واحدة من العقائد المنتشرة في مصر حول الإله آمون والإله أوزيريس وفي حالاتٍ أخرى. وهي الأكثر انتشارًا كانت مع أرباب الشر التي كان يُكنى عنها أو يُشار إليها باسم إشارة؛ منعًا لحضورها، وهو ذات الاعتقاد أساسًا في عقيدة يهوه السيناوي المدياني؛ لأن يهوه ليست اسم الإله الحقيقي، إنما هو إشارة إليه بفعل الكينونة V. to be يكون، فهو الكائن فقط.

^٩ شتيندورف وسيل، عندما حكمت، سبق ذكره، ص ٢١٢، ٢١٣.

^{١٠} دوماس، آلهة ... سبق ذكره، ص ١٢٦.

ونقف هنا مع أحمد عثمان إذ يقول: «إن إخناتون سقط عن العرش بانقلابٍ تحالف فيه العسكر مع الكهنة، ومع سقوطه فقد ألقاه وأسماءه الملكية، فلا يستطيع أحد أن يشير إليه باسمه الذي كان يُعرف به أثناء وجوده على العرش؛ أي إنه صار لا اسم له، أصبح الإله غير المسمى! أصبح هو؟!»^{١١}

ويعقب «سيد توفيق» قائلاً: «لا شك أن المركزية في عقيدة إخناتون واقتصارها على شخص الملك، كان سبباً في انهيار الديانة الجديدة بعد موت إخناتون عام ١٣٥٠ ق.م. تقريباً، وهو لا يزال شاباً في الثانية والثلاثين من عمره؛ إذ بموته فقدت الرعاية الرمز الحي الذي يتعبدون إليه.»^{١٢}

هذا ما كان من رأي سيد توفيق في السر وراء انهيار ديانة آتون بغياب معبودها الحي، لكن هذا الغياب بسبب الموت، كما يقول توفيق، أمرٌ فيه نظر ومشكلات عدة، وشكوك كثيرة واضحة. ويعبر كلٌّ من سيل وشتيندورف عن هذه الشكوك الحادة في قولهما: «إن السنوات الختامية في حياته كانت حزينة جداً ومريرة في الواقع. وليس في مقدورنا أن نحدد طبيعة النهاية التي لقيها، وهل مات ميتةً طبيعية أم أقصي بالعنف.»^{١٣} ويقول د. عبد المنعم أبو بكر: «مات إخناتون واختفى دون أن نعلم ما حدث له في نهاية عمره، ولو أننا نرجح أن موته حدث نتيجة لمؤامرات دُبّرت لقتله. ومما يؤسف له أننا لم نعثر حتى الآن على مقبرته، ونذهب إلى حد التوكيد أنه لم يدفن في المقبرة التي نقرها لأفراد أسرته في التلال الحجرية الواقعة إلى الشرق من مدينة تل العمارنة ... ولعل أهل طيبة ... تخلصوا من إخناتون ... عندما بدأت المؤامرات تُحاك من أكثر من جانب، فهناك نفرتيتي الغاضبة الحانقة قد خلّا لها الجو، وهناك الأم الملكية تي، وهناك أيضاً كهان آمون المنتصرون ... وساد الفساد وانتشرت الفوضى وعمّ الفقر بعد أن ضاعت المستعمرات المصرية في آسيا وانقطع ورود الجزية.»^{١٤}

ثم يقول: «من المعروف أن مدة حكمه لا تزيد على تسعة عشر عاماً، ولم نعثر على جثته حتى الآن، ولا يمكن أن يكون قد عاش أكثر من ثلاثين عاماً.»^{١٥} هذا بينما

^{١١} أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٥٩، ٦٠.

^{١٢} سيد توفيق، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٤.

^{١٣} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٢١.

^{١٤} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١١٧.

^{١٥} نفسه، ص ٧٠.

يضع «جاردنر» افتراضات أخرى، وتخمينات في شكل سيناريو مفترض يقول: «يُمكن تقبل الرأي بأن جسد إخناتون قد مُزق إلى أشلاء وأُلقي به إلى الكلاب، وأما عن اللعنة التي لاحقته بعد موته بقليل فليس من شك فيها، فقد ظلَّ جيلان من بعده يشيران إليه باعتباره العدو من أخت آمون، وقد هُجرت العمارنة عقب ذلك.»^{١٦}

وعن زمن إخناتون جاءت إشارات بعد ذلك زمن خلفائه، تشير إلى حجم الكراهية التي حملها المصريون لعاهلهم، وحجم الانهيار الاقتصادي الكارثي الذي عاشته مصر في زمنه. فيقرأ لنا عبد المنعم أبو بكر لوحة توت عنخ آمون زوج بنت إخناتون، الذي عاد إلى طيبة وربها آمون. يقول أبو بكر: إن اللوحة التي أقامها في الكرنك، ونقش عليها نصًّا طويلًا، متحدثًا فيه عن مشاعره نحو الماضي، وطريقته التي اتبعها لمعالجة الموقف، لخير ما يُفسر لنا ما كانت عليه مصر في هذه الفترة: لقد تهدمت معابد الآلهة والإلهات، وأصبحت الأرض شذرًا مذرًا، وأدارت الآلهة ظهرها للبلاد ... وإذا صلى إنسان لإله يسأله، فإن النصيح لا يأتي إليه أبدًا، وإذا دعا الإنسان آلهته أيضًا لا تأتي إليه أبدًا، لقد أوذيت قلوبهم؛ لأنهم حطموا ما سبق عمله.»^{١٧}

وعاد البلاط مع اختفاء إخناتون إلى طيبة (الأقصر)، ليتولى سمنخ كا رع العرش ليتلوه بعد أشهرٍ لا تزيد على عام أخوه توت، ليموت كلاهما ويرتقي العرش «أي» آخر أسرة العمارنة، قبل انقلاب حور محب الشامل والعودة إلى الآمونية الكاملة. ويقول كلٌّ من سيل وشتيندورف عما لحق إخناتون من غضب المصريين: «وتدل الحفائر الحديثة في موقع تل العمارنة على أن خرابها اقترن باضطهاد كل شيء يمتُّ بصلّةٍ إلى ديانة آتون؛ فقد بُذلت جهود دءوبة متعصبة لإزالة كل ما يذكر بالحركة الدينية والشخصية الملكية المسؤولة عن هذه الحركة.»^{١٨}

والنص الذي يشير إليه أبو بكر يذكره «شتيندورف وسيل»، ويقولان عن الملك توت عنخ آتون، الذي عاد إلى دين آمون وعاصمة المملكة طيبة، مغيرًا اسمه إلى توت عنخ آمون هو هذا:

^{١٦} جاردنر، مصر الفرعنة ... سبق ذكره، ص ٢٦٢.

^{١٧} أبو بكر، إخناتون، ص ١٢١.

^{١٨} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٢٣.

والآن حين ظهر جلالته كملك، كانت معابد الأرباب والربات من ألفنتين إلى مستنقعات الدلتا، قد سقطت فريسة الإهمال، تهدمت مقاصيرها ونمت فوقها الأشواك، وأضحت هياكلها كما لم تكن من قبل، وتحولت المعابد إلى أرضٍ مستباحة، فإذا أرسلت القوات إلى زاهي [بلاد الشام/المؤلف] لتوسيع حدود مصر؛ فإن جهودها تفشل، وإذا تقدم أحد طالباً أي شيء من إحدى الإلهات فإنها لا تستجيب له؛ لأن قلوب الآلهة كانت غاضبة في أجسادها لأنهم [أي هراطقة تل العمارنة/المؤلف] دمروا ما سبق أن كان. والآن أدار جلالته شئون بلاده ومصالح الأرضين، ويطلب كل ما هو مفيد لأبيه آمون. وأقام جلالته الآثار لكل الآلهة، وصنع لهم التماثيل من ذهب جام الخالص، وأعاد أضرحتهم إلى ما كانت عليه لتدوم إلى الأبد.^{١٩}

وهكذا أمكن لياروسلاف تشيرني أن يقول: «وبدا اضطهاد ذكرى إخناتون منذ العهد الملكي لحدور محب، فدمرت أسماؤه الملكية وصوره، كما أزيل اسم إلهه آتون التي كانت مدونة داخل خراطيشه الملكية من كل مكان وجدت به. أما إخناتون فقد احتل مكانة في التاريخ المصري، بالصورة التي رآته بها أعين كهنة آمون، باعتباره عدو أخيتاتون الخسيء. أما عهده الملكي فقد أشير إليه بسنوات الخارج أو المهرطق».^{٢٠}

ومع عدم العثور على مومياء الملك في أماكنها المتوقعة، في مدفنه بتل العمارنة أو بوادي الملوك بطيبة أو بأي مكان آخر، ومع الشكوك التي لحقت مصيره، نجد رأياً آخر أقرب إلى منطق الأحداث، وهو التصور الذي وضعه «أحمد عثمان» في سيناريو يقول: «بدأت المؤامرات تُحاك داخل الجيش بتشجيع من الكهنة، للإطاحة بإخناتون ونظامه، وعندما ازدادت المؤامرات ضده نصحه أي بالتنازل عن العرش لتوت عنخ آمون. وخرج هو من مدينة العمارنة ليعيش في المنفى، فليس هناك دليل واحد يشير إلى موت إخناتون عند نهاية حكمه. فهو لم يُدفن في المقبرة التي أعدها لنفسه، وسط الصخور المحيطة بمدينة العمارنة، بل إن بعضاً من أتباعه ظلوا يذكرون تاريخ كتاباتهم، وينسبونها إلى

^{١٩} نفسه، ص ٢٢٤، ٢٢٥.

^{٢٠} ياروسلاف تشيرني، الديانة ... سبق ذكره، ٨٩.

عصره كأنه لا يزال على العرش. إلا أن اسمه مُنِع تمامًا من المصادر الرسمية، وكان عند الضرورة يشار إليه بتعبير: باخرو با أخيتاتون، ومعناها ساقط أخت آتون/العمارنة.^{٢١} ويتابع عثمان القول: «وتوجد دلالات على أن مكان المنفى الذي عاش فيه إخناتون، كان عند معبد سرابيط الخادم في سيناء، وهي تقع على بُعد بضعة كيلومترات إلى الشمال الغربي من دير سانت كاترين وجبل موسى، وعثر الأثري «فلنדרز بيري» هناك على تمثال للملكة تي والدة إخناتون. كما وجدت دلالات على استمرار عبادة آتون في هذه المنطقة، بعد أن أصبحت ممنوعة في وادي النيل.»^{٢٢} ويشرح «عثمان» بقية السيناريو في قوله: «وبموت أي انتهى حكم العمارنة، وجاء قائد من الجيش اسمه حور محب ليصبح آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وكان حور محب أول من قضى على بقايا الثورة الدينية في مصر، وألقى القبض على جميع أتباع إخناتون، ووضعهم في منطقة زارو [أو ثارو أو سيلة أو شور أو شارو/المؤلف] في شمال سيناء، بعد أن حولها إلى سجنٍ حربي، ومنع أسماء كل ملوك العمارنة من دخول قائمة الملوك. فصارت المصادر الرسمية تضع اسمه هو مباشرة بعد آمنحتب الثالث. وكان حور محب هو الذي اختار «رمسيس» ليكون وزيرًا له وقائدًا للجيش ومستوًلاً عن سجن زارو. وكان رمسيس هذا هو الذي استخدم المساجين من أتباع إخناتون، وكذلك الذين كانوا يسكنون مدينة زارو، للقيام بأعمال البناء الشاقة على الحدود المصرية.»^{٢٣}

لكن أمر إخناتون وفلسفته ورجاله المثقفين كان أمرًا، بينما كان للناس العاديين شأن آخر. فيلاحظ الباحثون في أركيولوجيا العمارنة أن الناس كانوا يتعاملون مع التعاويذ الخزفية القديمة ويتزينون بها.^{٢٤} وهو ما يؤكد ياروسلاف في تقريره: «بالنسبة لعامة الشعب والطبقات الدنيا، فإن السمو الفكري لمبادئ إخناتون عزلتهم عنه، وزادتهم التصاقًا بمعتقداتهم القديمة، ففي حي العمال في العاصمة الجديدة أخت آتون وجدت أدلة أثرية على عدم تركهم لأيٍّ من آلهتهم القديمة الرئيسية منها أو الصغرى، مثل المعبودة توريس Toeris التي كانت تصور في هيئة فرس البحر (يعني فرس النهر/المؤلف)،

^{٢١} أحمد عثمان: تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٥٩، ٦٠.

^{٢٢} نفسه، ج ١، ص ٦٠، ٦١.

^{٢٣} نفسه، ج ١، ص ٦٠، ٦١.

^{٢٤} أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية ... سبق ذكره، ص ١٥٢.

والإلهين بس Bes وشد Shed، وكذلك الإلهتين حتحور وإيزيس.^{٢٥} لهذا عقب جاردنر على استبعاد عالم الحساب الأخرى في عقيدة أوزير، بقوله عن مذهب إخناتون: «كان هناك عيب في المذهب هو حاجته الكاملة للتعاليم الأخلاقية، ويرجع سبب ذلك إلى حد كبير من غير شك إلى إقصاء أوزيريس. وأنه ليبدو كذلك أن عقيدة إخناتون لم تتغلغل إلى ضمير الجماهير. ولقد كشفت قرية العمال في العمارنة عن آثار متعددة للعبادة القديمة، ومن بينها تماثيل للإله «بس» على شكل القزم، وللعين المقدسة لحورس وغيرها.»^{٢٦}

[انظر الإله بس رب المرح والجنس: شكل رقم «٢٠٣»]

لكن الغريب والمتناقض هنا أن إخناتون كان يجل أوزيريس، ويقدسه بشكل غير واضح، حيث إنه قد هياً في تخطيطه مدينة أخت آتون في السنة السادسة من حكمه، مدفناً للعجل المنفي أبيس رمز أوزيريس^{٢٧} (نسبة إلى مدينة منف ومعبودها أبيس). وبهذا الشأن يقول «جاردنر»: «... وهناك إشارة غريبة جاء فيها أن عجل منفيس في هليوبوليس [عين شمس]، يجب أن يُدفن هو كذلك في مدينة آتون، وهي دلالة أخرى على اعتماد الآتونية الجديدة على واحدة من أقدم العبادات الدينية في مصر.»^{٢٨} والمعلوم أن أبيس هو صورة روح أوزيريس، وهو شعار أوزير المقدس.^{٢٩} هذا رغم أن إخناتون استبعد عالم أوزيريس الخالد، ومسألة الحساب والثواب والعقاب والجنة والجحيم، وكان أقصى ما يضمنه آتون لعباده المخلص، هو ذات الضمان التوراتي، قبل ظهور العقيدة الأخرى في أسفاره الأخيرة «فلتضمن لي حياة طويلة وسعيدة كأحد أتباعك، ولتجعلني أحظى بدفنة جيدة، ولتسمح لي أن أستمع إلى صوتك العذب في المعبد، حين تؤدي الصلاة «لوالدك» آتون.»^{٣٠} ويقول عبد المنعم أبو بكر: «لم يخصص أهل العمارنة جبانة لمقابرهم على الشاطئ الغربي للنيل، كما هي العادة عند المصريين

^{٢٥} ياروسلاف، الديانة ... سبق ذكره، ص ٨٧، ٨٨.

^{٢٦} جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص ٢٥٦.

^{٢٧} ليوولين جريفث، الانقلاب الديني في مصر، ترجمة عبد الرحمن صدقي ودريني خشبة، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد الثاني من تاريخ العالم، ص ٣٨.

^{٢٨} جاردنر، مصر الفراعنة ... سبق ذكره، ص ٢٤٨.

^{٢٩} إيفانز، هيرودت ... سبق ذكره، ص ١٢٤.

^{٣٠} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٧.

القدماء، الذين اعتبروا الغرب المكان المخصص للموتى. بل إن كلمة الغرب في اللغة المصرية، كان قد استقر استعمالها للتدليل على الجبانة، وكانت مقابر العمارنة منقورة [بالحفر/المؤلف] في التلال الصخرية، التي تحد المدينة من ناحية الشرق، ولا بد وأن هذه الظاهرة ترجع إلى أن ديانة آتون، جعلت للشرق أهمية تفوق الغرب؛ إذ هو المكان المقدس الذي يشرق منه الإله.^{٣١}

وما يبدو لنا هو أن إخناتون قد غض النظر عن بعض العبادات المصرية التقليدية التي تواجدت مع عمال تل العمارنة، ودون أن يشير إلى تلك الديانات، ولجأ إلى إهمالها تمامًا، لكن ذلك كان يعني وجود جماعات أوزيرية واضحة في العمارنة. إلا أن أهم الأرباب في تل العمارنة بعد «آتون» مباشرة، كان إله الريح شو، الهواء القديم المعروف، لكنه في العمارنة يصبح أحد أسماء وتجليات الإله آتون، فقد حمل الإله آتون في اسمه الجديد، الذي أعطاه له إخناتون مجموعة أسماء وألقاب، هي:

الحي، رع، حور، آختي، رب الأفقين، الذي يبتهج الأفق باسمه، شو، الذي هو آتون.

ويعقب ياروسلاف تشيرني على كيف يكون «شو» هو «آتون» بقوله: «ليس من السهل فهم هذا التعريف».^{٣٢} لكنه يصبح واضحًا حسب نظريتنا إن تذكرنا أن إخناتون قضى طفولته بعيدًا عن مصر في بلاد مديان مع أخواله، وأن هناك كان الأدون أو السيد يهوه، أو هوا، أو هفا، وكان ربًا للهواء والريح. ويصف إخناتون نفسه بقوله إنه «الكاهن الأول لرع حور آختي، المتلهل في الأفق باسمه ضوء الشمس، شو الذي هو آتون».^{٣٣} ويتكرر «شو» أكثر من مرة حتى في طقس تقديم القرابين، ففي العمارنة «وفي مقبرة أي نقش جداري ملفت للنظر، نرى فيه كلاً من إخناتون ونفرتيتي، وهما يقدمان القرابين للإله. وكان كل قربان عبارة عن الاسم الثنائي للإله آتون، مكتوبًا داخل خرطوشين. وفي الجانب الذي يظهر فيه إخناتون من هذا المنظر، نرى رسمًا للإله شو إله الهواء، وعلى

^{٣١} نفسه، ص ٨٧.

^{٣٢} ياروسلاف، الديانة ... سبق ذكره، ص ٨٢.

^{٣٣} جاردنر، مصر الفراغة ... سبق ذكره، ص ٢٤٤.

رأسه الريشات الثلاث التي تميزه»^{٣٤} كما عمدت رسوم العمارنة إلى تصوير فعل رب الهواء الدائم في الشرائط الطائرة، سواء على الأعمدة أو على رءوس القوام.



شكل رقم «٢٠٥»: الرباط الطائر بفعل شو/إخناتون.

ورغم أن جاردنر يؤكد أن كلمة آلهة كانت محرمة في العمارنة،^{٣٥} إلا أن ما يحدث هناك من خلط، يجد تبريره في عقائد مدينة عين شمس، مدينة رع حور آختي رب الشمس المعروف اختصارًا باسم رع، حيث عبروا عن ذلك الدمج الإلهي بنظرية تتلخص في قانون إيمان بـ «رع الذي يعيش في شكل حورس الأفق، الذي يبتهج في أفقه باسمه شو الذي هو آتون». وغني عن التذكير أن قائد جموع الخارجين في قصة يوسفوس، كان ينتمي باسمه إلى أوزير فهو أوزيريس، وأنه كان كاهنًا مصريًا في عين شمس، ثم لا يفوتنا

^{٣٤} جوليا سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ١٥٤.

^{٣٥} جاردنر، مصر الفرعنة ... سبق ذكره، ص ٢٥٥.



شكل رقم «٢٠٦»: الإله هفا/ هو/ شو ولفحة إخناتون الطائفة.

تذكير آخر، وهو أن تحتمس ابن آمنحتب الثالث، الذي قالوا إنه مات صغيراً، وافترضنا أنه ربما كان ذات إخناتون، أو أنه كان ابناً أولاً فعلاً لإخناتون، وتم القضاء عليه بمؤامرة من كهنة آمون، سببت تهريب الابن الثاني إلى مديان. إن هذا الابن قد قضى شطراً من حياته بعد عودته من مديان، في عين شمس يدرس لاهوتاً وفلسفة ربُّها رع؛ لذلك كان أول إعلان بعد تتويجه ملكاً، هو تلقيب نفسه «الكاهن الأول لرع حور آختي».^{٣٦}

ورغم الاهتمام بالأوزيرية؛ ربما لوجود فريق أوزيرى كبير حليف حرص إخناتون على دوام حلفه، فإن «سامسون» تقول لنا: «وفي المقبرة الملكية التي حفرها إخناتون

^{٣٦} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٠٤.

لنفسه ولأسرته في صخور تل العمارنة، لا نجد أية إشارة في النقوش إلى الإله أوزيريس، ولا إلى طقس من طقوسه، أو من طقوس وشعائر العالم السفلي.^{٣٧} وإذا كان أتباع إخناتون بشكل عام من الطبقات المتواضعة تمامًا، فإن سجلات العمارنة جرت على شريعة التوراة، التي لا تذكر سوى الرجال الذكور، وتهمل عادةً الأولاد وتهمل تمامًا ذكر الزوجات والنساء، فيقول لنا «جريفث»: «وقد خلت مدونات رجال الدولة من ذكر أنسابهم ... أن الزوجة والأولاد كان يندر أن يرد لهم ذكر في مقبرة من مقابر أخيتاتون». ^{٣٨}

وكما ظهر آتون مع تحتمس الرابع جد إخناتون، فقد ظهر معه أيضًا ردة عن آمون، واقتربًا واضحًا من الإله رع، ويقول «جريفث»: «ومع أن الرب المشترك آمون كان رب طيبة والدولة، فإن الرب الذي كانت تفضله الطبقة المتعلمة، وتؤثره هو رع لا آمون». ^{٣٩} ويقول عبد المنعم أبو بكر عن نبوءة أبو هول الجيزة — وهو أحد الآلهة الشمسية في عقيدة عين شمس — لتحتمس الرابع بتولي العرش: «والواضح أن كهنة رع كانوا من وراء قصة الرؤيا، وأنهم قد نجحوا في تحويل ذلك الأمير [أي تحتمس الرابع/المؤلف]، من عقيدة آمون إلى عقيدة رع الشمس، بعد أن أشعروه بمدى مناصرتهم له، إذا هو انحاز إليهم، وعاونهم على التقليل من شأن إله طيبة. ونجحت المحاولة وترجع تحتمس الرابع على عرش البلاد، وأخذ يشيد بمناقب رع متغاضيًا عن آمون. ولعل أقدم البشارات بقرب ظهور مذهب جديد، أو تصور جديد عن إله الشمس، ترجع إلى عهد هذا الملك. ومن هذه التبشير تصوير قرص الشمس، تمتد منه ذراعان تنتهيان بأيدي بشرية تحيطان بالملك وتحميانه، وتغدقان عليه النعم، وهو ذات التصوير الذي اختاره إخناتون فيما بعد لإلهه آتون، مع تحوير يلائم عقيدته. بل عثر على اسم آتون نفسه مذكورًا على جعل سجل عليه الملك تحتمس الرابع تمجيده لذاته، وإشادة ببأسه وقوته، وجهاده في سبيل إخضاع الشعوب، وجعلهم من رعايا آتون». ^{٤٠}

ولمزيد من التوضيح حول نبوءة عين شمس ودورها الفاعل في السياسة المصرية القديمة، ما جاء في قصة تولي تحتمس الرابع العرش، دونًا عن أشقائه الأربعة، فيقول

^{٣٧} جوليا سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ٨٦.

^{٣٨} ليولين جريفث، الانقلاب الديني ... سبق ذكره، ص ٤٢.

^{٣٩} نفسه، ص ٣٣.

^{٤٠} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٦٦، ٦٧.

عبد المنعم أبو بكر: «تولى عرش مصر آمنحتب الثاني [السابع بين ملوك الأسرة الثامنة عشرة]، وكان قد أنجب خمسة أبناء بعث بهم إلى منف العاصمة القديمة، التي أصبحت في عصر هذه الأسرة مقر قيادة الجيش. وكان العرف قد جرى إبان هذه الفترة على إيفاد أمراء البيت المالك إلى هذه المدينة، ليتلقوا ثقافتهم العسكرية فيها، ويأخذوا بأسباب العلم والمعرفة، ويتعمقوا في شئون اللاهوت المصري في جامعة أون/هليوبوليس [عين شمس] القريبة منها. ويبدو أن علماء هذه الجامعة، وهم في نفس الوقت كهان رع صاحب الدين القديم، كانوا حاولوا منذ تداعي سلطانهم التأثير على قلوب من يفد إليهم من الأمراء، وإغراءهم بالالتفاف حول راية إلههم والدعوة له دون آمون، عساهم أن يسترجعوا من وراء ذلك بعضاً من سلطتهم السياسية القديمة، ويعيدوا إلى معابدهم مجدها القديم، وأن أحد أولئك الأمراء الخمسة ولم يكن أكبرهم سنًا، بمعنى أنه لم يكن صاحب الحق الأول في تولي العرش بعد أبيه، مال إلى الاستجابة لدعوتهم، ليس اقتناعًا بها، بل على شريطة أن يؤيده في ارتقاء العرش دون إخوته بعد موت أبيه. ذلك هو تحتس الرابع الذي تلاقت مصالحه مع أهداف كهنة هليوبوليس، وارتقى العرش مسجلًا قصة الرؤيا على لوحة كبيرة من الجرانيت، لا تزال قائمة في مكانها الأصلي بين ذراعي أبي الهول بمنطقة أهرام الجيزة. وهي إحدى القصص التي يحاول فيها الكهان تأكيد رضا أحد الآلهة عن شخص معين، واختياره إياه ليكون ملكًا على مصر.»^{٤١}

[انظر شكل رقم «٢٠٧»]

ومن جانب آخر تظهر تلك القصة، أن أبا الهول قد أصبح محلًا للوحي والتنبؤ، وأنه كان له كهنة مُكرَّسون لهذا الغرض تحديدًا.

ويتساءل كورت زيتة U. Sethe: هل الصدفة وحدها فقط هي التي جعلت اسم

أتون ، يشمل كل الرموز الخاصة بعبارة ، وتنطق «أت. إن. رع»، أو «أتون رع». وفي هذه الحالة يجب أن يكون معناها والد رع أو أبو رع.^{٤٢} والأب يُكنى عنه بالسيد، وبالرب، ورب الأسرة. والرب آدون السيناوي المدياني كان كذلك، فاسمه يعني

^{٤١} نفسه، ص ٦٣، ٦٤.

^{٤٢} Sethe, K., Bitrage Zur Geschichte Amenophis IV in kgl. Ces. d. Wiss Machrichten Philist,

Klasse 1921, Heft 2. p. 121

السيد والرب والأب. إن آتون إذن كانت تعني الأب وهو «أبو رع»، ولو قرأناها سامياً حسب خريطة اللغة حينها، قياساً على «أبو مالك» حاكم جرار مثلاً زمن إبراهيم، وكان ينطق أبيعمالك، فيجب نطق «أبو» هنا «أبي» أو «أبي رع». و«أبي رع» أو «أبيرا» يجب أن ترتبط بفئة الأبيرو أو العابيرو أو الخابيرو. ويصبح معنى الاسم أصحاب أبي رع، وأبي رع أو أبيرا هو آتون، وآتون هو النداء الذي يتوجه به الإسرائيلي حتى اليوم ينادي ربه «آدوناي»/يا سيدي. فليست كلمة العابيرو إذن من عبور النهر كما اتفقت دواوين أصحاب التوراة، إنما من انتمائهم لعقيدة أبيرا، ربما (!؟).

وإذا كان جبل كاترين في سيناء المديانية أو في جبال آدوم، حسبما افترضنا جبلاً بركانياً يقذف بالحمم، ويتفجر في هيئة المشروم أو القضيب الذكري، فقد كان بالإمكان تصوّر أنه هو الذي يلد النجوم والكواكب، التي تخرج نحو السماء مع كل دفعة تفجيرية. ويمكن أن يكون والدًا للشمس رع، وهو ما يضيف تخريجاً جديداً لتفسير: لماذا كان المصري يعتبر بلاد بونت التي تقع في الشرق أرضاً للإله، الذي يلد الآلهة أو «أبي را» أو «والد رع»؟ وكان البركان أيضاً هو «الآتون»، فمعنى آتون واحد في المصرية والسامية، فكلاهما يعني مركز النار المشتعلة، فهو آتون رع أو إت إن رع/والد رع. وهل من ولد رع سوى الكلمة الخالقة والفعل الخلاق الأول الذي رسمه المصريون في شكل ريش وعصافير، إشارةً لهواء رع تنفسه؛ لأنه «هو» الذي لا اسم له، الخالق الأول المعنوي.

[للمقارنة انظر مشهدين؛ أحدهما للعمارنة، والآخر لآدوم]

[شكل رقم «٢٠٨، ٢٠٩»]

الباب الثاني

أوديب وإخاناتون

الفصل الأول

علاقة إخناتون الفرعون بأوديب الملك اليوناني

في عام ١٩٦٠م انتهى إيمانويل فليكوفسكي من تدبيج عمله غير المسبوق «أوديب وإخناتون»، الذي أوجز المسألة كلها في فقرة تقول: «لم يكن إخناتون موحداً أولاً، ولم يطلق عليه من خلفوه من فراعنة لقب المجرم من جراء محاولاته في ميدان الإصلاح الديني، ولكن من جراء خطيئة أخرى تسردها صفحات هذا الكتاب.»^١

يؤسس فليكوفسكي عمله على أسطورة يونانية، عمرها الآن حوالي ٢٧٠٠ سنة، هي أسطورة أوديب/أوديبوس، الذي قتل أباه وتزوج أمه، التي وصلت إلى المؤلفين اليونان، فسجلوها لنا في شكل مسرحيات كتبها أساطين المسرح اليوناني، إيسخوليوس وسوفوكليس ويوريديس، كلٌّ على طريقته. وقد استند العالم النفسي سيجموند فرويد إلى أسطورة أوديب، لتفسير عقدة نفسية أعطاها اسم بطل الأسطورة، فهي عقدة أوديب التي يراها تفسر الرغبة الباطنة عند الابن الذكر، في الاستحواذ على أمه وقتل أبيه.

وقد ذهب البعض إلى أن شخصية أوديب شخصية تاريخية حقيقية، وحاولوا نبش الأرض وراءها، لكن جميع الحفريات ذهبت هباءً دون أي أثر حقيقي واضح يشير إلى مملكة بيت الملك لايوس والد أوديب. وكانت أقدم إشارة لأسطورة أوديب قد وردت في أوديسة هوميروس حوالي ٩٠٠ ق.م. وربما قبل ذلك.

^١ فليكوفسكي، أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة بالمشاركة مع دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت، ص ٦.

وتتلخص الأسطورة، كما وردت لدى هؤلاء الكتاب، في أن الملك لايبوس ملك طيبة اليونانية، لم يُنجب وريثاً للعرش من زوجته يوكاستا، وعندما تحقق حلمه وحملت زوجته، جاءته نبوءة كهنوتية تقول: إن الطفل الذي سيولد سوف يقتل أباه ويتزوج أمه. ولتفادي الكارثة استلم الطفل خادمٌ بالبلاط، وحمله إلى أرض صحراوية قاحلة، بعد أن تم ثقب قدمي الطفل. لكن راعياً بتلك الصحراء يعثر على الطفل، أو يتسلمه من الخادم، فيربيه في بيته، ويعجب ملك المملكة المجاورة كورنثة بوليبيوس Palybus وزوجته ميروبي Merope بالطفل، فيتبنّياه، ويطلقان عليه اسم أوديب، أي القدم المتورمة، وينشأ الطفل معتقداً أن الملك بوليبيوس أبوه، وأن الملكة ميروبي هي أمه.

ويشب الصبي ويحضر حفلاً بالقصر، لكن أحد المدعوين تندُّ عنه ملحوظة تشكك في صحة نسب أوديب، فيرحل أوديب لاستشارة المعبد، فيعلم أن قدره هو أن يقتل أباه ويتزوج أمه، فيقرر أوديب ألا يخضع لهذا القدر، ويهرب من كورنثة جميعاً، حتى لا يقتل بوليبيوس الملك، ظاناً أنه أبوه، ولا يتزوج ميروبي ظاناً أنها أمه.

ويقرب أوديب من حدود مملكة طيبة، وطنه الحقيقي عند تقاطع للطرق، ليلتقي بأبيه الحقيقي «لايبوس»، وتحدث مشادة حول أحقية كل منهما في عبور الطريق، وهو لا يعرف أن هذا الشخص هو أبوه الحقيقي، فيقتل أوديب أباه «لايبوس»، ويستمر في سيره نحو طيبة.

وعند مشارف طيبة كان يكمن الوحش «أبو الهول الأنتي/سفنكس» المجنح، وكان أبو الهول يستوقف المارة ليُلقي عليهم بالألغاز، فإن لم يحلّ المارُّ اللغز هجم عليه السفنكس وخنقه، ويُلقى السفنكس لغزه الجديد على أوديب، فيحله أوديب ببساطة. وهنا يُصاب السفنكس بالهزيمة والحسرة، فيُلقي بنفسه من فوق الصخور منتحراً، وهنا يهتف سكان طيبة للشاب الذي خلّصهم من الوحش، فيتوجّونه ملكاً عليهم بعد مقتل ملكهم «لايبوس» الذي هو أبو أوديب الحقيقي، ويزوجونه من ملكتهم «يوكاستا» التي هي أمه الحقيقية، تعبيراً عن عرفانهم له.

وينجب أوديب من أمه يوكاستا طفلين، هما بولينكيس Polynices وأتيوكليس Eteocles، وطفلتين هما أنتيجوني Antigone وأسميني Ismene، لكن فجأة تحدث جائحة شنعاء أو كارثة في البلاد في شكل مجاعة أو وباء، وعند استشارة الوحي أجاب أن بالمدينة شخصاً أغضب الآلهة، فأرسلت بسخطها على طيبة، فهذا الشخص قد قتل أباه وتزوج أمه، وكى تهدأ الآلهة لا بد من عقاب المجرم.

ويقوم الملك أوديب بنفسه يبحث ويدقق ويستجوب الناس، حتى يصل إلى الخادم الذي سبق وحمل أوديب صغيراً، وإلى الراعي الذي أنقذه، لتتضح الحقيقة بالتدريج، ويعلم أوديب بما حدث، فيفقد عينيه عقاباً لنفسه ويتخلى عن العرش، ويترك المدينة طريداً، بينما تشنق أمه يوكاستا نفسها، في الوقت الذي أدّى فيه «كرايون»، شقيق يوكاستا وخال أوديب دوراً بارزاً في إدانة أوديب وعقابه.

ثم يأتي القسم الثاني من الأسطورة ليقول لنا إن أنتيجوني ابنة أوديب قد صحبت أباهما الأعمى في منفاه، بينما تربع الابن الأكبر بولينكيس على العرش، بشرط أن يخليه لأخيه الأصغر أتيوكليس بعد عام، ويتناوبان الحكم سنةً بعد سنة، وكان الخال «كرايون» هو من وضع تلك الصيغة، وعندما يحين الوقت ليتخلى أتيوكليس عن العرش لأخيه الأكبر بولينكيس، يرفض التنازل بتحريض من خاله كرايون، الذي كان حاكماً فعلياً من وراء ستار.

وهنا يقوم الابن الأكبر المخلوع بولينكيس بضرب الحصار حول طيبة اليونانية، بمعونة جيش حميه أدراستوس Adrastus ملك أرجوس. وعند أبواب طيبة السبعة، يلتقي سبعة قادة من كل جانب في قتالٍ منفرد، ويلتقي بولينكيس بأخيه أتيوكليس، ويقتل كلٌ منهما الآخر، لتحق عليهم لعنة أبيهم أوديب، الذي أعلن هذه اللعنة على شعبه، عندما حاول التراجع عن قرار نفي نفسه، ورفض شعبه هذا التراجع، وتكاتف عليه ولداه وخالهما وطردوه من المملكة.

ويحرم كرايون دفن الابن الأكبر بولينكيس؛ لأنه استعان بالأجانب ضد وطنه، ويعلن أن من يدفنه سيلقى عقابه موتاً بطيئاً. وفي الوقت نفسه يأمر بجنائز فاحرة، ومقبرة فخيمة للأخ الأصغر أتيوكليس، ويقوم بنفسه بالإشراف على تلك الجنائز العظيمة، تكريماً لصاحبها، لكن أنتيجوني ترفض الامتثال لأوامر كرايون الجائرة، وتقوم بدفن أخيها بولينكيس، فيحكم عليها كرايون بالحبس في كهفٍ هو مقبرتها حتى تموت.

وعندما يأتي الجيل التالي، يقوم أبناء القادة السبعة من مملكة أرجوس بحصار طيبة مرة أخرى، وهم الذين أطلق عليهم لقب السلالة: Epigoni، فينجحون في الاستيلاء على طيبة. وهكذا حلت اللعنة على طيبة اليونانية وبيت الملك لاويوس، لسبب إعلانته الآلهة؛ لأن لاويوس الأب والد أوديب، هو أول من أدخل اللواط إلى بلاد اليونان، عندما عشق الشاب خريسبوس Chrysippus واغتصبه.

وفي روايات أخرى متناثرة غير المسرحيات الثلاث التي تختلف في بعض التفاصيل، نجد أوديب ينجب أولاده ليس من أمه، ولكن من زوجة أخرى تدعى أوريكانيا

Euryganeia. وفي رواية ثالثة أن بعض الأطفال كانوا من يوكاستا وبعضهم من أوريكانيا. ثم رواية رابعة تقول بزوجة ثالثة لأوديب باسم استيمدوسا Astymedusa. وبينما يذهب بعض الباحثين إلى أن هذه القصة هي مخلفات رمزية لحروب تاريخية حدثت بين ملوك طيبة وأرجوس، فإن آخرين مثل «ريجلان» يجدها أسطورةً نمطية نموذجية متكررة في قصص الأبطال لدى شعوب مختلفة، وهو النموذج الذي يشتمل على عدد من العناصر الأساسية هي كالتالي:

- (١) أم البطل عادةً ما تكون عذراء أو لا تكون أحياناً.
- (٢) تكون أم البطل من أسرة مالكة، وعادةً ما يكون الأب من أقرباء الأم.
- (٣) تحيط بالحمل ظروف غير طبيعية، وقد يُشاع أنه إله أو ابن إله.
- (٤) عند ميلاد الطفل تحدث محاولات متعددة للقضاء عليه، وعادةً ما يدبرها الأب أو الجد من جهة الأم أو الوصي على العرش.
- (٥) يتم تهريب الطفل ليربيه أبوان بديلان، ولا يُذكر لنا شيء عن تفاصيل طفولته هناك.
- (٦) يحرز الطفل في سن الشباب تفوقاً ملحوظاً، وربما تمثّل في قتل وحش، أو عملاق، أو ملك ظالم.
- (٧) يصبح الطفل ملكاً محبوباً، لكنه يفقد صلته الطيبة بالآلهة.
- (٨) يتم استبعاده عن المدينة أو يموت موتاً غامضاً، غالباً ما يكون فوق تل مرتفع، ولا يُدفن جسده، أو لا يعرف موضع دفنه، لكنه يصبح مباركاً ويُقام له أكثر من ضريح مبارك.
- (٩) لا يُخلّفه أبناؤه على العرش.

وقد طبق لورد ريجلان هذا النموذج على عددٍ من الأساطير، فوجده يتطابق مع نماذج متعددة، فهو يطابق أساطير أشهرها: أوديب، تسيوس، رومولوس، هرقل، برسيوس، جايسون، اسكيبوس، ديونيسيوس، أبوللون، زيوس، موسى، سيجوردو آرثر، روبين هود ... إلخ.

ومن هنا يبدأ فليكوفسكي مشواره، ليثبت لنا أن قصة أوديب التي كانت تتردد في بلاد اليونان القديم، ليست قصة يونانية، وليست أسطورة، إنما هي ترديد لحقائق تاريخية وقعت في بلاد مصر الفرعونية، وأن بطلها كان الفرعون آمنحتب الرابع المعروف باسم إخناتون.

ويبدأ بالسفنكس (أبو الهول الأنثى)، فهذا الكائن الذي يحرس طيبة اليونانية في إقليم بيوتيا اليوناني، لم يكن كائنًا مألوفًا في بلاد اليونان؛ لأن أرضه الأصلية هي مصر، وأي صور أو نسخ أخرى له، عُثِر عليها في أي مكان، فهي إما مصرية، أو تقليدًا للنموذج المصري، بل إن بيساندر قد قال: إن سفنكس طيبة اليونانية هذا قد جاء وافدًا من بلاد إثيوبيا، ولم تكن طيبة المصرية في عمق مصر الجنوبي تُحسب عند اليونان من بلاد إثيوبيا، إنما إثيوبيا هنا هي تيوبيا/ طيبة المصرية. والاحتمال الأرجح لدينا أن إثيوبيا/ الحبشة الحالية المعروفة، هي التي اكتسبت اسمها من «طيبة» المصرية.

ومعلوم أن سفنكس الجيزة كان خلال الدولة الحديثة الفرعونية، بدءًا من الأسرة الثامنة عشرة، يُعد تمثيلًا للإلهة حتحور وهي تتأهب للقتال، وهو ما أثبتته عالم المصريات «إدوارد نايف». أما صيغة أبو الهول الأنثوي فقد ظهرت فجأة، زمن حكم آمنحتب الثالث في الأسرة الثامنة عشرة. ومن اللوحات التي وصلتنا من هذه الأسرة، نعلم أنه في طيبة قد أُقيمت تماثيل للسفنكس، كان يقدم لها قربانين بشرية.

وعلى الجانب الآخر؛ فإن طيبة اليونانية الواقعة في إقليم بيوتيا، تُحكى عنها أسطورة تقول إن منشئها هو الملك قادموس، الذي هاجر إلى طيبة اليونانية من البلاد الفينيقية، وبحذف التصريف الاسمي؛ فإن الملك يكون «قدم»، وهي صيغة أخرى من «أدم» أو «آدوم». ولا ننسى أن الهكسوس قد احتلوا الجزر اليونانية، وأنهم هجروا الأقوام من مواضعها في تهجين جنسي متعدد. وقد سميت طيبة اليونانية باسم «طيبة ذات البوابات السبع»؛ لأن سورها الخارجي كان له بوابات سبع. أما طيبة المصرية فيقال إنه كان لها مائة باب، وغربي طيبة المصرية لم يبقَ من معبد آمنحتب الثالث الجنازبي سوى تماثيله الضخمين اللذين أطلق عليهما اليونان: تمثالي ممنون. لكن زمن آمنحتب الثالث نفسه كانت طيبة سيدة مدن الدنيا. وعند الغزو الآشوري تم نهب طيبة وتدميرها، ثم أحرقها البابليون ثم الفرس بلا رحمة، وظلت منشأتها محجراً لكل من يريد البناء ولصنع الطواحين طوال السنين، تُنزع حجراً وراء حجر عبر القرون. ومع ذلك فإن طيبة على حالها هذا اليوم، تُعد أروع ما تقع عليه العين إطلاقاً من أطلال خالدة في الدنيا جميعاً. ومن اللوحة التي عُثِر عليها بين يدي أبي الهول، والتي يصف فيها تحتمس الرابع كيف اختارته نبوءة الإله ليكون ملكاً، نفهم أن كهانة السفنكس قد أصبحوا مصدرًا للوحي والتنبؤ، وقد استنتج «ب. برويد» أن كهنة طيبة قد أقاموا فيها عددًا من السفنكس في طيبة، ليدلوا بنبوءة تنافس نبوءة أبي هول الجيزة. وفي زمن آمنحتب الثالث أصبحت عبادة السفنكس من أشيع العبادات.

ويقول «دسين A. Dessenne»: إنه زمن آمنحتب الثالث وزوجته تي حدث بعض التحوير في صورة السفنكس، فقد تم تصوير الملكة تي في صورة أبي هول أنثى، وأضيفت له أذداء المرأة وجناحين، وتم نقشه في صورة امرأة تمزق ضحيتها. لقد كان سفنكس طيبة اليونانية نموذجاً للسفنكس الذي ظهر زمن آمنحتب الثالث وزوجته تي تحديداً في طيبة المصرية، وهنا لا بد أن نتذكر سفنكس أدوم المجنح ذا الأذداء.

ويلحظ فليكوفسكي كما لاحظ باحثون آخرون، المكانة التي وصلت إليها الملكة تي زوجة آمنحتب الثالث، رغم أنها من غير أصول ملكية، حتى إن الملك أصدر عدداً هائلاً من الجعارين تعلن هذا الزواج، وزعت في أرجاء الأرض المعروفة آنذاك، ثم بعد ذلك بدأ إجراء لم يحدث من قبل في تاريخ مصر، وهو أن القرارات الملكية كانت تصدر باسم الملك وزوجته معه. بل إن الملكة تي رفعت أبويها إلى مكانة مرموقة بالبلاط، وتم دفنهما في وادي الملوك مع الملوك، وكان اكتشاف مقبرة والديها يويا وتويا في وادي الملوك بين الملوك، اكتشافاً فريداً من نوعه بين مقابر مصر الملكية.

ويقول فليكوفسكي نصياً: «وقد حملت تي عدة مرات، وولدت ابناً، ولكننا لا نعرف عنه شيئاً، فلم ترسم له صورة ولم يرد له ذكر، إلى أن يأتي عند موت أبيه ويطلب بالعرش. ولكن هناك ثلاث بنات لآمنحتب وتي، عشن مع أبويهن وظهرن في صور العائلة.»

ولأن «تي» أظهرت استيائها من كهنة آمون؛ لأنهم لم يطلبوا منها القيام بدور الإلهة موت زوجة آمون، في احتفالٍ تمثيلي يُقام على سطح بحيرة المعبد المقدسة، أمر الملك بتشغيل مائة ألف رجل ليل نهار، فحفروا بحيرةً صناعية في غضون أربعة عشر يوماً فقط. تم ملؤها بالماء وزرعوا فيها السوسن، ونُقلت إليها الأسماك وأحاطوها بالحدائق، والتي زعمناها بحيرة التمساح على الحدود السينائية المصرية، وهكذا أصبحت تي تفوق آلهة الكهنة في مظاهر البذخ والسحر الملكي؛ حيث كانت مصر في أوج الرخاء، بعد أن تدفقت عليها ثروات العالم المفتوح لمصر آنذاك.

وكلما تقدم السن بالملك آمنحتب الثالث، أصبحت شخصيته أكثر اهتزازاً، ففي نوبة من نوبات انغماسه في الملذات، تزوّج إحدى بناته، كما أفصح عن بعض النزعات الشاذة، فهو الفرعون الوحيد الذي سمح لنفسه بأن يُرسم وهو يرتدي ملابس امرأة.

وبالمقارنة، فإن ما ارتكبه الملك لايوس في طيبة اليونانية من جرم اللواط لا يبدو غريباً على اليونان، فبينما كانت بلاد الشرق القديم تنظر للواط على أنه عادة قبيحة وممقوتة،



شكل رقم «٢١٠»: صاحب النبوءة أبو هول الجيزة أو أبو الهول الأكبر/السفنكس المصري وخلفه الهرم الأوسط (خفرع).

لم يكن الحال كذلك عند اليونان، ففي عصر إسخيليوس وسوفوكليس ويوريبيدس كُتِبَ ملحمة أوديب، كان حب الأولاد أمراً شائعاً هناك وليس بغيضاً؛ حيث امتلأت الآداب بحب الأولاد المحترم جداً. وكانت العلاقة الجنسية بين رجلين شائعة، ولم تكن خزيًا أو عارًا، بل إن الحكيم صولون أشار لحب الغلمان على أنه امتياز يتمتع به الرجل الحر؟! بل إن الآلهة نفسها كانت تمارسه. إذن أين الجرم الذي ارتكبه لايوس؟ لقد صورت التراجيديات عمل لايوس، على أنه خطيئة جلبت على بيته وعلى بلده اللعنة، وأنه لا بد من التكفير بصرامة، وهو ما يشير إلى أن موطن الأسطورة الأصلي لم يكن بلاد اليونان بالقطع واليقين. وفجأةً يموت الملك آمنحتب الثالث، ثم نجد الملكة تي هي السيد الحاكم وحدها، وفجأةً أيضًا يظهر للملك ابنُ باسم آمنحتب الرابع، الذي لم يرد اسمه قط في نقوش أبيه، ولم يُذكر كوليٍّ للعرش، بل ولم يُشر إليه مجرد إشارة، رغم تكرار اللوحات لصور شقيقاته البنات ولأسمائهن. ويتسلم المجهول آمنحتب الرابع الذي عُرف بعد ذلك باسم إخناتون عرش مصر العظيم.

النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة (الجزء الثالث)



شكل رقم «٢١١»: واحد من أبي هولاء مصر (من معبد بتاح أبو هول آمنحتب الثاني).



شكل رقم «٢١٢»: طريق أبي الهول بالأقصر/ طيبة المصرية/ حيث نبوءة تنافس نبوءة الجيزة.

وفي أرشيف رسائل تل العمارنة، توجد رسالة من «رَب عَدِّي» أمير بيبيلوس، وهو أمير فلسطيني منوب من قبل الفرعون، والرسالة توضّح أنه كان يعرف إخناتون من مقابلة تَمَّت بينهما من زمن بعيد، فهو يقول في خطابه:

ألا تذكر؟ فالآلهة والشمس وبعلات جوبلا Baalat Gubla، قد قرروا أن تترجّع أنت على عرش أبيك، وفي أرض وطنك.^٢

وفي ذات الزمن يكتب دوشراتا ملك الميتاني لإخناتون يقول:

عندما مات أخي نموريا (اسم العرش للملك آمحتب الثالث)، أعلنوا هم نبأ وفاته، وعندما أعلنوه وصل إلى مسمعي أنا أيضاً. لقد رحل عن الدنيا ... وبكيت أنا في ذلك اليوم؛ إذ كان الحزن يغمرني، ولكن عندما كتب لي نافوريا (اسم العرش للملك إخناتون) الابن العظيم لنموريا من زوجته العظيمة تي، يقول: سوف أبدأ فترة حكمي، قلت: إن نموريا لم يمت؛ فقد احتل الآن نافوريا ابنه العظيم من تي زوجته العظيمة مكانه، ولن يغير من الأوضاع شيئاً عما كانت عليه من قبل، فإن أمه تي التي كانت زوجة لنموريا المحبوب على قيد الحياة، وسوف تخبر هي نافوريا ابن نموريا زوجها، أنه كانت بيننا علاقات طيبة وصداقة حق.^٣

وقد كتب «دوشراتا» الملك الميتاني إلى إخناتون رسالة أخرى تقول:

وكل كلمة تبادلتها مع أبيك تعلمها أمك تي، ولا يعلمها إنسان سواها، ولكن لك أن تسأل أمك تي عنها، دعها تخبرك كيف كان أبوك على علاقة طيبة بي.

وهو ما يعني أن دوشراتا كان يعرف الأب ويعرف الابن، لكنه لم يحظَ الابن بمعرفته بالأب قبل هذا الخطاب، ويعني أيضاً أن إخناتون كان يجهل علاقة أبيه مع الحكام الأجانب، كما كان يجهل العلاقة الخاصة مع ملك الميتانيين، بينما كانت الملكة تي تعرفها

^٢ الخطاب رقم «١١٦».

.Mercer, S.A.B., The Tell-El Amarna Tablets, 1939

^٣ نفسه، الخطاب رقم ٢٩.

حق المعرفة، وهو ما يعني أن إخناتون لم يكن في طيبة خلال السنوات التي سبقت موت أبيه، وكذلك أوديب أمضى طفولته وصباه بعيداً عن وطنه، وعندما مات أبوه تولت يوكاستا أمه العرش، حتى أتى أوديب وتولى العرش.

وفي الأسطورة اليونانية نجد كلمة أوديب، تعني ذا القدم المتورمة. وبالنظر إلى الوسيلة الغريبة التي عالج بها الفنان جسم إخناتون، نجد رأساً مستطيلاً عجيباً ورقبة نحيفة وبطناً متدلياً. أما أكثر التشوهات فكانت في الفخذين، لقد كانتا متورمتين منتفختين، مع ملاحظة أن رعوس أطفال إخناتون كانت مستطيلة بدورها، لكن تورم الفخذين كان خاصاً بإخناتون وحده.

وفي عام ١٩٢٠م نشر طبيبان فرنسيان في مجلة Revue Neurologique، هما (إم. أميلين، وب. كويرس) بحثاً بعنوان «أمنحتب الرابع وعقليته»، وافترضوا أنه كان يعاني من نقص المواد الدهنية، أما «إليوت سميث» أستاذ التشريح بجامعة لندن، والمتخصص في المومياءات المصرية، فقد علّق على البحث الفرنسي بقوله: إن الحالة المفترضة هي نقص مستمر في المواد الدهنية في القسم العلوي من الجسم، مع تزايد شديد في أسفل الصدر، وقد قدم باراكوي عام ١٩٠٧م نموذجاً حياً لهذا المرض النادر. لكن الملك اعتبر هذا التشوه النادر خاصية نادرة ومميزة وعلاقة قداسة اختارها القدر، ففاخر به، وطلب من الفنانين رسمه كما هو دون أي تجميل. وإذا كانت أفخاذ إخناتون هي المتورمة وليس القدمين، فإن كلمة pous اليونانية القديمة في أوديبوس، تعني القدم والساق، كذلك الكلمة المصرية «رد» تعني كليهما. لكناً لم نعثر على مومياء لإخناتون على الإطلاق، وكان التشخيص يتم دائماً قياساً على التماثيل والنقوش واللوحات.

وكثيراً ما تساءل الباحثون عن السر وراء القسوة التي لحقت بأوديب طفلاً، وثقب قدميه دون مبرر، بينما كان «جاردنر» يتساءل بدوره عن النعت المستديم المفضل في كل نصوص إخناتون: «ذلك الذي تخلف ليعيش طويلاً»، ليتعجب قائلاً: «ألم يكن من المتوقع أن يعيش إخناتون طويلاً وهو في عز الشباب؟» والإجابة في أسطورة أوديب، حيث حُكم عليه بالموت وهو طفل.

ويفترض «فليكوفسكي» أن آمنحتب الثالث قد استشار نبوءة آمون إبّان حمل تي بإخناتون. ولا ريب أن تربية إخناتون بعيداً عن وطنه كان لها علاقة بتلك النبوءة، وأنه ربما تم إيداعه لدى أقرباء آمنحتب الثالث في بلاد ميتاني، وربما كل ذلك كان وراء عداة إخناتون لكهنة طيبة، وتدميره لنبوءة طيبة، بينما أحاط نفسه بكهنة نبوءة أون/عين شمس.

ثم إنه قد عُثر على بقايا تماثيل محطمة لأبي الهول عند سفح تل قرب معبد حتشبسوت، تم إلقاؤها من على التل، بينما محيت تماثيل أبي الهول بانتظام من على النقوش السالفة لعصر إخناتون، وبقيت خطوط باهتة تشير إليها. كما دمرت صور الملك آمنحتب الثالث نفسه، ولا ريب أن كل هذا قد حدث إبان حكم إخناتون، وأن إلقاء تماثيل السفنكس من على التل، وجد صداه في إلقاء سفنكس اليونان نفسه من على التل، دون أي مبرر واضح لذلك. فالوحوش لا تنتحر لإصابتها بخيبة أمل من لغز تم حله، ولا تلقي بنفسها من فوق التل عن طيب خاطر.

إن «فليكوفسكي» يريد القول إن أسطورة أوديب ما هي إلا ترديد لقصة حقيقية عرفت في دول الشرق، وإنها حدثت في مصر، وإن أوديب هذا لم يكن شخصاً آخر سوى الفرعون «إخناتون» بلحمه ودمه.

مشكلة بكتاتن

لقب «ذلك الذي تخلف ليعيش طويلاً»، لم يكن اللقب الوحيد المميز للفرعون إخناتون، فهناك لقب آخر أينما نجده نعرف أنه يخص إخناتون، حتى لو لم نجد اسم إخناتون هو لقب «ذلك الذي يعيش في الحقيقة»، وعلى عكس ما يُشاع عن إخناتون فإنه تحول عن عبادة آمون، باعتباره تجلياً للشمس إلى عبادة قرص الشمس ذاته. فالإله الأوحد الذي عبده إخناتون هو «آتون»، وآتون اسم الشمس المادية ذاتها وكان يبدو داعية سلام. فلوحات العمارنة صورت فقط الطبيعة الهادئة، وليس بينها لوحة تصوّر إخناتون وهو يصطاد الحيوانات، أو ينفذ حكم الإعدام أو يرمي الأعداء بقوسه. ثم إنه حرّر طيبة المصرية من الذبائح البشرية، تلك العادة الدينية الغليظة التي دخلتها غريبة عليها، وظهرت خلال حكم آمنحتب الثاني وتحتمس الرابع وأمنحتب الثالث. وفي الوقت ذاته لم نسمع عنه أنه شقّ حروباً، بل لم يُبالِ بهجوم الخابرو على ممتلكات مصر في آسيا، منصرفاً إلى نظم شعره والسعادة مع مباحجه العائلية. ويلاحظ أن إخناتون أزال اسم الإله آمون وأبيه آمنحتب الثالث أينما وجدتهما، فكان ناقماً على أبيه، وعلى رب النبوءة. وقد غير الفرعون اسمه من آمنحتب الرابع إلى إخناتون، نقمةً على آمون وعلى اسم آمنحتب. لكنه لم يمحُ اسم آمون من اسمه الذي سبق تدوينه مرات عدة، بعد أن تحول في منتصف العام الخامس من حكمه إلى عبادة آتون، إنما محاه من اسم أبيه بالذات. وكان بالإمكان قتل أي إنسان في هذه الحياة، لكن القتل الحقيقي والأبدي عند المصري القديم هو إزالة

اسم شخص متوفى، فهذا يعني هيام روحه إلى الأبد؛ لأن القرين «كا» لن تجد اسم المتوفى لتحل فيه يوم البعث والدينوية، كما نلاحظ أنه لم يُعد يذكر أنه ابن آمنحتب الثالث، بل ابن الإله آتون نفسه.

وفي نقش لإخناتون وُجد على لوحة تأسيس مدينته الجديدة «أخت آتون»، نجله يقول:

طالما أبي حور آتن يعيش، فما أكثر شرًا من تلك الأخبار التي سمعتها في السنة الرابعة، وما أكثر شرًا من هذه الأخبار التي سمعتها هذا العام، وما أكثر شرًا من هذه الأشياء التي وصلت مسمع الملك.

وهو ما يشير إلى صدام مع كهنة آمون، الذين ربما أدلوا بحديث لا يرضي الملك، وبالفعل أعلن إخناتون قطعه لكل العلاقات مع كهنة آمون في العام الرابع من حكمه. وفي هذا العام دمر لوحة أبيه التذكارية ومحاها بوحشية سافرة، وهو ما يعني قتلًا أبدئيًا، فالميت يسترد حياته في حداثك النعيم بعد الموت، أمّا إن قُتل وهو بهذه الحداثك بمحو اسمه، فلن يكون له وجود على الإطلاق. وربما كان هذا التصرف سببًا في احتجاج كهان النبوءة، الذين اعتبروه قاتلًا لأبيه، وعندما تازمت الأمور هجر الفرعون طيبة عاصمة مصر الكبرى، ليبني له عاصمةً جديدة إلى الشمال، ويسمّيها أخت آتون.

والغريب أن إخناتون كان يصف نفسه دومًا أنه ابن تي، لكنه لم يذكر أبدًا أنه ابن آمنحتب الثالث. ولولا رسائل تل العمارنة ما كنا عرفنا أنه ابن آمنحتب الثالث. وكما لقب إخناتون نفسه بأنه ابن آتون الشمس، فإن أوديب بدوره قد عُرف بأنه ابن الشمس.

وقد تم العثور في تل العمارنة على أكوام من الفخار الميسيني اليوناني، حتى أطلق علماء الآثار على أحد شوارعها اسم الشارع الميسيني لكثرة السلع اليونانية به. ومن هنا تم تحديد زمن إخناتون باعتباره كان معاصرًا للعصر الميسيني في بلاد الإغريق.

والواضح أن الفرعون كان محبًا للفنون بشدة، فلم يعثر في مكان آخر على هذا العدد الهائل من النحت والنقوش، وعادة ما كانت تصويرًا له ولعائلته. والوحيد الذي يظهر بهذا الجسد الشاذ وسط بقية البشر الذين تم تصويرهم معه، هو إخناتون وحده. وقد أخذت بناته عنه استطالة الرأس البالغة، والرقاب النحيلة دون بقية جسده.

وبين مقابر تل العمارنة المهداة للنبلاء، عثر على مقبرة أُعِدَّت لرجل يُدعى «بارنفر» من أصل غير نبيل. وكما تظهر لوحاتها؛ فقد أغدق الملك على هذا الرجل امتنانًا عظيمًا.

وقد عبَّ عالم المصريات الألماني فرانكفورت وزميله بندلبري على ذلك بقوله:

يبدو أن الأفضال قد أُغدقت عليه لوجود علاقة قديمة بينه وبين الملك، فقد قام هذا الرجل بأداء خدمة للملك عندما كان هذا الملك طفلاً، ويتضح جلياً أن هذا الرجل كان خادماً بسيطاً. وقد رُفِعَ هذا الرجل الذي كان خادماً بسيطاً، (ويكرر) وقد رُفِعَ هذا الخادم ذو الأيدي النظيفة إلى مصاف أعرق النبلاء في بلدة العمارنة.^٤

وربما كانت هذه الإشارة الوحيدة لطفولة إخناتون، لكنها الإشارة التي تذكّرنا بالخادم المخلص، الذي حمل الأمير الطفل إلى الموت في أرض مهجورة في أسطورة أوديب، لكنه لم ينفذ الأوامر بدقة، فأعطاه لراع وزوجته يرعياه.

وقد حمل «آي» — أقوى رجال الدولة نفوذاً — ألقاباً عدة، رغم أنه لم يكن من أصل ملكي. ومن هذه الألقاب التي حملها، وهو في خدمة إخناتون في بلده أخت آتون: أبو الإله أو الأب المقدس، كما أن زوجته تاي قد حصلت على لقب المربية العظيمة للملكة. وآي في رأي فليكوفسكي هو النموذج المصري الأصلي لشخصية كرايون اليوناني؛ فقد تمتع كرايون بعد موت لايوس بمركز مرموق، وكان هو الذي وهب أخته الملكة يوكاستا إلى أوديب، وهو ما يشير إلى مكانة رفيعة في البلاط، لكنه كان هو نفسه من أجبر أوديب على التخلي عن العرش، مع تحريض ولديه ضده. وهو نفسه من حكم البلاد بعد موت ولدي أوديب وهم صبية بعد. وهذا ما يجعلنا نستنتج في الصورة المصرية أن آي كان أخاً للملكة تي وخالاً لإخناتون. وقد برهن سيرل ألدريد على أن آي كان ابن يويا وتويا وشقيقاً للملكة تي، وكان والدًا للملكة نفرتيتي، باعتباره قد حمل لقب «أبو الإله» أي «أبو الفرعون» الذي يعني «حمو الملك».^٥

ومن داخل مقبرة «حويا»^٦ يبدأ فليكوفسكي في اكتشاف المأساة التي استغرقت زمناً من حياة الأسرة الملكية، حيث تختلف رسوم تلك المقبرة التي بُنيت في العام الثاني عشر

^٤ Frankfort and Pendlebury, The City of Akhenaten, part II, 1933, p. 44.

^٥ Aldred, C, The End of El Amarna Period, Journal of Egyptian Archaeology (J. E. A.), 1957, pp. 30-41.

^٦ جوليا سامسون: حويا وربما «حوي» المشرف العام للملكة تي بعد حضورها لمدينة أخت آتون في السنة الثانية عشرة من حكم إخناتون. ولم تستخدم مقبرته للدفن. كتابها نفرتيتي، ص ١٨١.



شكل رقم «٢١٣»: الحلوى والمشروبات المنعشة بعد تناول الطعام (من جمعية الاستكشافات الأثرية المصرية).

من حكم إخناتون عن مثيلاتها في مقابر أخرى، فالنحوت هنا تصوّر الملكة الأم تي، وقد رُسمت بصورة متكررة، وهي تؤدي دور المسيطر الفعلي، وعند ذكر مهام حويا وألقابه نجد بينها دائماً: «المشرف على حريم تي أم الملك والزوجة الملكية العظمى».

والغريب هنا أن تحتفظ تي بحريم لزوجها آمنحتب الثالث، بعد موت هذا الزوج باثنتي عشر عاماً (!) ولماذا يمنحه إخناتون لقب المشرف على حريم تي والملكة أرملة (?) أم إن هذا الحريم كان حريم إخناتون نفسه؟ لأن مركز هذا الحريم كان مع تي في تل العمارنة، وكان زوجها آمنحتب الثالث قد مات قبل أن تُبنى. ولا بد أن إخناتون هو مَنْ أَلَفَ لها هذا الحريم. وفي نقش بمقبرة حويا نقراً وصفاً للملكة تي ومديحاً يقول:

المديح والثناء لزوجك يا سيدة الأرضين. يا مَنْ جعلت الأرضين تتألق بجمالك، أيتها الأم الملكية والملكة العظمى تي، ولتحل عليها البركة بالسرور والبهجة كل يوم.

وهناك رسمان بالمقبرة يصوران وليمة بالقصر، وفي كليهما يجلس إخناتون مواجهًا للملكة تي، بينما تجلس نفرتيتي خلفه، وتجلس أميرتان صغيرتان بجوار نفرتيتي، على حين تجلس أميرة صغيرة هي بكتاتن، صغرى بنات إخناتون، بجوار الملكة تي. وكانت كبرى بنات الملك هي مريت آتون، التي تزوجت من بعد من سمنخ كا رع. لكن في لوحة الوليمة كانت لم تبلغ من العمر أكثر من السابعة. أما شقيقتها التي تظهر إلى جوارها في اللوحة فقد ماتت صغيرة.

وتظهر ابنتان أخريان في لوحات أخرى منهما «عنخ. إس. إن. با. آتن»، التي تزوجت فيما بعد توت عنخ آمون، الشقيق الأصغر لسمنخ كا رع. وعداها لا نعرف أسماء، لكن بكتاتن تحديدًا لم تُرسم إلا في مقبرة حويا في لوحة الوليمة ورسوم أخرى. وهو ما أدى إلى استنتاج أنها كانت صغرى بنات إخناتون. وقد عَقِبَ فلندر بتري على ذلك بقوله: «عادة ما كان ترتيب الأميرة بكتاتن هو السابعة، وأصغر بنات إخناتون. ومع ذلك فهي تظهر في مقبرة بُنيت في عامه الثاني عشر، أي بعد ميلاد الابنة الثانية بست سنوات. وقد حلَّ بتري المشكلة باستنتاجه أن «بكتاتن» لم تُكن صغرى بنات نفرتيتي، بل ابنة تي، فهي ترتبط بها دائمًا وتجلس بجوارها. وهي الوحيدة التي تتبع تي في موكب ديني لا يظهر فيه أطفال آخرون، وهي الوحيدة التي أُطلق عليها ابنة الملك، بينما كان يُطلق على الأميرات الأخريات: بنات نفرتيتي»^٧

هذا بينما استنتج آخرون أن بكتاتن هي أصغر بنات نفرتيتي؛ لأن أول ظهور لها في اللوحات كان في العام الثاني عشر من حكم إخناتون. وجسمها أصغر من جسم إنخستياتن (منخ. إس. إن. با. آتن) الابنة الثالثة للزوجين الملكيين. والمقطع «آتن» في اسمها هو اسم الإله آتن الداخل في تركيب أسماء شقيقاتها. لكن دي جاريس ديفيز اتفق مع بتري على أن بكتاتن لم تُكن بنت نفرتيتي، بل ابنة تي وزوجها الراحل آمنحتب الثالث. لكن وجه المشكلة هنا أن بكتاتن كانت طفلة لا تتجاوز الأربع سنوات في العام الثاني عشر لحكم إخناتون، وكان آمنحتب الثالث قد مات منذ اثنتي عشر عامًا. والمشكلة الثانية: كيف حملت اسم آتن في اسمها قبل ظهور ذلك الإله في الأسماء قبل عهد إخناتون، بعد أن غير الملك اسمه من آمنحتب إلى إخناتون، وكذلك بقية أفراد أسرته، وفي لوحات الوليمة توصف «تي» بأنها:

٧ Flinders Petrie, A History of Egypt, 7th ed., 1924, II, 209



شكل رقم «٢١٤»: لوحة الوليمة (لاحظ عري تي التحتي الكامل وخلفها بكتاتن، بينما جلست نفرتيتي وبناتها خلف إخناتون الذي كان يواجه أمه العارية، وأمه بالتاج، ولا تاج لنفرتيتي).

الأميرة الوريثة، كريمة في هباتها، سيدة الرشاقة، خلابة برقة حُبها، تملأ جوانب القصر بجمالها، سيدة الشمال والجنوب، زوجة الملك العظمى التي يحبها ويقدّسها، سيدة الأرضين تي.

وبجوار بكتاتن كتب:

بكتاتن ابنة الملك من جسده، المحببة من نفسه.

لهذا جميعه رأى ديفيز أن اللوحة اليمنى بالمقبرة، لا تصور إخناتون بل أباه أمنحتب الثالث. أما اليسرى بالمقبرة فتصور إخناتون وزوجته وأطفاله. وكانت اللوحتان وراء بزوغ فكرة تقول: إن الملك أمنحتب الثالث وولده قد قضيا فترة حكم مشترك، وأن اللوحتان صدّى لفترة الحكم المشترك تلك، وهو ما أصرّ على إثباته سيرل آلريد. لكن يبقى الاعتراض: أنه إذا كان إخناتون قد شارك والده الحكم؛ فهو ما يتناقض مع جهل إخناتون بشئون الدولة، وأن يأتيه نصح ملك أجنبي يحدثه عن العلاقات بين الدولتين إبان حياة أبيه. ولا ننسى محو إخناتون لاسم أبيه مما يستبعد فرض الحكم المشترك، إضافةً إلى

أن بكتاتن تظهر كأصغر البنات في السنة الثانية عشرة لحكم إخناتون. وبفرض صدق مسألة المشاركة في الحكم، فإن آمنحتب الثالث ما كان بإمكانه أن يُرزق بطفلة بعد وفاته بحوالي ست سنوات!

كما أن اللوحة اليمنى بالمقبرة التي يُفترض أنها لآمنحتب الثالث وزوجته تي والطفلة بكتاتن، تحمل سمات تؤكد أنها كانت لإخناتون وأمه تي وطفلة بكتاتن؛ فقد رُسم تحت أشعة آتون التي ابتدعها إخناتون وليس أباه. كذلك التكوين الجسدي هو تكوين إخناتون لا أبيه.

وفي نقوش اللوحة اليمنى يترجم ماسبيرو:

الأميرة الوريثة، أكثر من يناله المديح، سيدة رشيقة، عذبة في حُبتها، تلك التي تملأ جوانب القصر بجمالها، الحاكمة، سيدة الشمال والجنوب، زوجة الملك العظمى التي تحبه، سيدة الأرضين تي.

وقد عبر «ماسبيرو» عن دهشته للتغزل في الملكة تي، بمثل هذه الأوصاف، فقال: «كما لو كان زوجها لا يزال على قيد الحياة».^٨

وهنا يقول فليكوفسكي: إنه لا مفر لحل اللغز من الانتهاء إلى أن الملك الذي أنجب بكتاتن ابنة الملك من جسده، هو إخناتون نفسه. وعلى الحائط الشرقي بذات المقبرة لوحة لإخناتون يقود «تي» إلى المعبد تتبعهما بكتاتن، مع كتابة تقول: «يقود الملكة العظمى والأم الملكية تي لترى ظلها في الشمس». ويرتدي إخناتون ثوباً شفافاً يسمح برؤية تفاصيله الداخلية. أما تي فتكاد تكون عارية، وإخناتون يمسك بيدها كما لو كانا عاشقين. ويقول أوديب عن يوكاستا «أمي التي هي زوجتي». وعن أنتيجوني «ابنتي التي هي أختي».

^٨ Maspero, G., In the Odore; Davies, M., The Tombo of Queen Tiye, 1910, PXX

الفصل الثاني

سفاح القربى

معلومُ الآنُ أن العرش المصري في الأسرة الثامنة عشرة لا يرثه الابن نظرياً أو مجازياً، بل ترثه الابنة. أما الابن فيزواجه من الوريثة، أخته الشقيقة أو غير الشقيقة، يصبح مؤهلاً لتولي العرش. وفي اللغة المصرية القديمة غالباً ما كانت كلمة أخت تُستخدم بدلاً من كلمة زوجة. وحتى اليوم تنادي المصرية زوجها بأخي، وكذلك في بقية بقاع الشرق الأوسط القديم. ومع ذلك كانت العلاقة الجنسية بين الأم والابن أمراً بغيضاً في مصر والعالم القديم والمجتمع البدائي والحديث على السواء. ومثل هذه العلاقات رغم بغضها كانت تحدث، ومنها ما سجّلها لنا التاريخ لشهرة أصحابها مثل «نيرون» وأمّه «أجريبيا»، التي أقرّها الإمبراطور نفسه وأكدها «سويتو نيوس». وهي الحالة التي تشبه حالة إخناتون وأمّه تي من وجهة نظر فليكوفسكي؛ فقد كان يعرف أنها أمّه وتعرف أنه ولدها، وأن العلاقة كانت علنية. فجعل أمّه شريكته على العرش والفراش وأنجب منها بكتاتن. وربما بدأت العلاقة سرية ثم انقشعت تلك السرية بسرعة.

ومن تلك الفترة يأتينا خطاب من ملك «كاردونياش/بابل» المعروف باسم «بارنابورياش»، تجرأ فيه على الفرعون كما لو كان يخاطب شخصاً أدنى منه ويقول:

لقد أرسلت عشرين خاتماً فقط من حجر اللازورد إلى سيدة قصرک؛ لأنها لم تنفذ مطلباً من مطالبي، ولم ترفع معنوياتي عندما كنت حزينا.

وكانت تي هي المذكورة بالخطاب وليس نفرتيتي. وعبارة «سيدة قصرک» تفصح عن ازدراء واضح، نتج عن الأخبار التي وصلت الأقطار الأجنبية.

وكانت هناك صلات عائلية بين البلاط المصري والبلاط الميتاني، وهو ما أفصحت عنه رسائل العمارة. فأم آمنحتب الثالث «موت أم ويا» زوجة تحتمس الرابع كانت أميرة



شكل رقم «٢١٥»: هذا ما بقي من أحد معابد البتراء في بلاد أدوم المديانية، يحمل اسمًا له دلالة لدينا تؤكد علاقة هذه البلاد بما كان يدور من أحداثٍ في مصر حول نبوءة أبي الهول التي استبعت الطفل الملكي إلى بلاد مديان، وكان أبو الهول في قصة أوديب مجنّحًا.

ميتانية. وفي العام العاشر من حكم آمنحتب الثالث، جاءت إلى طيبة أميرة ميتانية تُدعى «يلوهيبا»، بصحبة حاشية كبيرة ودوطة كبيرة، لتصبح زوجةً ثانوية للفرعون. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن أحد والدي تي كان ميتانيًا. وقبل نهاية حكم آمنحتب الثالث أرسل له ملك الميتانيين أميرة أخرى تُسمى «تادوهيبا»، لكنها وصلت بعد موته فانضمت لحريم ولده إخناتون. وهي العلاقات التي ترجح أن غياب إخناتون منذ ميلاده حتى توليه العرش؛ فقد تم استبعاده صغيرًا لاجئًا عند أخواله الميتانيين، استجابةً لتحذير النبوءة المفجعة.

وهنا يقول هاستنجن:

نحن لا نعرف بصورةٍ إيجابية موقع مملكة الميتانيين، ولكن في ضوء الاتصال الوثيق بين عائلات الميتانيين والمصريين المالكة، يحدد المؤرخون عادةً موطن الميتانيين في شمال سورية، وهي الأراضي المتاخمة لبلدة قرقيش التي على نهر الفرات. وعلى الرغم من أن هذا الإقليم كما نعلم علم اليقين كان ضمن مملكة آشور، فإن شعوب الأراميين والحواريين والحيثيين، كانت تحتل مساحة واسعة

من هذه المنطقة الآهلة. وهناك ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا التحديد الجغرافي خاطئ في كون الميتانيين كانوا يقطنون شمالي العراق؛ إذ يصف هيرودت في القرن الخامس قبل الميلاد شعب الميتاني قائلًا: إن هذه المستعمرة الفارسية كانت بالقرب من جبل أارات. وإذا كان الموقع الجغرافي لشعب الميتانيين موضع جدل وخلاف فإن معتقدات هذا الشعب معروفة لدينا بصورة مؤكدة، إذا كان ملوك هذا الشعب يصلون ويقسمون بأسماء ميترا وفارونا وأندرا وآلهة هندو إيرانية أخرى ... والإيرانيون الفرس كانت لهم نظرة تجاه العلاقات الجنسية المحرمة، تختلف تمامًا عن نظرة شعوب العالم القديم الأخرى، فقد اعتنقوا مذهبًا دينيًا أخلاقيًا وزاولوه، يُسمى كسفتوكداس أو كسفاينفاداثا ... يعني زواج الآباء بأولادهم والإخوة بأخواتهم في الرحم ... ومن الواضح أنَّ مَنْ زاول هذه العلاقات الجنسية لم يكن العائلة المالكة فقط، بل كل الفرس بمختلف درجاتهم ومراتبهم.^١

إن اسم هذا المعبد هو «معبد أبي الهول المجنَّح»، وهناك تم العثور على تمثال هذا المجنَّح (العنقاء)، وسبق عرض شكله في باب الفينينق. ويذكر لنا فليكوفسكي أمثلة منها خبر كوينتوس رفيوس عن سيسمثرس حاكم بكتريا الذي تزوّج أمه، وقد ذكر كلُّ من ديوجنيس اللائرتي، وسترابون وبلوتارخ علاقات زواج الأم والابنة والأخت بكل اشمئزاز. كذلك تحدّث عن هذه العلاقات التعبدية التي ترقى بممارستها إلى مراتب عليا في القرب من الآلهة، كليمنت السكندري والقديس هيرونوموس والقديس جيرونوم. وقد كتب فيلون السكندري يقول: إن الأطفال الذين يُولَدون من زواج الأم بالابن عند هؤلاء يُعدون أكثر الأطفال شرعية، وقال كاتوللوس إن كاهن مازدا الذي يُلقب بالماجوسي، لا بدَّ أن يكون ثمرة مضاجعة الابن لأمه. ويجمع فليكوفسكي من المقدس المجوسي، ويكتبه أيضًا الهاجوسي، ما ورثه عن عقائد إيران القديمة ما نصه:

^١ Article, Marriage Iranian, on Vol VIII of Encyclopaedia of Religion and Ethics, ed. J.

إن مراعاة هذه العادة تُعتبر أجلاً لعلامات التقوى في أيام الشر المقبلة؛ فهي تعوض الخطيئة الدنيوية، وتقيم الحاجز الوحيد الذي لا يمكن تخطيه أمام هجمات آشوم إله الغضب (تكتب آدم/المؤلف)، كما تقف في وجه الشياطين وتسلبهم قوتهم. وهي الواجب الثاني من واجبات الدين السبعة، وإهمالها هو الخطيئة الرابعة من الخطايا الثلاثين الكريهة. وهي الوسيلة التاسعة من الوسائل الثلاث والثلاثين لاكتساب مملكة السماء، بل وحتى يقال إن زرادشت أوصى بها على أنها الوصية الثامنة من وصاياه العشر للإنسان.

وهل الهاجوس شيء آخر سوى الساجوسي أو السجاز قاطع الرقاب؟ خاصة إذا علمنا أن الهاء كانت أداة التعريف في السامية الشمالية، إن الهاجوس بهذا المعنى هم الأراميون الإسكيث.

ويحتوي كتاب «دنكارت» مناظرة تمت بين زرادشتي (الزردشتية تطوير واستمرار لديانة مزدا القديمة، قام بها زرادشت حوالي ق.أ.ق.م.) وبين يهودي حول هذه العادة. فكان رد الزرادشتي: «إن هذا الرباط بين الأب والابنة والابن وأمه والأخ وأخته، لهو أكثر الزيجات اكتمالاً في اعتباري».^٢

وكان ملوك الميتانيين الذين يأخذون بهذه العادة، والتي أخذها من بعد الزرادشتيون، على صلات وثيقة بالملكة تي وأمنحتب الثالث وإخناتون، وكانت بينهما علاقات نسب ومصاهرة. والاحتمال القوي أن إخناتون عندما استُبعد صغيراً، قد رُبي في البلاط الميتاني، وهو ما يمكن أن يُفسر رباط الزوجية بين الملكة تي وولدها إخناتون.

وقد لاحظ عالم المصريات والاس بدج أن أناشيد إخناتون تطابق أناشيد الفيدا، وأن أذرع آتون، التي تمتد بعلامة الحياة، هي ذات أيدي إله الشمس الفيدي (سوريا).^٣

كذلك هـ. ر. هول الذي أكد أنه بين الميتانيين كان هناك فرع هندو إيراني، يعبد الأشعة ذات الأيدي، أما إخناتون فلم يجعل علاقته بأمه سراً؛ إذ تفاخر بأنه «ذلك الذي يعيش في الحقيقة». وهو الأمر الذي أدّى إلى سخط وثورة مصرية آتية في الأفق على وشك الفوران.

^٢ Dinkart, III, 195, E. W. Wesk, pp. 399 ff

^٣ Budge, E. A. W., Tut ankh amen, Amenism, Atenism and Egyptian Monotheism, 1923

ومن المتفق عليه أن الملكة «تي» قد تخلّفت في طيبة بضعة سنوات، قبل أن تلحق بولدها في مدينته الجديدة (أخت آتون)، إلا أن آثار المدينة تؤكد أن مأساة حياة إخناتون العائلية قد اكتملت حلقاتها في العام الثاني عشر من حكمه. لقد أصبح له أسرتان، سُجلت التفاصيل بشأنهما في نقوش الوليمة والشراعة. وبموجبها طالبت الأم الملكية، التي أصبحت زوجة ملكية، بمركز رسمي ومكانة ممتازة لها ولابناتها «بكتاتن». وكان على إحدى الزوجتين أن تترك مكانها للأخرى. وبعد ذلك، ولدة خمس سنوات يختفي ذكر نفرتيتي، حتى يقول آرثر ويجال في كتابه *The Life and Times of Akhenaten*: «لا يكشف لنا التاريخ ما آل إليه مصير نفرتيتي. ويبدو أن نهايتها كانت محزنة تمامًا.»

وعلى لوحة الشراعة، فوق لوحة الوليمة، نطالع موكب نصر يصوّر تي ذاهبة مع إخناتون وابنتها بكتاتن إلى معبد أخت آتون، حيث أعدت ثلاثة مذابح لهم، واحد للملك وثنان للملكة تي وثالث لبكتاتن، ولا شيء من أجل نفرتيتي وبناتها. وهو تقرير واضح عما حقّقه تي من نصر؛ فهذا إنما يعني اعترافًا وفق الطقوس بأنها زوجة شرعية له، وبالطفلة ابنة ملكية منه.

ويقول «إريك بيت» في كتابه *Akhenaten, Ty, Nefertiti, and Mutneymet*: إنه «بعد مرور العام الثاني عشر بفترة قصيرة، سقطت على رأس إخناتون أقوى الضربات وأقساها؛ فقد هجرته زوجته نفرتيتي، هذا إذا لم نكن قد أخطأنا في تفسير الشواهد.» هذا بينما نجد «جلانفيل» في كتابه *Amenophis III and his Succerors, in the XVIII Dynasty* يقول: «وأما عن اختفاء نفرتيتي؛ فمن المتفق عليه عامة أنه كان نتيجة لإلحاق الخزي والعار بها بعد العام الثاني عشر بقليل.» حيث أُزيل اسمها من على النقوش في بعض المباني التذكارية، على حين ترك اسم إخناتون المنقوش عليها دون مساس. أما «فرانكفورت» فقد اعتقد أن التغيرات الكبرى التي حدثت في العام الثاني عشر من حكم إخناتون في تل العمارنة، كان نتيجة لوصول الملكة تي إلى مدينة الملك، وما ناله شخصها من تقدير فائق الاحترام، وأن ذلك كان له علاقة أكيدة باختفاء نفرتيتي. هذا بينما اعتقد «ج. دس بندليري» أن نفرتيتي قد رحلت بعيدًا عن إخناتون وقصره الملكي؛ لكي تستقر في شمال أطراف مدينة الملك.

ويؤكد لنا فليكوفسكي أن كل الدلائل تشير إلى صراع حزبين في البلاط أخذًا في الصراع على السلطة. الحزب الأول هو حزب إخناتون وتي، والحزب الثاني هو حزب نفرتيتي وانضم إليها والدها آي، وترغم هو الصراع ضد أخته وابنها. وفي إحدى روايات أسطورة

أوديب يطرد أوديب زوجته الشابة أوريكانيا، بعد أن ألحق بها العار وهي أم لأربعة أطفال.

المهم يستمر إخناتون يتربع على العرش طوال أربع سنوات أو خمس سنوات، بعد هجران نفرتيتي له أو إلحاق العار بها. وإبان ذلك يتسع نفوذ أي؛ فقد كان هو وزير خزانة الدولة. ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن تي قد اختفت من الوجود بعد فترة قصيرة، وأن نهايتها غامضة تمامًا؛ إذ لم تُدَفَّن بوصفها ملكة عظمية لإمبراطورية عظيمة. أما مصير نفرتيتي فيمكن قراءته مع «بندليري» في كتابه تل العمارنة حيث يقول: «لم نعثر في المقبرة الملكية على أدوات تؤكد أنها من مدفن نفرتيتي. وما نمتلكه دليلٌ وحيد، هو أنه في العقد الثامن من القرن الماضي، شوهد مجموعة رجال يسيرون جنوبي الصحراء ومعهم كفن ذهبي، وخلفهم بمسافة قصيرة ظهرت أدوات ذهبية تحمل اسم نفرتيتي.»^٤

وهنا يفترض فليكوفسكي أن ما تخلف عن نفرتيتي ليس مومياء، بل تماثيلها المنحوتة.

وفي السنوات الأخيرة لحكم إخناتون، نجده يحتضن الأمير سمنخ كا رع، الذي يظهر كشاب في العقد الثاني من العمر، وأشركه معه في الحكم حوالي عام، وقد عُثر على تماثيل لإخناتون، وهو يقبل سمنخ كا رع الجالس على ركبتيه. ويقول «جلانفيل» بهذا الخصوص: «لقد ثبت نهائيًا وجود حكم مشترك بين إخناتون وسمنخ كا رع، ولكن تكمن في تلك اللوحة لمحات لعلاقة أخرى أكثر وثوقًا، فهناك لوحة في متحف برلين كان من المعتقد إلى وقت قريب أنها تمثل إخناتون ونفرتيتي، ولكن وضح أنها دلالة على تعبير الملك عن شعوره تجاه شريكه في الحكم الصغير السن.»

فإذا كان علم التشريح قد أثبت بعد فحص مومياء سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون أنهما أبناء إخناتون؛ فإن هذه الحقيقة ستفسر العواطف الأبوية في اللوحات من إخناتون تجاه سمنخ كا رع.

ويتابع فليكوفسكي موضحًا أن سمنخ كا رع الابن الأكبر كان شابًا أنيقًا، تزوج مريت آتون كبرى بنات نفرتيتي، وهو في سن صغيرة، ولما كان سمنخ كا رع قد تزوج الوريثة الشرعية، فقد أصبح من حقه وراثة العرش. أما الابنة الثانية مكتاتن فقد ماتت

^٤ Pendlebury, Tell El-Amarna, pp. 169-170

صغيرة، ودُفنت في مقبرة أخت أتون الملكية، والابنة الثالثة عنخ إس إن با أتون تزوجت أخاها توت عنخ آمون، لكن لم يتم هذا الزواج إلا بعد أن قام أبوها إخناتون بزيارتها في غرفة زفافها، وكانت ثمرة هذه الزيارة فتاة ماتت بعد ولادتها مباشرة، وقد أوقف هذا الاكتشاف عن إخناتون سيل المديح الذي تدفَّق عليه، باعتباره الموحد الأول، المفترض أن يكون راعياً للأخلاق والقيم.

وقبل زمن إخناتون بجيل واحد تزوج والده آمنحتب الثالث إحدى بناته عرَّصاً، وقد حذا إخناتون حذوه، وربما كان تأثير عادات الميتانيين في العلاقات الزوجية هو المسئول عن هذه النزعات المتحررة التي لم يعرفها المصريون في الأجيال السابقة، قبل علاقات البلاط المصري الحميمة بالميتانيين. كذلك نزعة العري في رسوم نفرتيتي وبناتها، والتي تكشف دوماً عن الفرج، كما لو كان مقصوداً عن عمد؛ ربما تقديساً للفرج رمز الخصب، وعادةً ما اشتملت عقائد عبادة الفرج على طقوس جنسية غير مألوفة، كزواج الابن من أمه أو الأب من بنته، فيما يعرف بالطقس السري، ويطلق على العقائد التي تمارس ذلك عمومًا «الديانات السرية»، وما زال منهم طوائف موجودة في منطقتنا إلى اليوم، كما في السماعلة في بوادي الشام.

وقد يكون اتصال إخناتون جنسياً بابنته، هو أصل الأسطورة اليونانية القديمة، التي تقول إن أوديب تزوّج أيضاً عذراء تسمى استيمدوسا، بالإضافة إلى يوكاستا أمه وزوجته، إضافةً إلى زوجته الشابة أوريكانيا التي رزق منها أطفالاً عديدين، ثم أبعداها بعد أن ألحق بها العار؛ لذا يقف دارسو الأساطير مشدوهين أمام كل هذا التشابك والتفاصيل، وذكر منمنمات صغيرة مع التعقيد الذي بلا معنى واضح في أسطورة أوديب.

وبمرور الوقت أخذت الإمبراطورية العظمى تترنح زمن إخناتون، وقد أرسل أحد الولاة من فلسطين إلى فرعون يقول: «أصغ إليّ ... لماذا ركنت إلى الانعزال على حين أنهم يأخذون أرضك؟ لا تدع مثل هذه الأقاويل تُقال عنك في المستقبل، وهي أنك لم تكن قادراً على إنقاذ ممتلكاتك.»

وضاعت الأقاليم الآسيوية، التي أخضعها حملات أسلاف إخناتون العظام، وبدأت تظهر دلالات أخرى تكشف عن تفكُّك الدولة، فُسرت على أنها غضب من الآلهة، وهو ما جعل النبلاء والكهنة وضباط الجيش في حالة استفزاز ضد الفرعون؛ لأن ضياع الإمبراطورية كان يعني جفاف الدخل الذي ملأ مصر ذهباً وكنوزاً، ولا بد أن الكهنة قد أشاعوا بين العامة والنبلاء، أن هناك خطيئة قد حدثت تستوجب القصاص قبل دمار

البلاد، وربما على ذلك تم تفسير انتشار جائحة أو كارثة من نوع ما ربما كانت مرضاً وبائياً.

وتحكي لنا أسطورة أوديب عن طاعون أو مجاعة، أو كارثة ما غير محددة بالضبط حلت بالمملكة؛ ولذا قرروا سؤال النبوءة عن سبب غضب الآلهة حتى يعالجوا الأمر. وبالمثل في آخر حكم إخناتون حلت بالأرض كارثة يصفها «توت عنخ آمون» وريث «إخناتون» الملكي بقوله: «لقد كانت الأرض مريضة، وأدارت الآلهة ظهرها لهذه الأرض». ويبدو أن «آي» كان الزعيم وراء تحريك النقمة على بلاط إخناتون، وهو المقابل المصري لشخصية كرايون في أسطورة أوديب، فقد تزعم كرايون شقيق الملكة يوكاستا الثورة ضد الملك، طمعاً في الاستيلاء على الملك، وهو ما حدث في مصر؛ إذ تحالف آي مع كهنة آمون، وأصبح بالفعل في النهاية ملكاً، وعمل على دعم آمون وكهنته، وترك مدفنه في أخت آتون قبل أن يكتمل، ذلك المدفن الذي يزين جدرانه نشيد آتون البديع، لكن صاحب المدفن قرر تركه لينضم إلى جانب آمون.

ولعزل ملك مصري في زمن كان يحاط بقدسية الآلهة، كان لا بد أن يستعين المصريون بشتى القوى السماوية الأرضية، أما في طبعة اليونانية التي في إقليم بيوتيا، فقد ساهم العرّاف الأعمى «تيرياس» في إسقاط الملك، فقد كان له دور أساسي في قصة أوديب، وقد قدمته الأسطورة بحسبانه الحكيم، والعرّاف المقدس الذي يعرف الماضي والمستقبل، وعاش زمن الملك لايوس، ثم عاش في بلاط ولده أوديب كهلاً، ثم فارق الحياة في الجيل الذي جاء بعده، وهو جيل حرب طروادة.

وعندما حل وباء الطاعون بمدينة طيبة اليونانية، طلب أوديب من العراف الأعمى أن يكشف عن السبب في غضب الآلهة، وكان العراف «تيرياس» يعرف الحقيقة، فالسبب أن في المدينة رجلاً قتل أباه وتزوج أمه، وفي البداية رفض «تيرياس» الكشف عما يعلم، لكن أوديب اتهمه بالتآمر بالتضامن مع كرايون، فاضطر للكشف عن بعض ما يعلم، وإبان صراع وريثة أوديب على العرش، أدان العراف تيرياس الملك كرايون لرفضه دفن الأمير المقتول، وقد لجأ أهل طيبة أيضاً إلى نبوءة معبد دلفي، لتكشف لهم عن سبب الكارثة، وفي طبعة المصرية نجد العراف المقابل لتيرياس هو «أمنحتب بن حابو»، الذي عاش زمن أمنحتب الثالث وزمن ولده إخناتون، وقد قدسه الناس من بعد موته إلى حد عبادته، ولم يحدث في تاريخ مصر أن إله المصريين شخص لا ينتمي لأصل ملكي، سوى هذا العراف «أمنحتب بن حابو»، وسميه الأسبق المهندس «إيمحتب» مصمم وباني هرم «زوس»، وأبو الطب المصري الذي شبهه اليونانيون الإغريق بإله الطب عندهم «إسكليبيوس».

وقد كان تيرياس عليماً بظروف ميلاد أوديب والتخلص منه طفلاً، وبين المفردات الغامضة التي تركها لنا «أمنحتب بن حابو» في مذكراته وَصَفَ يصف فيه نفسه بأنه «عالم وثيق بأسرار تربية الأطفال الملكيين».^٥

وبين اللوحات التي تصور العراف المصري، لوحة تصوره وهو صغير السن ذو شعر طويل مصفف مثل نساء عصره، وهي صورة شديدة الغرابة، لكنها تفسر لنا حدثاً جاء بالأسطورة اليونانية، حيث تقول الأسطورة فجأة ودون علاقة ببقية الأحداث التي ترويها، أن تيرياس قتل ذات مرة حية، فتحوّل إلى امرأة لفترة من الوقت عقاباً له، وعندما استوفى مدة العقوبة عاد رجلاً مرة أخرى، واشتبك الإله زيوس مع الإلهة «هيرا» في نقاش حول أي منهما أشد تمتعاً بالاتصال الجنسي: الذكر أم الأنثى؟ لجأ المتحاوران الإلهيان إلى تيرياس بوصفه صاحب الخبرتين، فأجاب: إن المرأة أشد استمتاعاً، فغضبت «هيرا» وأغمته عقاباً له، لكن زيوس كافأه بأن قرّر منحه عمراً مديداً حتى يرى الجيل السابع من أحفاده، ثم أسبغ عليه نعمة القداسة. أما في مصر فقد أصبح أمنحتب بن حابو راعياً للعميان؛ لأنه كان أعمى، وقد عاش طويلاً حتى إنه في العام الرابع والثلاثين من عمر الملك أمنحتب الثالث، بلغ من عمره الثمانين، ولكي يعيش هذا العراف حتى نهاية حكم إخناتون، فلا بد أنه قد أتم من عمره قرناً من الزمان بنيف أو يزيد.

وفي وسط معابد ملوك طيبة الفراعنة، أقيم لهذا العراف معبد جنازي، وقد تم العثور على صندوق تابوته بوادي الملوك، وكلاهما المعبد والمقبرة كانتا من ميزات الملوك، لكن الملاحظ أنه لم تُبنَ له مقبرة في تل العمارنة، مما يشير إلى أنه لم يغادر طيبة مع إخناتون، ويبدو أنه انحاز إلى جانب أي وكهنة طيبة ضد إخناتون، كما انحاز تيرياس إلى جانب كرايون في مسرحية سوفكليس (أوديب ملكاً).

وفي مصر نجد عقاب السماء واضحاً في وصف توت عنخ آمون لزمن إخناتون في قوله: «عندما كنا نرسل الجنود إلى سواحل فينيقيا كانت الحملات تفشل بسبب غضب الآلهة». وفي قوله: «لقد أدارت الآلهة ظهرها لهذه الأرض». ويتطابق ذلك عبارة لتيرياس حول رفض الآلهة للقرايين؛ بسبب جريمة شنيعة قد حدثت «أن الآلهة قد باتت لا تقبل الصلوات والقرايين من أيدينا»، وهو ما جاء في مسرحية «أنتيجوني»، وفي مصر انضم الأمير الأكبر سمنخ كا رع إلى أي وكهنة طيبة، وسافر إلى طيبة بالفعل إبان حكم والده

٥ .Graves, R, The Greek Myths, 1955, II, ii, Apollodorus, III, 71-72 °



شكل رقم «٢١٦».

إخناتون، وبعد فترةٍ نجده يتربع على العرش بعد اختفاء إخناتون، والمعلوم أن إخناتون قد اختفى، وهناك احتمال كبير أنه قد تم عزله ثم نفيه، أو تحديد إقامته في منطقةٍ نائية، بدون ثورةٍ أو انقلاب.

وعند الكشف عن مدينة أخت آتون في تل العمارنة، كانت تعيش هناك جماعات بدوية قبلية تحمل اسم «العمارنة»، تم استئجارهم للعمل في الحفائر، كان هؤلاء يحكون لعلماء المصريين المشرفين على الحفائر، عن أنهم ذوو أصلٍ عريض، وأن جدهم البعيد كان أميرًا وأنه كان مدفونًا هنا، وكان حظه تغييسًا، وأن أباه أراد إنقاذه من مصير تنبأ به القدر عند ولادته.



شكل رقم «٢١٧»: آمنحتب بن حابو، مهندس عراف رُفع إلى مرتبة القداسة بشعر مصفف على طريقة النساء.

وطبقاً لرواية «يوربيدس» عن الأسطورة، أنه بعد عزل أوديب عن العرش، عاش أعمى في سجنٍ بقصرٍ منعزل، أما وفقاً لرواية «سوفكليس»، فقد اقتلع أوديب عينيه بعدما عرف الحقيقة، وعاش أعمى في قصره لبعض الوقت، حتى نفاه أبناؤه من طيبة، أثناء حكم ولده الأكبر، ومن ثم تتفق الروايات على عمى الملك.

وهنا يعتمد فليكوفسكي على ما ورد عند «هيرودت» في تاريخه عن مصر، أنه كان بين الفراعنة ملك أعمى جلس على العرش يدعى «أنيسيس»، عاش في مدينة تحمل نفس اسمه، وقد تعرضت البلاد إبان حكمه لهجومٍ إثيوبي فهرب إلى المستنقعات، لكنه استدعى

بعد خمسين عاماً من منفاه ليتربع على العرش مرةً أخرى، بعد طرد الغزاة، وفي مقبرة «توت عنخ آمون» نرى الملك توت مرسوماً وهو يحارب الإثيوبيين، ومن ثم نجد أن قيام حرب ضد الإثيوبيين أيام خلفاء إخناتون حقيقة تاريخية، كما نذكر أن إخناتون أطلق على مدينته ذات اسمه فأسمها «أخت آتون»، لكن هيرودت دوّن الاسم «أنيسيس».

وفي الرواية اليونانية كان المكان الذي نُفي إليه أوديب جزيرة كلها كُتبان رملية، وهو ما لا يختلف كثيراً عن أرض المستنقعات التي نُفي إليها الملك الأعمى في شرقي الدلتا، أما البليغ؛ فهو أن الملك أنيسيس عند هيرودت قد حكم مصر في نهاية الأسرة الثامنة عشرة. وفي كلمات كتبها أمير فلسطيني موالٍ لمصر إلى إخناتون، نجده يقول: «مع أن الإنسان يرى الحقائق، فإن عيني الملك مولاي لا تريان»^٦

وفي نشيد مديح آتون، وهو يصف عجائب الدنيا عن سطوع آتون الشمس، نلمس احتفاءً فياضاً بقدرة الرؤية، وحمداً جليلاً على نعمة النظر، «فالعيون ترى الجمال حتى تغرب أنت». وبعد اختفاء إخناتون وعودة الآمونية، كان تلاميذ المدارس يتدربون على نسخ نشيد، ظهر زمن توت عنخ آمون وآي، يقول:

يا آمون،

إن شمس ذلك الذي لم يقدر قد غابت،

لكن الذي يعلم قدرك يتألق.

إن فناء الذي هاجمك يسبح في ظلام دامس،

على حين يسبح العالم كله في ضوء النهار.

إن من يضعك في قلبه،

يا لبشراه! تشرق شمسك^٧.

وقد دونت الكلمة التي ترجمها إرمان في هذا النشيد إلى «فناء»، برسم عين، وتنطق «ويبا»؛ ولأن إرمان لم يكن يعلم أن إخناتون قد فقد بصره، فقد ترجمها بكلمة فناء، وعلق عليها بأنها «أبنية الكافر الديني وخاصة في العمارنة»، لكن المؤكد أن كلمة الرؤية هي المقصودة عند كتابتها بشكل عين بشرية، أما جرابو فقد ترجم كلمة «ويبا-ما»،

^٦ El Amarna Tablets, 288

^٧ Erman, The Literatura of the Ancient Egyptions, 1927, pp. 309-310

في مؤلفه عن الطب المصري بكلمة «ما = يفتح + ويا = العين»، كما كتب ليفير في مقاله *Essai sur La medicine Egyptienne de L'epoque pharaonique*, 1956 يقول: «هناك مجموعة كاملة لوسائل العلاج، لا يزال يُشار إليها بوصفها من أجل فتح العين — ويا — أو بالأحرى علاج العين». أما الأستاذ «أبل» في ترجمته لبردية «إبريس» عام ١٩٣٩م فيترجمها: «تحسين حالة النظر».

لقد ارتقى «إخناتون» عرش مصر وهو مُبصر، لكنه فقد بصره بعد ذلك، ربما نتيجة لأعراض المرض وتجمع أعراض تشوهه العضوي، وعندما شيد مدينته «أخت أتون»، قطع على نفسه عهدًا ألا يتركها حتى نهاية حياته، وطلب دفنه فيها مع زوجته وأولاده، لكن الشخصية الوحيدة التي نعلم أنها دفنت بالعمارنة، هي ابنته الثانية مكتاتن، وباستثنائها لا تحوي المقابر على بقايا جنازية، ولقد تم العثور على تابوت إخناتون الضخم المرمري، وعلى أركانه النسور الحامية، لكن التابوت لم يستعمل على الإطلاق، ويخلو من أي أثر لمواد التحنيط. إن إخناتون لم يُدفن بالعمارنة إنما ذهب إلى منفاه أعمى، وحُذِف اسمه وكل أسماء أسرة العمارنة من التاريخ المصري، كما لو كان نجسًا يجب اجتنبه، وقرر المصريون نسيانه تمامًا، وإذا حتمت الظروف ذكره كان يحل محل اسمه التعبير «مجرم أخت أتون هذا»، ولم يُشر إليه من بعدُ باسمه، أما «أخت أتون» نفسها، فتشي بأنها قد هُجرت فجأة وبسرعة، ورحل عنها الجميع ليتركوها بلقعةً، في لحظة واحدة.

وفي عام ١٩٠٧م اكتشف تيودور ديفز بوادي الملوك بمدينة طيبة المصرية عددًا من المقابر، أهمها كانت مقبرة يويا وتويا والذي الملكة تي، وكانت المقبرة سليمة لم تمتد لها يد إنسان، ولم يعث بها لصوص المقابر، ثم مقبرة أخرى لها بابان من الخشب ذوا مقابض نحاسية، وعلى الجانب الآخر من البابين ألواح ذهبية، نقش عليها اسم وألقاب الملكة تي، لكن المفاجأة أن نجد مقبرة ملكة عظيمة، قد نُحتت في الصخر بلا نظام ولا تنسيق، ومحتوياتها مبعثرة وفي حالة فوضى شاملة، وبين المحتويات كانت أواني الأحشاء الكانوبية المصنوعة من المرمر، لكن اسم صاحبها أُزيل من النقوش بدقة لم تسمح بقراءة الاسم. وكما وجدنا بالمقبرة ألواحًا خشبية على الأرض، مغطاة بالذهب منقوشًا عليها اسم الملكة تي، ويبدو أنها كانت جوانب الصندوق الذي وضع به التابوت، وعلى إطار واحد من هذه الألواح حُفرت صورة الملكة، وهي ترتدي ثوبًا شفافًا لا يخفي جسدها، وأمامها إخناتون، لكن صورته أزيلت بعنفٍ من على اللوح الذهبي، أما التابوت فكان مصنوعًا بدوره من الخشب، يبدو أنه قد أُلقي في الحفرة إلقاءً، فقد انفصلت جوانبه، وخرجت

منه رأس المومياء ورقبتها، وبإخراج المومياء وضح أنها كانت لإنسانٍ صغير برأسٍ صغير ويدين رقيقتين، ملفوفة في نسيج فاخر، وتحت اللفافات كان الجسد مغطىً جميعه بألواح الذهب الخالص.

وكان وجود الجواهر والألواح الذهبية برهاناً قاطعاً على عدم تسلل اللصوص إلى المقبرة، رغم الفوضى الشاملة في المقبرة، بل إن بعض خدم الملكة «تي» حصلوا على مقابر أجمل من مقبرتها بزينات ورسوم وتخطيط هندسي، أما قبر «تي» فكان مجرد كهف وعر، عارٍ عن الجمال منعزل عن بقية المقابر الملكية، مع العجلة الواضحة في دفن الجسد وعدم الاحتياط الذي أدى لكسر التابوت، هذا إذا لم يكن قد ألقى ألقاءً عن عمد، وبالفحص الطبي برهنت عظام الحوض أن المومياء كانت لامرأة، ولا شك أنها كانت الملكة العظمى «تي»، لكن بمراجعة الطبيب إليوت سميث أعلن أنها مومياء ذكر، وأن ما خدع الأطباء السابقين هو أن عظام الحوض كانت غير طبيعية، لكن جاستون ماسبيرو عالم المصريات المعروف أكد أن التابوت كان للملكة تي، خاصة أن الألقاب بجوار اسمها كانت ذات ألقاب تي في حياتها في أخت آتون «أم الملك وزوجة الملك العظمى»، أما المفاجأة الأكبر؛ فهي اكتشاف أن التابوت كان مخصصاً أصلاً للملك إخناتون، حيث أزيل اسمه من على الألواح الذهبية التي تغطي الجسد، لكن ألقابه الملكية لم تُمس، خاصة عبارة «ذلك الذي يعيش في الحقيقة»، وعُقب ماسبيرو بقوله:

علينا أولاً وقبل كل شيء، أن نضع في أذهاننا، أن القبو الذي اكتشفه ديفز ليس بمقبرة حقيقية، بل هو مجرد كهف وعر حفر في الحجر، وقد استخدم هذا الكهف كمخبأ سري لدفن عضو من أعضاء الأسرة المسماة بأسرة الملوك الكفرة، وذلك عندما ارتد الناس إلى عبادة آمون، وقد دبر بعضهم نقل المومياء من مدفنها الأصلي في طيبة أو العمارنة، هذا لكي ينقذ المومياء من انتقام الطائفة المنتصرة وبطشها.

ورجح «ماسبيرو» أن من رسم خطة الدفن السري تلك إما توت عنخ آمون أو آي، وأن وجود اسم إخناتون وتي بمحتويات المقبرة، يشير إلى أن المومياء هي مومياء الملك المهترق إخناتون نفسه، وأنه دُفن في تابوت ومقبرة تي سرّاً، حتى لا يتعرض الجسد لإيذاء الغضب الشعبي. لكن المشكلة التي تواجه ترجيح ماسبيرو هي تقرير الطبيب إليوت سميث الذي أكد أن الجثمان لرجلٍ مات، وعمره لا يزيد على ستة وعشرين سنة، نعم لم

يكن تكوين الهيكل طبيعياً، فالجمجمة مستطيلة بشكل واضح، لكن هذه الاستطالة كانت واضحة أيضاً في نسل إخناتون، حتى بناته تم تصويرهن حليقات الرءوس، والرءوس مستطيلة من الخلف.

وبين محتويات المقبرة عُثر على ختم ملكي باسم توت عنخ آمون، وقوالب طوب نُقش عليها اسم إخناتون، مع لوح ذهبي وُجد عند قدمي المومياء، يحمل صلواتٍ ونشيد حب أو كلمات وداع تقول:

إني أستنشق الهواء العذب الخارج من فمك،
وأأمل كل يوم في جمالك،
وأمنيتي هي أن أسمع صوتك الحبيب،
الذي يشبه حفيف ريح الشمال.
إن الحب سيعيد الشباب إلى أطرافي.
أعطني يدك التي تمسك بروحك،
وسوف أحضنها وأعيش.
نادني باسمي مرةً أخرى وإلى الأبد!
لن يصدر نداؤك أبداً بلا إجابة.

وكما هو واضح، فالكلمات أغنية وداع وحب، كتبها شخص حي للشخص الميت، وهو ما زاد في غموض المقبرة اللُّغز، التي يمكن أن تلتبس التفسير في مقبرة أخرى، كانت إلى الجوار منها، هي مقبرة توت عنخ آمون، التي كان لكشفها دوي عالمي لم يحدث لأي كشفٍ تاريخي آخر في تاريخ العالم. وتساءلت الدنيا: لقد تم الكشف عن مقابر ملكية عديدة لم تمسّسها يدٌ، لكنها أبداً لم تكن بفخامة مقبرة الفرعون توت، فما معنى كل هذا العرض المذهل للثروة وللفن والجمال؟ ولماذا دُفنت كل هذه الثروة الهائلة في مخبئٍ بعيداً عن الأنظار في هذه المقبرة المنعزلة؟ ولماذا توارت أجمل المنتجات الفنية في العالم في هذا المدفن الغريب؟

وأرسلت المومياء إلى الطبيب «د. أ. دري»، وقَدَّر هذا الجراح عمر توت عنخ آمون عند وفاته، بما لا يزيد على ثمانية عشر عاماً، لكن الجديد أن جمجمة توت تميزت بذات السُّمك غير العادي في عظام مؤخرة الرأس، مما أدى بالطبيب الجراح إلى نتيجة مفادها أن

توت كان ابناً لإخناتون. وهنا تم فحص مومياء المقبرة للغز المجاورة مرة أخرى على يد الطبيب «إنجلباخ»، الذي انتهى إلى أنها تشابه إلى حدٍ بعيد مومياء الملك توت، وأنها ليست سوى مومياء سمنخ كا رع شقيق توت، وليست أبداً للملكة تي أو للفرعون إخناتون. وقد أيد وجهة نظر إنجلباخ تكرار عبارة «المحبوب من إخناتون»، على الألواح الذهبية التي غطت المومياء، وهي العبارة التي ذُكرت في مواضع أخرى في الآثار، لتشير إلى سمنخ كا رع تحديداً، وقد قرر الدكتور «دري» أن سمنخ كا رع كان شقيقاً للملك توت، وكلاهما كان ابناً للملك إخناتون، وأنه بعد توارى إخناتون تولى العرش لفترة قصيرة ولده الأكبر سمنخ كا رع الذي تولاه بعده أخوه توت، بينما كانت القوة المحركة وراء حكم الصبية هذا كانت الكاهن الأعظم خالهما أي، وكان هو المسئول عن احتفال دفن الملك توت، فقد رُسم على حوائط مقبرة توت، وهو يشرف على طقوس الجنازة. والغريب أن أي بعد موت توت كان هو الملك، ولم يحدث أن قام ملك مصري بتنظيم جنازة الملك السابق، فما سرُّ كل هذا الاهتمام؟ ولماذا كل هذا التبجيل والتكريم لسلفه الصبي، خاصة وأن توت عنخ آمون كان ملكاً لا أهمية له على الإطلاق؟ لكن رسوم مقبرته تصوره يضرب بسهامه صفوفاً من الأعداء، كذلك يضرب أسرى الحرب، مما يشير إلى وقائع عسكرية حدثت في عهده، وأنه ربما مات في تلك الحرب، ولا شك إذن أنه كان محارباً وطنياً يستحق التكريم، بعد أن مات وهو ملك في ساحة الشرف. لكن علينا أن نلاحظ الفرق الهائل بين مقبرتي الأخوين سمنخ كا رع وتوت. أما الملحوظة الجانبية في مقبرة سمنخ كا رع، أن ذلك المحب الولهُان صاحب نشيد الوداع، قد ترك بجوار الجثة نباتات محترقة وبخوراً خامداً وبعض زهور تحوّلت إلى تراب.

وفي الأسطورة اليونانية، في مسرحية سبعة ضد طيبة، قصة صراع الأخوين على العرش، يتخلّى أوديب عن العرش بضغطة من كرايون، ويتم الاتفاق على تبادل العرش بين الصبيين سنوياً، فحكم بولينكس أكبر الأخوين لمدة عام، وتنازل عن العرش لأخيه أتيوكليس، وترك الملكة ثم عاد إلى طيبة اليونانية، بعد عامٍ حسب الاتفاق، لكنّ أخاه الأصغر، وبتحريض من كرايون، رفض التنازل عن العرش. وهنا استعان الابن الأكبر بولينكس بأعداء البلاد ليستعيد عرشه، وهي القصة النموذج للأخوين سمنخ كا رع وتوت، حيث حكم سمنخ كا رع أولاً، ورسم وهو يرتدي الزي الملكي في حياة أبيه، لكنه بعد موت أبيه لم يحكم سوى سنة واحدة في طيبة، ثم فجأة يظهر توت ملكاً على طيبة، بينما نجد أي الحاكم الفعلي.

أما الحرب المجهولة التي مات فيها توت/أتيوكليس اليوناني، فلا شك أنها بالمقارنة مع الرواية اليونانية، كانت دفاعاً عن البلاد ضد الأجانب الذين استجلبهم أخوه الأكبر سمنخ كا رع/بولينكيس اليوناني، ومن ثم قُتل كلاهما في تلك الحرب. [وهنا بالتحديد يمكننا أن نضع توقيت الهجمة الهكسوسية الثانية، التي نقلها يوسفيوس عن مانيتون، وتم كسرها على الحدود بقيادة رئيس الجند حور محب/المؤلف].

وفي الأسطورة اليونانية أصدر كرايون أمراً، بدفن الأمير الأصغر أتيوكليس بكل تبجيلٍ وقداسة، وحرّم دفن الأمير الأكبر الذي استعان على أخيه وبلاده بأعداء البلاد. ولإظهار الفارق أمام الدنيا في إعلان واضح، أقيمت طقوس جنازية عظمى ببذخ طائل للملك الصغير، بعكس الأمير الكبير الذي حُكم على جثته بأن تُترك في العراء تأكلها طيور السماء وهوامُّ الأرض، بعد خيانتته لبلاده وقومه. وقد أشرف كرايون بنفسه على تجهيز جنازة أتيوكليس الفخيمة، لكن أنتيجوني شقيقة أتيوكليس تجاهلت أمر الملك الجديد كرايون؛ لأنه يتضارب مع قوانين السماء، وقامت بدفن أخيها بولينكيس، وهي تعلم أنها ستدفع حياتها ثمناً لمجازفتها. وبالفعل أصدر كرايون قراراً بدفنها حيّة في كهفٍ صخري ليكون مقبرتها، ومعها زاد يكفي لإمدادها بالحياة، لتحيا ميتةً في مقبرتها، إلى جوار مقبرة أخيها الذي دفنته، أو أمرت بدفنه مع بعض خالصائها.

هنا نلجأ إلى آخر فقرات التقرير الذي كتبه ديفيز عن المقبرة الغامضة، والتي أخذت الرقم ٥٥ بوادي الملوك التي اكتشف في النهاية أنها كانت مقبرة سمنخ كا رع، يقول ديفيز إنه بالقرب من تلك المقبرة عثر على كهفٍ صغير هو مقبرة، به أوانٍ بيضاء كثيرة، ومعها أكواب صغيرة حمراء، ولم يُحطَّن ديفيز علماً بوجود جثّة من عدمه، لكن لو لم تكن هناك جثة ما أسماها مقبرة، بل اكتفى بكلمة «كهف» أو «مخزن»، حيث قيل إن المكان ربما كان مخزناً لرجلٍ فقير.

وعليه يرى فليكوفسكي أن هذا الكهف كان هو مدفن أنتيجوني الأسطورية، لقربه من مدفن الأخ المغضوب عليه، ولوجود أوانٍ وأكوابٍ كانت تحتوي على أطعمةٍ تكفي عدّة أشهر.

إن «تيودور ديفيز» يصف باختصارٍ بالغ اكتشاف المقبرة المخزن في أقل من صفحةٍ أضافها إلى كتابه «مقبرة الملكة تي»، وهو النشر الذي استاء له «جاردنر» بعد مرور أكثر من نصف قرنٍ حيث يقول: «إن تاريخ الحفريات في مصر يصوّر — بالإضافة إلى العمل الجليل — حلقاتٍ متصلةً من الكوارث والمصائب، وأفدح هذه المصائب تحل عندما تختفي

النتائج ولا تُنشر إطلاقاً، لكنَّ من الفادح أيضاً أن يكون النشر ناقصاً غير كامل أو غير دقيق، وهذا لسوء الحظ ما حدث في مجلد تيودور م. ديفيز.^٨

وفي عام ١٩٤١م نشر «ه. أ. وينلوك» مقالاً في سلسلة أبحاث متحف متروبوليتان بنيويورك، دوّن فيه ملاحظاته عندما كان موجوداً في طيبة المصرية عام ١٩٠٨م عند اكتشاف المقبرة المخزن، وقد شَرَح وينلوك وجهة نظره في القدور والأواني والثياب التي اكتُشفت هناك، فقال إنها بقايا وَجبة اشترك فيها بعض الناس، وإن من اشتركوا في تلك الوجبة هم مَنْ قاموا على دفن الملك توت.

والملابس التيلية التي وُجدت في الكهف تحمل ختمين لتاريخ يشير إلى آخر عام في حكم الملك توت. وهناك قطعة نسيج جذبت انتباه وينلوك طولها ٢,٤٤م وعرضها ٦١سم، وقد انتزع من كِلا جانبيها شريط طويل، والغريب أنها كانت من أفخر أنواع النسيج، لكنها كانت ملطخة ومتآكلة، وعليها علامة نُسجت تطريزاً باليد ترجمتها «ليحي الملك الطبيب نوفر»، ونوفر هو الاسم الذي حمله «سمنخ كا رع».

وبين كومة الخرق البالية ثلاثة مناديل من مناديل الرأس النسائية، وضح أنها استعملت كثيراً وُغسلت عدة مرات، وعليها بقع بفعل زيوت الجبهة، بينما استعمل أحد هذه المناديل، ولونه أزرق، كخرقة للتنظيف، حتى أنها تأكلت من كلّ اتجاه من وسطها. وكان بالكهف قدور كثيرة وأوان وكؤوس للشرب، وكلها صغيرة تماماً ولا تستخدم إلا لوجبة واحدة ولشخص واحد، كما كان هناك خمسة وستون كوباً متشابهة، وأنية نبيذ وأوراق للشراب توضع بها المياه.

ويبدو أن هذه الأواني قد رشحت المياه بغزارة، فقد تركت المياه شريطاً رقيقاً من الطين على كلّ منها، كما عُثر بين الأدوات على أربع شقافات لقنينة ملوّنة، وستين طبقاً مختلفة التصاميم والأحجام، وقد تحطّم كثير من الأطباق، وأُلقي في قدر كبير الحجم، ومن هنا رأى وينلوك أنها بقايا مأدبة، خاصة مع ما وجده في القدر الكبير الذي استخدم كصفحة قمامة من عظام حيوانات، ووجد بين العظام كتف بقرة مقطوع بسكين، كذلك وجد أربعة ضلوع لغنم أو ماعز، مع هياكل لحوالي تسع بطات، وأربع إوزات، ولم يعثر على سكين أو أي آلة حادة للتقطيع، كما عثر على ست كرونات/تيجان ورود، فهل كان يرتديها حضور المأدبة؟

^٨ .Gardiner, J.E.A., XLXXX, 1958, p. 10.

وهناك مكنستان استُعْمِلتا لكنس الرمل، عُثِر عليهما داخل الأواني، وكانتا حزمًا من أفرع الشجر، رُبِطت من وسطها بحبل، وقد رأى وينلوك أنهما كانتا لإزالة آثار الأقدام الأخيرة لضيوف المأدبة العجيبة، لكن الإشكال أنه وضح الاستخدام الكثير والمتتالي للمكنستين؛ حيث عُثِر عليهما مستهلكَتَيْن تمامًا.

وبين المحتويات كانت هناك أغطية فخارية صغيرة للأكواب بها شريط أحمر، استخدمت كمصاييح، فقد كان مجوفها الداخلي مغطى بطبقة سميكة من السناج الأسود، وبقايا جافة لزيت المصاييح، هذا إضافة لقناع صغير لامرأة صغيرة مصنوع من الجبس الملون. ومعلوم أن هذه الأقنعة كانت تُصنع للشخص أثناء حياته، وكانت خاصة بعلية القوم، وتوضع مع صاحبها عند دفنه.

وهنا يدلي فليكوفسكي بتفسيره فيقول: إن هذا المكان، وهو صومعة مساحتها ٧ × ٧ أقدام، وارتفاعها ستة أقدام، منحوتة في القشرة الصخرية بوادي الملوك. هذا المكان كان يحتله سجين رُج به فيه، وكانت المؤن واللوازم الضرورية الأخرى تصله بصفة مستمرة، وتشهد المناديل على أن السجين كان امرأة تنحدر من أصل نبيل، كما يتضح من نوع التيل؛ فقد كان أرقى بكثير من ذلك الذي استخدم في تحنيط الملك توت، وقد أمضت السجينة في هذا الكهف عدة أشهر، فقد تأكلت المناديل التي كانت تغطي الشعر والجبهة، وغُسِلت بصفة مستمرة، وقد استخدم أحدها لتنظيف المكان.

كما عُثِر على زيت النطرون، ويُحتمل أن الطعام والمياه اللازمة للشرب والغسيل، كانت تتدلى من أعلى بفتحة في السقف، وعندما كانت الأواني تملأ من الطعام لم تُنقل إلى مكان آخر، بل كان يردُ غيرها، بينما تُرمى الأطباق المستعملة في الإناء الكبير، كما أن المكانس استخدمت حتى هلكت تمامًا، كما استخدمت أغطية الأكواب كمصاييح، لتمدده بضوء خافت في ظلمة الليل، هذا ناهيك عن قناع يدل على أصل نبيل لصاحبة المقبرة. أما كرونات/تيجان الزهور؛ فيحتمل أنها كانت تدلى لها من الخارج، بواسطة شخص يحبها ويهمه أمرها. وتحكي الأسطورة اليونانية أن «هايمون» ابن «كرايون»، قد أحبَّ «أنتيجوني» حبًّا جارفًا، غير أنه لم يقوَ على إنقاذها. مَنْ كانت إذن هذه السجينة التي سُجنت على مسيرة دقيقة واحدة من قبر الملك توت، ومسافة نصف دقيقة من قبر الملك سمنخ كارع؟ مَنْ تلك التي طُرِزَت بيدها على النسيج البالي: «ليعيش الملك الجميل نوفر/سمنخ كارع»؟ لقد كان نوفر هو المطالب بالعرش، كان الأخ الأكبر الذي قُتل في معركة حاول فيها استرداد عرشه، مستعينًا بجيش من خارج البلاد.

وبعد مرور خمسين سنة على اكتشاف مقبرة «تي»، حيث توارى جثمان الملك سمنخ كا رع، كتب السير جاردنر في ديسمبر ١٩٥٧م، يؤكد أن أغنية الحب المتوارية عند قدمي الميت، قد كتبتْها أخت هذا الميت، أو زوجته التي أشارت إليه بوصفه أخاها، واعتقد «جاردنر» في البداية أن النشيد كتبته نفرتيتي تُناجي حبيبها إخناتون، لكنه غير رأيه بعد ذلك، لقد خوطب سمنخ كا رع بأنشودة حب من امرأة نادته بلفظ أخ، ومع ذلك كان التابوت تابوت إخناتون، والصندوق صندوق الملكة تي والمومياء لسمنخ كا رع.

وحاول «جنثر رويدر» البحث عن تفسير للفوضى والبعثرة في مقبرة الملك سمنخ كا رع، بشكلٍ لا يجعلها أبدًا جديرة بملك، أما «سيريل آلريد» فركّز اهتمامه على شخصية رسمت صورتها على أواني الأحشاء الموجودة في مقبرة سمنخ كا رع، ودرس لذلك أنماط تصنيف الشعر في مصر القديمة، وتعرّف على أن الطريقة المرسومة في الصورة، هي تصنيف نسائي لبنتٍ من بنات إخناتون، وأنها هي مريت آتون كبرى بنات إخناتون، وزوجة سمنخ كا رع، ومن ثم نستنتج أن كاتبة النشيد المتلاع عن قدمي سمنخ كا رع، هي عيناها مريت آتون زوجته، وأنها هي التي وهبته أواني الأحشاء الخاصة بها، والتي صُنعت من أجلها، وقد أزيل اسمها من عليها بعناية، ومن ثم تكون هي مَنْ أعدَّ هذا المدفن السري لسمنخ كا رع. لقد كانت مريت آتون هي أنتيجوني الأسطورية التي نظّمت أبيات الاشتياق، وغسلت جثة حبيبها وألبسته ثيابه، وكرّمته بسكب قربان الشراب في مقبرته، لكن دخلاء عرفوا سرَّ المقبرة، وأزالوا النقوش بقسوة وإهمال، وكسروا الصندوق بإلقائه أرضًا. هؤلاء الدخلاء كانوا جنود الملك الجديد آي، فاستخدموا ذات الختم الذي ظهر على مقبرة الملك توت، وعلى الكهف المنحوت في الصخر؛ ليكون سجنًا لشخصية من نساء القصر.

وفي مسرحية أنتيجوني التي كتبها سوفوكليس، نجد كرايون يُوفد رجاله إلى مقبرة بولينكيس، وعندما قبض على أنتيجوني وهي بجوار جثته صرخت صرخةً عالية. لقد وقعت عيناها على الجثة، وقد انتزعوا ملابسها بعد أن كانت ألبستها وكرّمتها، وخربوا ما أعدته في المقبرة، وعندما قبض عليها أصدر كرايون حكمًا عليها، بأن تحيا بقية حياتها مدفونة في كهفٍ هو مقبرتها.

وعندما نقرأ يوربيدس لا نندهش مع المندehشين من شخصية أنتيجوني، التي تحمل بجوار مشاعر الأخوة لأخيها القاتل مشاعر الحب العاشق والفاثق. انظر تأوها: «آه يا محبوبي ... دعني أطبع قبلة واحدة على شفتيك.» ومن هنا اتُّهمت أنتيجوني في تعليق

قديم على هذا النص اليوناني، أنها كانت تمارس مع أخيها علاقات سرية قوية؛ لأن اليونان كانوا لا يتزوجون أخواتهم.

وعندما حكم كرايون على أنتيجوني بالموت البطيء، وأصرَّ على تدنيس جثة المتوفي بعدم دفنه. كان تصرفه وحشية استدعت تدخل العراف «تيرياس» ليقول:

لقد ألقيت بأبناء الشمس والضوء في الظلام وعالم الأشباح، إذ دفنت بوقاحة روحاً حية في قبرها، على حين تُلقى على وجه الأرض، جثة تخص آلهة العالم السفلي، جثة لم تُدفن أو تُكرم، بل نال منها الدنس والمهانة.

ثم حذّره أن ذلك خرق لقوانين الآلهة، ويوجب الشقاء على الدولة، فيُهين كرايون العراف العجوز، ويتهمة بالارتشاء للعمل ضده، لكن قول تيرياس أزعج كرايون فعلاً، وجعله يخشى غضب الآلهة أو الناس، فقام يأمر بدفن الميت وإطلاق سراح الفتاة من غرفتها الصخرية. لكن القرار جاء متأخراً؛ إذ شُنقت الفتاة نفسها بحبل من التيل الفاخر، وهنا ينبهنا فليكوفسكي كي نتذكر شرائط التيل الغالي الطويلة، التي مُزّقت من جانبي قطعة القماش الفاخرة في المقبرة الكهفية في طيبة المصرية.

وفي العام الثاني عشر من حكم إخناتون، بلغت تي أوج نفوذها وسلطانها، وفجأةً تختفي تي ولا نعرث لها على مومياء، ونجد ابنها سمنخ كا رع في تابوتها، في قبر قريب من قبر أبويها يويا وتويا، لكنه قبر حقير لا يليق أصلاً بملكة، فلماذا تُلقي ملكة عظيمة مثل تلك المعاملة الخسيسة؟ وكل ما عثرنا عليه هو خصلة من شعرها، مع ملحوظة تشير إلى أن هذه الخصلة تخصّها، وقد وُجدت في مقبرة توت عنخ آمون وليس في مقبرتها.

أما الأسطورة الإغريقية فتؤكد أن يوكاستا أنهت حياتها بيدها، والانتحار لدى كل الشعوب يحرم المنتحر من التكريم الذي يستحقه الموتى، عدا الموت فداءً لقضية كبرى تخص الأمة، وربما ذلك ما حدث للملكة تي، فلم تُمنح قبراً بل أُخفيت جثتها، بعد أن ارتكبت في نظر المصريين خطيئة لا تُغتفر، بعد أن انتزعت حياتها بيدها، وبعد أن عاشت في علاقة جسدية محرّمة مع ولدها، فأزيل اسم ابنها الذي هو زوجها مع صورته عن الألواح الذهبية، وكُتب مكانه اسم زوجها الأول بالحبر، ولم يتم دفنها إلى جوار زوجها آمنحبت الثالث لهذا السبب، إنما دفنت في المقبرة الحقيرة التي أُعدت لها، وبعد عودة سيادة آمون انتزعوا تي من الصندوق، وحملوه إلى مدفن مجهول.

المفترض أن يكون هذا هو سيناريو الأحداث، إذا أخذنا التفسير من الأسطورة اليونانية، لكن يوكاستا انتحرت؛ لأنها فوجئت بمعرفة أن زوجها هو ولدها أوديب، فلماذا

تنتحر تي وهي من الأصل تعلم يقيناً أن زوجها هو ولدها إخناتون؟ هناك وجهة نظر أخرى جاءت عن يوربيدس، فهو يجعل يوكاستا تعيش حتى تشهد الحرب بين ولديها، ثم تنتحر عندما تقع عيناها على جسديهما القتيلين.

والغريب في عادات الشعوب أن ما يتخلف عن المنتحر من ممتلكات يُعدُّ مجلبة للخط، وهو ما يفسر لنا وجود خصلة من شعرها في مقبرة الملك توت، ويوربيدس يجعل يوكاستا تقص شعرها وهي تقول: «إني أقص خصلات شعري الفضية، وأتركها تسقط مع الدمع الغزير، لأظهر حزني ومرارتي».

أما أوديب فقد تم نفيه أعمى، وصحبته لترعاه ابنته أنتيجوني، وفي الأحداث المصرية يمكن أن تكون التي صحبت أباه إخناتون في منفاه هي بكتاتن، فشاركته أيضاً مذلتة وهوانه؛ لأنها ثمة زواجه بأمه، لأنه محال — في رأي فليكوفسكي — أن تكون نفس الأميرة التي دفنت أخيها دفنت بعده حيّة، هي ذات الأميرة التي صاحبت أباه في منفاه؛ إذ لا بد أن الدورين اللذين قامت بهما أنتيجوني في الأسطورة، قد قامت بهما ابنتان مختلفتان لإخناتون، وكان إسناد العملين الجليلين في مسرحيات سوفكليس إلى أنتيجوني وحدها سبباً في تعقيد فكرة المسرحية وصعوبة فهمها، هذا بينما تحول أوديب بعد توبته العظمى وفَقَّ عينيه ندماً إلى شخصٍ مبارك، يبارك أي موضع يطؤه؛ لذلك يهب رُفاته لشعب بلدة «كولونا»؛ لتحل عليهم البركات الإلهية، وبذلك بارك كل أراضي إقليم «أتিকা» قرب أثينا.

وسوفوكليس تحديداً هو من تحدث عن أوديب الذي أصبح كهلاً عجوزاً هائماً على وجهه، تبارك خطواته كل أرض يطؤها، حتى يلجأ إلى محراب الإلهة ديمتر ليموت هناك، لكن ليستمر جواً جواً حتى بعد مماته في روح هائمة مباركة، وقد نُسب إلى كلٍّ من إخناتون وأوديب نفس مدتي الحكم المختلفتين، فهناك تقدير بحكم استمر ستة عشر عاماً، وتقدير آخر بحكم استمر بعد ذلك أربعة أعوام أخرى، أي حكم عشرين عاماً، ويحتمل أن التقدير الثاني أخذ باعتباره المدة التي قضاها إخناتون أو أوديب في بلاده كملكٍ مخلوع، وإذا كان «كارتر» و«دردير» والجراح «دري» قد ذهبوا إلى أن سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، هما ولدا إخناتون وليسوا أشقاء من أبيه آمنحتب الثالث، فمحتمل أن يكونا ولدين للملكة تي، وشقيقين للأميرة بكتاتن.

المهم أن «آي» تخلص من الصبيين الملكيين وترجع على عرش مصر، وكي يتربع على هذا العرش كان لا بد أن يتزوج أميرة من البيت المالِك، فتزوج من أرملة توت ابنة إخناتون

(عنخ إس إن با آتون)، التي تحول اسمها إلى «عنخ إس إن با آمن»، وفي يوربيدس نجد كرايون يجلس على العرش، ليس بوصفه شقيقاً لزوجته الملك، إنما بوصفه زوجاً لبنت أوديب، وهو ليس تقليدًا يونانيًا بل مصريًا، ويبدو أن العنف الذي مارسه ضد ميريتاتن، كان بهدف الحيلولة دون ظهور أي منافس على العرش.

ويرى فليكو فسكي أن أي هو والد نفرتيتي، وأنه قد أنجب نفرتيتي من زيجة مبكرة، وقد ماتت زوجته الأولى هذه، كما أوضح ألدريد وغيره، ثم تربت نفرتيتي وترعرعت تحت إشراف تاي زوجته الثانية، ومن ثم أغدق على تاي لقب «مربية الملكة».^٩

وقد رُسمت تاي زوجة أي في المقبرة الناقصة في أخت آتون، تقف بجوار زوجها أي أمام الزوجين الملكيين، وتصفها النقوش باللقب «مربية الملكة»، وكان اسم تاي زوجة أي الثانية هو نفس اسم تي شقيقته الملكة، ويكتب في اللغات الحديثة بفارق بسيط للفرقة بينهما ليس إلا.

ويوربيدس يجعل هايمون ابن كرايون يقول لأبيه: سوف أذهب إلى أختك يوكاستا، فقد أرضعتني من ثديها عندما حُرمت عناية أمي، وتركت طفلًا يتيماً وحيداً. ويخبرنا التاريخ أن الزوجة الأولى لكرايون/أي، قد ماتت صغيرة، فتزوج أي امرأة أخرى تحمل اسم شقيقته الملكة، قامت على تربية أطفاله اليتامى، أما في الأسطورة اليونانية فكانت الملكة نفسها هي من ربّت أبناء أخيها اليتامى، والغريب في الأسطورة أن تقوم ملكة على خدمة أبناء ليسوا أبناءها، غير أن هذه الغرابة تتبدد بظهور الحقيقة التاريخية، وهو أن الملكة تي زوجة أي = الملكة تي وزوجة أي، المعروفة باسم تاي، كانتا تحملان الاسم ذاته، فحدث هذا الخلط بين الشخصيتين في الرواية اليونانية.

ونحن نعلم أن المقبرة التي دُفن فيها توت عنخ آمون، كانت في الأصل مبنية من أجل أي بأمر زوج شقيقته تي، الفرعون آمنحتب الثالث، وانتوى أي أن يجعل هذا المدفن الزاخر بالثراء مثواه الأخير، لكنه كان من نصيب الملك توت، إلا أن الملك أي لم يمُت في سلام، فقد عمّت الفوضى البلاد، وبعد موته استمتع بعضهم بتدمير مقبرة أي التي دُفن فيها بالفعل تدميرًا عنيفًا، ومحو النقوش واللوحات من على الحوائط بعنف، يشير إلى رغبة في الانتقام، وبذلك تحققت نبوءة العراف الأعمى، ففي مسرحية أنتيجوني يتنبأ تيرياس بأن كرايون، سيلحقه العار والتدنيس بعد مماته، بعدما فعله بابن أوديب، ويرى

^٩ Weigall, The Life and Times of Akhenaten, Aldred, J.E.A., XLIII, 1957

فليكوفسكي أن هؤلاء الذين دمروا مقبرة أي، كانوا غزاة أغراب، فالأسطورة اليونانية تقول إنه بعد انهزام الأبطال السبعة أمام أبواب طيبة، جاءت سلالتهم (الأييجوني) ليزحفوا على طيبة مرة أخرى ليدمروها، وهم من جاء بهم «في حقل الأحداث المصري» سمنخ كا رع، ليساعده على استرداد عرشه.

إن الأصل المصري للأسطورة اليونانية يتضح من تركيز الأسطورة على مشكلة دفن الجثة، التي تحتل المكانة الأولى في فكرة المسرحية، وهذا الانشغال الدائم بالمشوى الأخير ظاهرة مصرية لا يونانية، فموضوع مسرحية أوديب في كولونا ومسرحية أنتيجوني ومسرحية سبعة ضد طيبة، كلها تدور حول دفن الموتى. وفي رواية سوفوكليس يصير أوديب على أن تتوارى مقبرته عن الأعين، وتظل سرًا لا يعرفه سوى ملك أرض أتيكا، وهو تصرف الملوك المصريين لإخفاء مقابرهم، كما أن كهف أنتيجوني المحفور في الصخر ليس يونانيًا؛ لأن اليونان كانوا يحرقون موتاهم في الغالب، أو يدفنونهم في الأرض، لكنهم لا يحفرون لهم مقابر صخرية.

وقبل نشوب حرب طروادة، كانت هناك حركة نشيطة وتبادل تجاري بين مصر والجزر اليونانية، فقد تم العثور على كميات هائلة من الفخار الميسيني في طيبة المصرية إبان حكم أمنحتب الثالث، كذلك في تل العمارنة، وفي ميسينا تم الكشف عن بضائع مصرية من زمن أمنحتب الثالث، ومنها جعران باسم الملكة تي، بل وتم تقليد نقوش المقابر المصرية في مقابر ميسيسنا وأوركومينوس. وعثر في بيوتيا على جعران يحمل صورة أبي هول مجنح، كذلك وجدت آثار مصرية كثيرة في أثينا في إقليم أتيكا، ومعلوم أن اليونان هم من أطلق على مدينة «واست/الأقصر» اسم طيبة، ويحتمل أن كادموس مؤسس مدينة سهل بيوتيا (طيبة اليونانية)، الذي وفد إليها قادمًا من فينيقيا، كان معاصرًا لتلك الأحداث.

وربما كان هو نكميد ملك أوجاريت، الذي عاش زمن مراسلات العمارنة، والأساطير تقول إنه قد أحضر معه إلى البلاد اليونانية زوجة تدعى سفنكس كانت أميرة مصرية، وكانت طيبة المصرية أيام نكميد أعظم مدن العالم، ولا شك أن المأساة التي حدثت في بلاطها لم تكن سرًا، ويحتمل أن يكون الذين طردوا مع نكميد وأسسوا طيبة اليونانية، كانوا أول من سرد تلك الأحداث الفاجعة.

ونلاحظ أن مسرحية يوربيدس عن العائلة الملكية في طيبة اليونانية حملت اسم «الفينيقيات»؛ لأن الجوقة كانت تتكوّن من نساء فينيقيات يتكلمن ويُحْن بالسر لأبطال المسرحية والمشاهدين؛ فلماذا تظهر جوقة فينيقيات في تراجيديا يونانية؟

وسوفوكليس تندُّ عنه عبارة تفصح عن معرفته للمكان الأصلي للأحداث، فبينما أوديب يتكلم عن ولديه بولينكيس وأتيوكليس يصرخ قائلاً: «يا إلهي إنهما يظهران صورة صادقة لوسائل مصر وطبائعها في روحهما وحياتهما» (عن مسرحية أوديب في كولونا)، ثم يشير سوفوكليس مرتين إلى طيبة اليونانية باعتبارها «المدينة الزاخرة بالعربات الحربية»، وهي صفة تنطبق أكثر على طيبة المصرية التي ذكرها هوميروس على لسان إسخيليوس، وهو يقول: إنها ذات مائة باب، أمام كل باب تقف على استعدادٍ مائتا عربة حربية، وفي عالم هوميروس السفلي في الكتاب الحادي عشر من الأوديسا، صورة مصرية تمامًا، فهو عالم تحت أرضي تحتله شعوب شرقية، وبعضها من أصولٍ فينيقية، بينما كان الاعتقاد اليوناني فيما بعد الموت أن الأرواح تهيم على وجهها كظلالٍ وأشباح بدون مصير واضح، وهو ما نجده في حال موتى الحرب الطروادية مثلاً.

ولا ينسى فليكوفسكي أن يحط من قدر «فرويد»، لتجرُّئه على شخص موسى وعلى شعب الله المختار، وتبجيله إخناتون تبجيلًا عظيمًا، ليقول بالنص عن كتاب فرويد:

هذا الكتاب ليس سوى إنقاص لقدرة موسى والخط من شأنه، فقد حطَّ فرويد من شأن موسى عندما أنكر أصالته (أي أصالة انتسابه لبني إسرائيل/ المؤلف)، وحرمه إياها، كما هاجم شعب اليهود عندما حرّمهم زعيمًا يقود جنسهم؛ إذ جعل موسى مصريًا، وفي النهاية قلَّل من شأن إله اليهود، عندما جعل من يهوه معبودًا محليًا، أو مجرد روح شريرة تسكن جبل سيناء. لقد كان فرويد وهو على أهبة الرحيل من حياة طال أمدها، يريد أن يلعن إله اليهود ويحط من شأن نبيه، على حين يمجّد مرتدًا مصريًا معتبرًا إياه مؤسسًا لدينٍ عظيم الشأن.

هذا بينما يرى فليكوفسكي، وهو يقلب التاريخ رأسًا على عقب في بقية أعماله، أن موسى كان سابقًا على إخناتون بزمانٍ طويل، أما إخناتون نفسه فليس بمستحق لكل ما لاقاه من احترام، فهو لم يكن سوى الأصل لقصة أوديب الفاجعة، بل كان أسوأ شأنًا من أوديب، عندما ارتكب جريمته وهو يعلم ماذا يفعل.^{١٠}

^{١٠} هذا موجز لما قدمه إيمانويل فليكوفسكي في كتابه: إخناتون وأوديب ... سبق ذكره.

الباب الثالث

إخنا تون وموسى وأوڊب حسب نظريتنا

الفصل الأول

الثلاثة × واحد

فرويد العالم النفسي الأشهر أقام على أسطورة أوديب سرّ عقدة نفسية تأسيسية هي عقدة أوديب، التي تُعدّ العماد الأول والأعظم للنظرية الفرويدية في التحليل النفسي، ومن جانب آخر كان فرويد من المهتمين بالفرعون إخناتون، وكان إخناتون عمدة كتابه «موسى والتوحيد»، ومع ذلك أبدًا — رغم عبقريته الفذة — لم يربط بين الشخصين: أوديب وإخناتون، وهو الدرس الذي وعاه فليكوفسكي بقدرة عالية الجودة، ونعاه في الوقت ذاته على فرويد، ووجه له بهذه المناسبة تقريبًا شديدًا لعدم إدراكه أن الشخصين (أوديب وإخناتون) إنما كانا شخصًا واحدًا، وربما كان سرّ التقرّيع هو أن فرويد سلب موسى اكتشافه لعقيدة التوحيد ونسبها لإخناتون، بل جعل من موسى مصريًا وليس إسرائيليًا، ثم جعله لا يرقى أبدًا إلى عظمة أستاذه إخناتون، بينما كان همّ فليكوفسكي هو العثور على كل ما يؤيد العقيدة اليهودية وكتابها المقدّس، في وثائق التاريخ القديم على أصنافه وفروعه المتعددة والمعقدة. ويبدو أن لقيته الكبرى كانت في اكتشافه المذهل، والمدعم بشكل كافٍ أن أوديبوس اليوناني، ليس سوى نسخة يونانية صيغت في تراجيديات مسرحية، عن أصل حقيقي في حقل أحداث واقعي تم في مصر، أيام حكم أسرة الملوك الكفرة في زمن العمارنة. ويبدو أنه قد قنع من ذلك بأن إخناتون لا يستحق المرتبة التي ينزله فيها الباحثون بإجلال وتقديس مفرط، فهو شخص مطعون في نسبه، وفي نسب أولاده، ابن رجل شاذ ملعون، جلب اللعنة على بيته وبلاده، ارتكب أعظم جرم بزواجه من أمه وبناته، وربما كان مجنونًا مخرّفًا بسبب مرضه. وهكذا قدّر الرجل فيما اكتشفه إعادة الاعتبار لموسى التوراتي، بتهميش إخناتون المصري واستبعاده، اعتمادًا على أحكام حس خلقي يختلف اليوم عن حس تلك الأزمان.

لكن هناك كشف آخر ينطلق من ذات فكرة فرويد، نجده عند أحمد عثمان، وهو أن موسى كان بالجنس والميلاد مصرياً، لكنه لا يربط بين أوديب وإخناتون، لكن بين موسى وإخناتون، ويوعز لنا عن بُعد أن موسى كان هو ذات شخص إخناتون بعد سقوطه عن عرشه. وحتى يُوصل ذلك للقارئ — دون مؤاخذات من رجال الدين المتشددين — يعمد إلى التلميح لا التصريح، فهو مثلاً يسرّب لنا أخباراً تاريخية عن النبي موسى، تلتقي مع ما حدث من أحداث للفرعون إخناتون، وذلك مثل قوله: «وتقول قصة التلمود — وهو كتاب تفسير عند اليهود — أن موسى بعد أن قتل المصري، وقبل أن يذهب إلى سيناء، أصبح قائداً للجيش المصرية، وقاد المعارك منتصراً ضد أعداء مصر، ثم أصبح بعد ذلك ملكاً في منطقة في جنوب مصر، ووضع التاج على رأسه، وحكم موسى بالعدل والقسطاس، لكن أهل البلاد تأمروا عليه بعد ذلك، فاضطر إلى التنازل عن العرش لابن الملكة، وهرب هو إلى أرض مديان التي في سيناء. ونحن نعرف أن قبائل مديان كانت تسكن حول خليج العقبة، سواء داخل سيناء أو خارجها في شمال الحجاز. ولكن المنطقة المقصودة هنا هي التي تقع بالقرب من جبل سيناء عند دير سانت كاترين الحالي، وكان المصريون يسمون سكان سيناء شاسو، وعاش موسى سنواتٍ عدة في منفاه مع أهل مديان، الذين صاهرهم قبل أن يحين موعد عودته.»^١

ومعلوم أن قائد الجيوش عادة ما يكون أحد أعضاء الأسر المصرية المالكة، وغالباً ما كان هو الفرعون بنفسه إلا في حالاتٍ نادرة، وما يؤكد أنه من الأسرة المصرية المالكة، أنه قد أصبح ملكاً في جنوب مصر، وجنوب مصر حيث مركز الحكم هو طيبة، عاصمة الإمبراطورية المصرية. وأوردت القصة التلمودية أنه تزوج من ملكة تُسمى آدونيت، وعلينا هنا أن نلاحظ أن آدونيت مؤنث آدون، فهي مثله البعلة أو السيدة أو الربّة، وهو ما يعني أن الآدون الذكر كان هو موسى بنفسه — وبفرض عثمان — هو إخناتون أيضاً بنفسه، ونحن نتذكر أن إخناتون كان يطلب التوجه إليه هو شخصياً مباشرة بالعبادة، وما تلا ذلك من تأمر أهل البلد عليه وإجباره على التنازل عن عرشه، يلتقي مع ما حدث لإخناتون من تأمر كهنة آمون والعسكر ضده وعزله، أما فكرة إجبار إخناتون للتنازل عن عرشه، فهي فكرة أحمد عثمان الذي يرى أنها تلتقي مع خبر التلمود، فخير التلمود يملأ لنا

^١ أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٥٣، ٥٤.

الفراغ في القصة التاريخية، التي لم نعثر عليها حول مصير إخناتون، الذي اختفى من على صفحات التاريخ فجأة، دون أي دليل يشير إلى ذلك المصير. وهكذا يفسر عثمان بالتلمود السبب وراء هروب موسى إلى مديان، في قصة التوراة. وسبق لنا القول بأن إخناتون قد رُبي عند أهل ميتاني/مديان أخواله، حتى عاد إلى مصر يافعاً ليتسلم عرشه.

لكن القول بخروج الإسرائيليين زمن إخناتون وبقيادته باعتباره موسى النبي، سيتضارب مع حقيقة أكدتها التوراة وأكدها التاريخ، وهي أن الإسرائيليين قد استعبدوا في بناء مدينة باسم رمسيس، والمؤكد أنها لا بد تنسب إلى أحد الرعامسة، بعد زمن إخناتون بزمن، وقد تم اختيار رمسيس الثاني ليكون سيداً لهذه المدينة وصاحباً لها تحمل اسمه، باعتبار لوح ابنه مرنبتاح الذي يقول أنه دمر بذرة إسرائيل، واحتسب رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد وابنه مرنبتاح فرعون الخروج؛ لذلك حلَّ عثمان المشكلة بقوله بقدّم تلك المدينة، وقَدّم اسمها رمسيس عن زمن الرعامسة، وأنها لم تكتسب اسم رمسيس من نسبتها للفرعون رمسيس الثاني، إنما لأنها كانت زمن إخناتون تحت إمرة قائد جيش إخناتون، الذي يحمل اسم رمسيس أيضاً، وهو الذي أصبح رمسيس الأول مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، وقد أنشأ بهذه المدينة زمن آمنحتب الثالث والد إخناتون قصرًا صيفيًا للعائلة المالكة، وأنها لا بد تقع قرب مدينة الحدود المصرية «زارو» أو «شارو» أو «شور»، التي يظن أحمد عثمان أنها مدينة القنطرة الحالية، حسبما وضعها المؤرخون على الخرائط الظنية.

وحتى يستكمل عثمان بناءه الافتراضي، يعود إلى مانيتو المصري، ويكتب: «مانيتو ... جعل أتباع موسى مصريين وليسوا أجانب. وهو يقول: «إن الملك المصري جمع عددًا من المصريين، من أتباع أوزيريس الذي غير اسمه بعد ذلك وجعله موسى، ووضعهم في المحاجر حيث أوكّل إليهم القيام، بأعمال تكسير الحجارة الشاقة عقابًا لهم. وبلغ عدد هؤلاء ٨٠ ألفًا من بينهم أناس من المتعلمين، ومن الكهنة من الذين أسماهم موبوئين؛ لأنهم ما كانوا يحترمون الحيوانات التي يقدسها باقي المصريين، بل كانوا يذبحونها ويأكلونها، ثم جمع كل هؤلاء ووضعهم في نفس المدينة أواريس، التي كانت عاصمة الهكسوس من قبل، وهناك انضم إليهم عددٌ من الآسيويين، وأصبحوا يهددون أمن البلاد إلى أن تم طردهم.»^٢

^٢ نفسه، ج ١، ص ٧٩، ٨٠.



شكل رقم «٢١٨»: مومياء رمسيس الثاني.

هذه في رأينا أهم الإفصاحات الخجولة لأحمد عثمان الحذر فيما وصلنا من أعماله، وفيها يهجس الرجل بأن موسى كان هو إخناتون بشحمه ولحمه، بعد سقوطه عن العرش ونفيه — حسب نظريته — إلى سراييط الخادم قرب كاترين بسيناء، حيث سيصبح هو موسى عندما يعود لمواجهة الحاكم الفرعون، الذي لا بد أن يكون في تلك الحال حور محب بعد أن أصبح فرعوناً، كما أن إخناتون/موسى هو ذات أوزرسييف الذي تحدث عنه يوسفوس، نقلًا عن المصري مانيتو، وأن الخارجين من مصر بقيادة موسى؛ كان فريق كبير منهم مصريًا، وفريق آخر إسرائيليًا من بقايا الهكسوس الأسرى، وأن الخروج لم يحدث زمن مرنبتاح ابن رمسيس الثاني، أو زمن والده رمسيس الثاني، إنما حدث زمن حور محب تحديدًا. وكان قائد هذا الخروج هو إخناتون نفسه، بعد سقوطه عن العرش. الرجل شديد الحصافة يترك لقارئٍ أريب الوصولَ إلى ما يريد أن يقول، ربما خوف التحريمات الدينية في بلادنا بهذا الشأن، ومن جانبنا كنا قد وصلنا إلى أن موسى ربما كان إخناتون نفسه قبل سنوات طويلة من الآن، منذ بدأنا جمع المادة العلمية لبحثنا. وقد أعلننا عن هذا الظن في أكثر من منتدًى ثقافي مفتوح، لكن ذلك لا يعني سوى أن عثمان قد وضع يده على الظن ذاته، وأقام له السيناريو اللازم والنظرية، وأنه سبق إلى إعلانهِ منشورًا في



شكل رقم «٢١٩»: مومياء الفرعون مرنبتاح ابن رمسيس الثاني.

كتاب، هنا فقط نقطة اللقاء، لكن نقطة البداية للوصول إلى هذه الفكرة المركزية تختلف تمامًا، فكل ما كتبنا حتى الآن كان محطات ممهّدة للوصول إلى هذه الفكرة المركزية، ثم بعد هذه النقطة المركزية أتباع حثيثًا عن عثمان، لأعود لاستكمال أطروحتي.

من بعد تلك النقطة المركزية يختلف الأمر اختلافًا كليًا عن تصورات عثمان بهذا الشأن كما سيرى قارئنا الآن، لكن إذا كان ظننا كذلك، فإنه يعني أن أوديب هو إخناتون هو موسى النبي التوراتي، شخص واحد في ثلاث روايات مختلفة، شخص مصري معلوم الشأن هو إخناتون في روايةٍ مصرية حقيقية، وشخص يوناني هو أوديب في تراجيديا يونانية، وشخص إسرائيلي هو موسى في روايةٍ عبرية مقدسة.

إن فليكو فسكي الذي نعى على فرويد عدم النِّقاطه لأوديب باعتباره إخناتون، لم يلتقط بدوره، ورغم اهتمامه بالشخصيات الثلاث، أن من الممكن أن يكون إخناتون هو موسى أيضاً، ولم يلتقط أحمد عثمان بدوره أنه من الممكن أن يكون إخناتون هو ذات أوديب.

لقد كان قائد الخروج من مصر هو الفرعون «إخناتون» بذاته، وهو من عرفت اليونان قصته باسم «أوديب»، وهو ذاته ما دونت التوراة في قصتها الكبرى اسمه «موسى». وهذا ما سنحاول أن نقيم عليه الأدلة من الآن وحتى نهاية هذا البحث، ومهدنا له بكل الجهد السالف عبر سنوات من المشقة والعنت.

لكن هنا سيطفر السؤال المستغرب: كيف وصلت قصة الفرعون المارق إلى بلاد اليونان بهذا التدقيق المدهش؟ لقد قال فليكو فسكي إجابته، لكن لنا هنا إجابة أخرى. للإجابة نبحث وننقب، فنعثر على أول العلامات الشاهدة على معرفة بلاد اليونان بقصة الخروج الإسرائيلي من مصر، بل الشاهدة على علاقات أوثق وأمتن من مجرد السمع بالقصة بين اليونان وبين الخارجين من مصر. هو رسالة الملك اليوناني أريوس ملك لاكيدايمونيا إلى كبير أحرار اليهود في زمانه أريوس أونياس، تؤكد أن هناك أصلاً جنسياً مشتركاً لبعض أمم الإغريق والإسرائيليين، وقد جاءت هذه الرسالة عند المؤرخ اليهودي «يوسفوس»، قال إنها دُوتت في صفحةٍ مربعة الشكل، وتحمل خاتماً يصور نسرًا يصارع ثعباناً، وهي كما ذكرها بالنص كالاتي:

من ملك الإسرطيين (أهل لاكيدايمونيا) إلى أريوس إويناس: تحية وسلاماً

حدث أن وجدت في بعض النقوش أن اليهود وأهل لاكيدايمونيا ينتمون إلى جنس واحد، وأن الأخيرين ليسوا بغرباء على نسل إبراهيم (إبراهيم الخليل)؛ لذلك فمن الأوفق ما دمنّا إخوة أن نُطلعونا على كل ما ترغبون فيه، ونحن من جانبنا سنفعل الشيء ذاته، ولسوف نعتبر شئونكم مثل شئونا سواء بسواء، وبالمثل سوف تكون بيننا وبينكم علاقات مشتركة، وإن ديموتيليس الذي يحمل هذه الرسالة، هو الذي سيقوم بحمل رسائلنا.

ويزعم العالم الجليل «دي بوا إيميه»، رفيق علماء الحملة الفرنسية الأشهر، أنه زمن خروج بني إسرائيل من مصر ظهرت فجأة في بلاد اليونان، مستعمرات جديدة تماماً على بلاد الإغريق، ثم يستنتج من جانبه استنتاجاً تفرّد به يقول باحتمال أن يكون مؤسسي

تلك المدن الجديدة في بلاد اليونان، كانوا من الهكسوس وبقية أحلافهم الرعاة القدماء الذين خرجوا من مصر، وكانت لهؤلاء الجدد باليونان عادات ومعتقدات، تتشابه إلى حد بعيد مع عادات ومعتقدات خليط من المصرية والفينيقية.^٣ ثم لا شك سنتذكر هنا على الفور عبارة بليني السريعة الشاردة التي تقول:

إن المعينيين كما يتضح من اسمهم يرجعون إلى مينوس ملك كريت.^٤

وهي الإشارة التي سبق واستنتجنا منها أن المينويين الذين أسسوا الحضارة المعروفة باسمهم في الجزر اليونانية كانوا معينيين من مركز البدو التجاري في وادي غرية، نقلوا حضارة منطقتهم إلى بلاد اليونان، وأن ذلك قد حدث ربما زمن الهكسوس، الذين كانوا ينقلون نخبًا من شعوب تحت ظل حكمهم الإمبراطوري إلى مواضع أخرى بعيدة على التبادل، ونحن نعلم أن المعينيين أو المعانيين كانوا فريقًا ضمن الأخلامو في بلاد آدوم. وهنا حان موعد الاحتمال الثاني لتفسير علاقة الحضارة المينوية بالمعينية، وهو انفصال فريق من الخارجين من مصر اتجه إلى بلاد اليونان، ليستقر وينشئ حضارة خاصة هناك. واحتمال الانفصال نتيجة انشقاق بين الخارجين أصبح أمرًا مؤكدًا، حيث حدث خلاف عقائدي عند جبل الله حوريب بسيناء، بين عبدة الأدون أو السيد أو الله ممثلًا في ثور الخصب، وبين عبده باعتباره الأدون أو السيد الأعلى فوق جميع الأرباب، وهو الانشقاق الذي سيأتي الحديث عنه تفصيلًا في موضعه من هذا البحث، والذي أدى إلى معارك دموية بين فصائل الخارجين وبين حلفائهم الذين سبق خروجهم مطرودين أو الهكسوس، انتهت إلى انقسامهم فرقًا، منهم من اتجه نحو بلاد الحجاز ومنهم من اتجه نحو بلاد اليونان، ومنهم الذين انتصروا في الصراع وفرضوا عقيدتهم، وهم من استمروا في اتجاههم نحو فلسطين، ليعبروا الأردن ويقيموا شمالي فلسطين، بينما كان الفرع اليهودي الهكسوسي قد احتل جنوبها منذ قرنين من الزمان. ومع أولئك الذين اتجهوا نحو اليونان، انتقلت قصة الفرعون المارق الذي تزوج أمه وسقط عن عرشه، لكن باسم أوديب، بينما نقل المنتصرون ذات القصة إلى فلسطين، لكن بطلها حمل اسمًا آخر هو «موسى».

^٣ دي يوا يمييه ... سبق ذكره، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

^٤ مظفر نادوثي، التاريخ الجغرافي ... سبق ذكره ص ٢١١.

ويعتمد عبقري الحملة الفرنسية «دي بوا إيميه» في مصادره التاريخية فقط على مصدرين؛ الكتاب المقدس، وتاريخ يوسفوس؛ لأن الرجل كان يخوض تلك المناطق الشائكة المعقدة قبل فك رموز الهيروغليفية، فلم تتوفر له المصادر التاريخية الأركيولوجية التي توفّرت لنا الآن، فيعود إلى قصة يوسفوس التي نقلها عن المؤرخ المصري مانيتون، التي تتحدث عن فتنة كاهن عين شمس المصري «أوزرسيف»، وكيف استعان هذا الكاهن وبعض أتباعه، الذين يصفهم التاريخ المصري بالمصريين الفاسدين، بالإسرائيليين الموجودين بمصر، وبفلول الرعاة الهكسوس المطرودين من مصر، والذين تمركزوا بعد طردهم حول أورشليم بفلسطين، وكان ذلك زمن فرعون باسم أمnofيس أي آمنحتب. وبدلاً من أن يقوم الفرعون وجيشه بصد الهجمة الهكسوسية الثانية وتأديب أوزرسيف، رحل برجاله جنوباً إلى إثيوبيا بعد أن تراءت له بعض المخاوف الأسطورية؛ لأنه كان لا يؤمن بالحروب بين الناس، بعد أن سمح لهؤلاء المارقين باحتلال إقليم جاسان على الحدود بين دلتا مصر وسيناء.

ويقول دي بوا إيميه: إن أوزرسيف قد أعطى هذه الألوف من المنشقين المصريين ومن القوم الرعاة ديانة خاصة، كانت خليطاً بين ديانتَي الشعبين بالضرورة. وينقل عنه الباحث غطاس الخشبة قوله: «وأمر أوزرسيف هؤلاء ألا يتصاهروا إلا فيما بينهم، ولكي يحول دون أي صلح بين هؤلاء وبين المصريين، أوعز لهم بهدم وتشويه تماثيل الآلهة المصرية. وكانت النتيجة للاضطهادات الدينية والحروب والثورات أن عدداً كبيراً من العائلات أخذت تبحث لنفسها ومعها آلهتها عن موطن جديد. ويبدو أن هذا الوقت هو الفترة التي يحتمل فيها أن مستعمرات عديدة نشأت خلالها في بلاد الإغريق. فإن رأى البعض أن هذه الديانة ليست هي تماماً الديانة المصرية القديمة، فإننا نضطر هنا إلى الظن بأن مؤسسيها كانوا من هؤلاء الرعاة القدماء، الذين لم يعتنقوا جميعاً معتقدات أوزرسيف، بل كانت لهم بالضرورة في عاداتهم أوجه شبه مع الفينيقيين والمصريين، وإذا لم يكن كتاب آريوس ملك لاكيدا يمونيا إلى أويناس كبير أحبار اليهود مزيفاً؛ فإنه يأتي كي يدعم هذا الرأي الذي يُعطي للعبرانيين وبعض أمم الإغريق أصلاً مشتركاً. وأخيراً فإن علينا أن نجعل مولد موسى يتم في عهد أمينوفيس (آمنحتب) هذا، وأن نضع فيه أول الاضطهادات التي لحقت بالعبرانيين كما تشير إليه التوراة.»^٥

^٥ الخشبة، رحلة ... سبق ذكره، ص ٢٢٦.

وذكرنا هنا «أنتا ديوب» بروايات اليونانيين عن «كادموس»، الذي جاء إلى جزر اليونان وافداً، وكيف أدخل الكتابة والأبجدية إلى بلاد اليونان، وأنه ربما كان من أصول فينيقية، وأنه وفقاً لذات الروايات اليونانية، نجد «كيركروبس» يأتي من الشرق ليستقر في أتيكه، ويأتي «داناوس» أخو «إيجوبتوس/أي المصري»، ليستقر في أرجوليس حيث علم الإغريق الزراعة والتعدين عمومًا، وتعدين الحديد خصوصًا. والذكريات اليونانية في هذه المرحلة، تحدثنا عن ثقافةٍ مصرية فينيقية تصل بلاد اليونان، وتقيم هناك أصولها الحضارية، ثم لا ينسى «أنتاديوب» أن يذكرنا أن أصول الأبطال الفينيقيين التاريخية، الذين هبطوا على بلاد اليونان، كان مهدهم الأصلي يقع «على الحدود مع مصر»، حسبما قررت نصوص أوغاريت. وبالتحديد فإن هؤلاء «الأبطال الوطنيين والأسلاف كانوا مستقرين، فيما بين البحر الأبيض والبحر الأحمر»^٦، يبدو أن نظريتنا لا تنفي تكسب الشواهد والقرائن، فهذه هي المساحة التي حددناها لسكنى الحوريين الآدوميين المديانيين، إن مثل تلك الذكريات اليونانية، تحفظ في طياتها أصول الأمر كله موجزًا مكثفًا، كما تزيدنا تأكيدًا حول تشرذم الخارجين من مصر في سيناء، وانشقاق مجموعة منهم اتجهت لبلاد اليونان، أو تؤكد الاحتمال الأسبق، وهو أنهم عناصر من سكان المنطقة تم نقلهم من مواطنهم زمن الهيمنة الهكسوسية، أو أن هذا التشرذم قد حدث بعد طرد الهكسوس من مصر، ومطاردة فراعنة التحرير لهم في مساحة شرقي المتوسط، وتشتتت الحلف الأول، ليتجه البعض نحو الحجاز، والبعض يعود إلى مواطنه التاريخية في يمن؛ سبأ وحمير. ويوجه البعض الآخر نحو بلاد اليونان، هناك هجرة قد تمت بواحدٍ من الأشكال السالفة، وإن كنا نرجحها إبان الخروج الإسرائيلي من مصر، حاملين معهم قصة اللعنة التي حلت على بيت آمنحتب الثالث، أو بيت الملك لايوس حسب الرواية اليونانية. ومن جانبه يحتفظ المأثور العربي بذكريات باهتة عن هجرة مشرقية إلى دول أوروبا الجنوبية الواقعة على سواحل المتوسط، بل ويحدد لنا ذلك المأثور جنس هؤلاء المهاجرين ومواطنهم الأصلية، فيقول ابن قتيبة الدينوري:

كان عيصو (عيسو) رجلًا أحمر شعر الجسد، عليه خواتيم من شعر، صاحب صيد، وهو أبو الروم (الأوروبيين الجنوبيين)، وكان الروم رجلًا جلدًا أحمر، أصفر في بياض شديد الصفرة، فمن أجل ذلك سميت الروم بني الأصفر.

^٦ أنتاديوب، الأصول الزنجية ... سبق ذكره، ص ١٣٣، ١٣٤.

وتزوج عيصو ابنة عمه إسماعيل بن إبراهيم، فولدت الروم بن عيصو وخمسة آخرين، فكل من بأرض الروم اليوم هم من نسل هؤلاء الرهط، وبعض الناس يزعمون أن الإسبان من ولده.^٧

ومن علامات ذلك التشظي الذي حدث للخارجين من مصر نتيجة انقسامهم، أو نتيجة خروجهم ومهاجرتهم البلاد الفلسطينية، الذي أدّى بدوره إلى هجرات واضحة، ما أورده صحائف تشامبرز Chamber's papers: «إن اسم يشوع بن نون وُجد منقوشاً على حجرٍ عند نوميديا بشمال أفريقيا، حيث أقام الفينيقيون مستعمرتهم قارة حداشة، التي عُرفت فيما بعد باسم قرطاجة، وعلى ذلك الحجر الذي كُشف سنة ٥٤٠م كتابة بالفينيقية يقول كاتبوها: إننا خرجنا من ديارنا؛ لننجو بأنفسنا من قاطع الطريق يشوع بن نون».^٨ ومعروف أن يشوع بن نون كان هو قائد الخارجين من مصر بعد موت موسى. الدلائل جميعاً تشير إلى حراكٍ مهاجر ومتشظّ سبق الخروج وعاصره ونتج عنه، وكلها وسائل يمكن أن تكون قد حملت قصة الفرعون المارق إلى بلاد اليونان، ولكن باسم أوديب.

وإذا كان «فليكوفسكي» قد تمكن ببراءة واقتدار، إثبات مصرية الأسطورة الأوديبية؛ فإن الأمر الذي يجب التأكيد عليه كعنصرٍ أساسي لهذه الرؤية، هو أن المصري وحده وبالذات بين العناصر البشرية للشرق القديم، هو الذي كان يعطي عظيم اهتمامه للحياة من بعد الموت؛ لذلك كان إعلان كرايون النسخة النهائية من آي في تل العمارنة، أن عقاب بولينكيس ابن أوديب لاستقدامه أعداء البلاد والاستعانة بهم، هو عدم دفنه، وعقاب من يدفنه عقاباً هائلاً. ومع ذلك أصرت أخته أنتيجوني على دفنه وتحمل ذلك العقاب، ثم لا بد من الوقوف الدهش مع هايمون ابن كرايون/آي، وهو يقول لأبيه: «يا أبتاه كفى عناداً، إنك لا تعلم ماذا يقول الناس عنك ... إن كل مواطن يستحسن عمل أنتيجوني، ويعتبره من أعمال البطولة التي تستحق التمجيد السرمدي».^٩ وفي اليونان كان المستحب

^٧ ابن قتيبة، المعارف ... سبق ذكره، ص ٣٨، ٣٩.

^٨ العقاد ... سبق ذكره، ص ١٠٧.

^٩ أمين سلامة، في مقدمته لسوفوكليس في الملك أوديبوس، أو ديبوس في كولونوس، أنتيجوني، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص ٦١.

حرق الجثمان وليس دفنه، دون كل تلك الحفاوة بعالم الموت، هذا بينما أعلن تيرياس النسخة اليونانية للحكيم آمنحتب بن حابو، أن عدم دفن الجثة مخالف لقوانين السماء، وسيجلب على البلاد اللعنة الإلهية، وهو كلام ونُظم لا تعرفها بلاد اليونان بالمرّة، ثم يهتف في كرايون آي قائلاً: «فأي مجد هناك في قتل المقتول؟!» وهذه العبارة تحديداً تعبر أشد التعبير عن عقيدة المصري وحده دون العالمين؛ فقد كان يعتقد أن الميت يمكن أن يموت موتاً نهائياً، دون بعث وحياة أخرى إذا مُحي اسمه بعد موته، أو إذا لم يتم دفنه حسب الأصول المرعية. ثم لا يني تيرياس يتفوّه بتعابير وأفكار مصرية خالصة. انظره يقول لكرايون: «إنك ترتكب جريمة مزدوجة بحرمانك العالم السفلي من حقوقه، وحرمانك العالم العلوي من الروح، التي يجب أن تحيا في ضوء النهار.»^{١٠} لقد كان المصري يعتقد أن الميت يذهب بعد الموت إلى العالم السفلي عالم الموتى، حيث يعيش تحت حكم الإله أوزيريس، لكنه في ذات الوقت كان يؤكد أن ذلك العالم كان نهاراً ساطعاً بالشمس؛ لأن الإله الشمس رع كان يسلك رحلته بعد الغروب في العالم السفلي، حيث يشرق هناك ويحيل الليل نهاراً، أما التعبير «تحيا في ضوء النهار»، فهو تعبير مصري فُح مائة بالمائة، يرد أكثر من مرة في كتاب الموتى، أما المصري القديم فكان يسمى كتاب الموتى «برت أم هرو» أي الخروج إلى ضوء النهار.

وحتى نتيقن مما نقول نعود إلى القصص الثلاث، محاولين إلقاء الضوء على المساحات المشتركة بينها.

أبداً لم نعرثر على نص واضح صريح، يؤكد استبعاد إخناتون إلى بلاط أخواله الميتانيين/المدانيين، وأن ذلك قد تم تهرباً من قدر قدرته عليه نبوءة أبي الهول الطيبي، لكن ما جمعناه من قرائن كافٍ تماماً للبرهنة على ما حدث، وأنه قد استبعد صغيراً من بلاده، ومن بيت أبيه ليربو في بلاط المدانيين، حتى يتم استدعاؤه لتسّم عرش أجداده في طيبة المصرية.

لكن تلك القرائن تتحوّل إلى سجل دلالي حقيقي للنبوءة وتفاصيلها، عندما يتم تدوين الأحداث في بلاد اليونان، بعدما حملت القصة أسماء يونانية، وأصبح بطلها هو أوديب بدلاً للاسم المصري إخناتون، وإن كان الاسم اليوناني قد حُفظ في ملفوظه اللساني اسم

^{١٠} نفسه، ص ٦٢.

الملك المصري؛ فقد كان الاسم الأصلي للملك المصري هو «آمن - حُتيب / الرابع»، وأوديب تلتقي تمامًا مع «حوتيب»، حيث تتبادل الحاء مع الألف والتاء مع الدال. وتقول الصياغة اليونانية إن الآلهة قد قررت عقاب الملك لايوس؛ لأنه أول من أدخل العشق المثلي (اللوواط) إلى بلاد اليونان، فقدرت على بيته وأسرته اللعنة والشقاء، وقررت ما أفصحت عنه نبوءة دلفي؛ أن الولد الذي ستلده الملكة يوكاستا زوجة لايوس، سيقتل أباه ويتزوج أمه. وحتى يحول الملك لايوس دون تحقق النبوءة، قرر التخلص من الطفل بتركه في العراء، لتفترسه الوحوش أو يموت جوعًا ومرضًا؛ ولهذا قام بتسليمه إلى أحد موظفي البلاط المخلصين سرًا؛ لتنفيذ الرغبة الملكية، لكن الموظف المخلص كان أشد إخلاصًا لإنسانيته، ولم تمكنه رقة قلبه من القضاء على طفلٍ رضيع، فسلمه إلى أحد الرعاة على الحدود بين طيبة وبين كورنثة، في موضعٍ وُصف بأنه صحراء قاحلة، ويتصادف أن يعجب بالطفل ملك كورنثة بوليبيوس Polybus وزوجته ميروبي Merope، فيأخذا الطفل ويتبنياه ويطلقا عليه اسم أوديب.

أما التوراة فقد صاغت قصتها بقدرٍ من الاختلاف، لكن مع الاحتفاظ بالعنصر التأسيسي، وهو فكرة استبعاد بطل الملحمة ونشأته في بلادٍ غير بلاده، ومرباه في قصر ملكي ثم عودته إلى أهله بعد ذلك، كما عاد كلٌّ من أوديب وإخناتون، وهكذا تقول التوراة: إن مولد موسى قد توافَق مع ذروة الاضطهاد المصري للإسرائيليين المأسورين بمصر، والذي وصل إلى حد قتل الأطفال الذكور من بني إسرائيل، لأسبابٍ تبررها نصوص المقدس بقولها:

ثم قام ملكٌ جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلاَّ ينموا، فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير؛ لكي يذلّوهم بأثقالهم، فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس، ولكن بحسبما أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا، فاخترشوا من بني إسرائيل، فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنفٍ، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفًا، وكلم ملك مصر قابليتي العبرانيات اللتين اسم إحدهما شفرة واسم الأخرى فوعة، وقال: حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي، إن كان ابنًا فاقتله وإن كان بنتًا فتحيها، ولكن القابلتين خافتا الله، ولم تفعل كما

كلمهما ملك مصر، بل استحييت الأولاد، فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما: لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد؟ فقالت القابلتان لفرعون: إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات؛ فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتين القابلة، فأحسن الله إلى القابلتين ونما الشعب وكثر جداً، وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتاً، ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً: كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها.

وذهب رجلٌ من بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابناً، ولما رآته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد، أخذت له سقفاً من البردي وطلته بالحرر والزفت، ووضعت الولد فيه، ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به.

فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر، فرأت السقف بين الحلفاء، فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحت رأت الولد، وإذا هو صبي يبكي فرقت له، وقالت: هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات، لترضع لك الولد؟ فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي، فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي، وأنا أعطيك أجرتك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته، ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابناً ودعت اسمه موسى، وقالت: إني انتشلته من الماء.

(خروج، ١: ٨-٢٢ و٢: ١-١٠)

وفي هذا النص أكثر من إشارة تستحق التوقف معها، أولها: قوله إن الإسرائيليين في مصر قد أصبحوا أكثر وأعظم من المصريين، وهو كلام يجافي العقل تماماً؛ فمن المستحيل أن يعيش سبعون إسرائيلياً دخلوا مصر مع يوسف لمدة أربعة أجيال، فقط فيصبحوا أكثر وأعظم من المصريين، وكان هذا هو السبب الذي ارتآه المحرر التوراتي لقتل ذكور بني إسرائيل؛ لأن الفرعون قد تخوَّف من هذا العدد الهائل، أن ينضم إلى أعداء مصر ويحاربوا المصريين.

وهكذا يخفي المحرر التوراتي عن عمدٍ الأسباب الحقيقية لاستبعاد موسى في سقطة السابح بنيل مصر، ويلفق بدلاً منها أسباباً لا يمكن لعقلٍ صاِحٍ قبولها، وبعد قليل سنعلم

السر في هذا التلغيف العمدي. أما أن الفرعون قد خشي أن ينضم الإسرائيليون إلى أعداء مصر، فهو تسجيل حقيقي لوقائع حدثت، كان المحرر التوراتي يعلمها جيدًا، لكنه وهو يعبت بتسجيل الأحداث فلتت منه هذه الواقعة، إلا أنه وضعها قبل موضعها من الزمن، الذي حدث فيه من بعد، كما لو كانت مجرد تنبؤ وتخوف من الفرعون مما قد يحدث، ولم تسجل التوراة أن الإسرائيليين قد تحالفوا مع أعداء مصر عند الدخول وعند الخروج، لكن وثائق التاريخ — حسب تفسيرنا ونظريتنا — لم تهمل تدوين هذا الحدث كما سيأتي بيانه في حينه.

ثم شاردة أخرى بالنص، تؤكد معرفة الإسرائيليين بالمصريين، وعاداتهم معرفة وثيقة، ونقصد بتلك الشاردة قول الفرعون للقابلتين: حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي، فما هو معنى «حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي»؟ لقد أوضحت الكشف أن المصريين قد تميزوا من بين الشعوب، بما يُعرف بكرسي الولادة، كأسلوب علمي متقدم يساعد في تسهيل عمليات الولادة، وقد أخذ العبرانيون بذلك الأسلوب بعد معيشتهم في مصر كما هو واضح بالنص.

وهكذا تم استبعاد موسى إلى قصر الفرعون، ثم عاد إلى أمه وبيت أبيه لترضعه، لكنه ما إن بلغ فطامه حتى تمت إعادته إلى قصر الفرعون مرة أخرى.

ويقول لنا الباحثون في الأساطير والملاحم الشعبية إن هناك عناصر مشتركة في الملاحم الشعبية، تتسم بها تلك الملاحم جميعًا، على التفاوت في بعض العناصر أو التبادل بينها، ويرصد لنا «شكري عياد» أهم تلك السمات في نقاط أساسية، هي العناصر المكونة للملحمة الأسطورية كالتالي:

- (١) أم البطل ليس شرطًا أن تكون ملكة، لكنها من أصل ملكي.
- (٢) وأبوه ملك.
- (٣) كثيرًا ما يكون الأب من الأقارب الأدنى للأُم.
- (٤) يولد في ظروف غير عادية.
- (٥) يقال إنه ابن إله.
- (٦) عند مولده يُراد قتله، وعادةً ما يكون صاحب الرغبة في قتله هو أباه أو جده لأمه.

- (٧) تتم تربيته في بلادٍ غير بلاده بواسطة أبوين بالتبني.
- (٨) لا نسمع عنه شيئًا طوال مرحلة طفولته منذ استبعاده، حتى عودته إلى الظهور مرة أخرى شابًا يافعًا.

- (٩) حين يبلغ مبلغ الرجال يعود إلى بلاده.
- (١٠) ينتصر على ملك البلاد، أو على عملاق، أو وحش.
- (١١) يتزوج أميرة البلاد التي عادةً ما تكون ابنة سلفه، أو زوجته ويصبح ملكاً.
- (١٢) يحكم فترةً من الزمن بدون أحداث تذكر.
- (١٣) يسن للبلاد قوانين جديدة وأعرافاً من نوع خاص.
- (١٤) نتيجةً ذلك يتعرض لسخط الآلهة والرعية.
- (١٥) يتم إقصاؤه عن العرش ونفيه من مقر حكمه وبلاده.
- (١٦) يموت بعد ذلك ميتةً غامضة.
- (١٧) لا يخلفه أبناؤه على العرش عادة.
- (١٨) لا يُدفن جثمانه، ولا يُعرف له مكان يقيني.
- (١٩) ومع ذلك تتعدد القبور والأضرحة التي تصبح مقدسة لهذا البطل.^{١١}

ويكرر «عبد الحميد يونس» ما وجده من عناصر أسطورية مشتركة في قصص البطل الملحمي، فيقول: «إن البطل الملحمي أو بعبارة أدق البطل الشعبي، يولد ويتعرض للأخطار في طفولته، لكنه ينجو ويشب عن الطوق، ويتفوق على الآخرين في الطعان، ويتحصن ضد الإصابات القاتلة، ويحارب التنين أو ما يماثله من وحش خرافي، ويطلب إليه أن يأتي بالمستحيل، ويُنفى عن موطنه، ويصارع أباه، ويحمي مجتمعه، ويفوز دون غيره من نظرائه بأجمل فتاة في محيطه وعالمه، وتحقق بذلك النبوءة ... ثم يعبر إلى العالم الآخر بعد كفاحٍ عنيف».^{١٢}

هذا بينما يعلمنا «علي زيعور» بوصفه متخصصاً في الدراسة السيكلوجية للمأثور الشعبي والتراث، فيقول: «تتميز أيضاً حادثة البطل بجمالٍ خارق وشجاعة ... وعدم لهُو، ويفضل الطفل التأمل والنظر إلى السماء والعزلة أو الصمت. وقد يكون ذا صفاتٍ خارقة وعلم لدني ... ويعيش البطل مُهدداً بالخطر طيلة السنوات الأولى من العمر، فقد يُخبأ أو يُرمى أو يُترك في القفر ... وينقطع متخلياً عن المباهج مُفضلاً الانعزال».^{١٣}

^{١١} شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م، ص ١٢٠، ١٢١.

^{١٢} عبد الحميد يونس، الفولكلور والميثولوجيا، عالم الفكر، الكويت، مجلد ٣، عدد ١، ص ٤٦.

^{١٣} د. علي زيعور، قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٠٥، ١٠٦.

ويزيدنا زيعور تفصيلاً فيقول: «يتخيّل الناس بطلهم إنساناً مولوداً على غير المألوف، وأبويه غير مألوفين؛ أم غير عادية وأب يأمر بقتل المولود الذي سينجو، ثم فيما بعد يقتل الوحش الذي يُخيف الجماعة فينقذها ويحررها، يتصل بالمُطلق ويسبح في السماوات وفي الأرضين.»^{١٤}

ثم يقرأ «زيعور» مجموعة أساطير العالم عن البطل المخفق المنفي، ليلحظ وجود عناصر أخرى مشتركة هامة تماماً، أهمها خروج البطل على مألوف العادة وكسره للتحريمات المقدسة، بل ربما تسبب في إباحية جنسية، وأنه ربما تحول إلى إله معبود، رغم إسقاطه للمحرمات، ورفضه للشرائع والتكاليف، والسعي لهدم الدين السائد، واتسامه بالحق والغيرة في الانتقام المروع، الذي يُرضي الحس الشعبي الذي يطلب دوماً الثأر من ظلم الأوضاع الاجتماعية، فهو انتقامٌ نظري اجتماعي عبر صورة البطل.^{١٥}

وينبها «شكري عياد» إلى أن تلك السمات والعناصر المشتركة، جمعها «راجلان» الذي سبق لنا إيراد رأيه، واعتبرها النموذج القياسي لجميع أساطير البطولة، لكن «عياد» من جانبه يرى أن هذا النموذج لا يكاد يتحقّق كاملاً في غير أوديب، ثم يشرح موقفه مُوضّحاً: «ولعلنا لو اقتصرنا على عناصر ثلاثة رئيسية، وهي: النشأة الغامضة للبطل، وإن قيل إنه من أصلٍ ملكي أو إلهي، وتولييه الملك أو الزعامة بعد عملٍ يدل على أنه محبوبٌ بقوة خارقة، وقد يكون هذا العمل هو القضاء على الملك الشيخ، وانتهاء ملكه بتخلّي هذه النبوءة الخارقة عنه، وانقلاب أحبابه عليه بحيث يموت مقتولاً، لا بيد أحد هؤلاء الأحاب، أو من جهةٍ لم يكن يتوقع أن يأتيه منها الموت. لعلنا لو اقتصرنا على هذه العناصر الثلاثة لوجدناها متحققة في قصصٍ كثير من أبطال الأساطير كتحقّقها في قصة أوديب.»^{١٦}

ولدينا هنا نموذج آخر للبطل الملحمي، يتعلق بموضوعنا تماماً بطلها البطل الأسطوري اليوناني هرقل، الذي دارت أحداث أسطورته في طيبة، وفي بلاط كرايون نفسه بعد مقتل لايوس، تكررت في أحداثها الأسطورية عناصر تأسيسية من قصة أوديب/إخناتون/موسى، فنقول الأسطورة إن هرقل قد وُلد من أبوين هما أمفيتيون وألكمينا، وأن ألكمينا كانت بنت ملك ميسيني، لكنه لم يولد في ميسينا بل في طيبة، ثم

^{١٤} نفسه، ص ٣٤.

^{١٥} نفسه، ص ٤١.

^{١٦} شكري عياد، البطل ... سبق ذكره، ص ١٢٢، ١٢٣.

تفاجئنا الأسطورة باكتشاف أن البطل لم يكن من أب بشري، بل هو ابن كبير الآلهة زيوس نفسه، الذي عاش ألكمينا بنت ملك ميسيني، التي تعيش في طيبة لا في ميسيني إبَّان غيبة زوجها، ورباه أمفثريون وهو لا يعلم أنه ابن الإله، وظنه ولده من صلبه. لكن فجأة تدخل على القصة عناصر غريبة تخل بتناسقها، فيقتل هرقل رجلاً في ساعة غضب، مما يثير ضده أباه أمفثريون، الذي يعاقبه بأن يخرج من بيت العز ليرعى الغنم، ثم لا يكتفي بهذا العقاب، بل يأمره بمواجهة أسد كثيابرين، الذي كان يعيثُ فساداً في المنطقة. ويتغلب هرقل على الأسد ويعود إلى طيبة، مكللاً بالنصر العظيم الذي أحرزه، ثم نفهم أن هرقل كان شديد الألم من خضوع طيبة للمينويين، فقام بتسليح أهل طيبة ودرهمهم على القتال وقادهم إلى الحرية، فكان أن كافأه كرايون ملك طيبة، بأن زوّجه من ابنته، وجعله حامياً للمدينة.^{١٧}

والآن ...

إذا كانت تلك النماذج المشتركة للأساطير الملحمية، تتطابق تماماً مع أسطورة أوديب، فهل بالإمكان أن نعثر في حياة الملك إخناتون التي كان حقيقة لا أسطورة، وفي قصة موسى على ذات النماذج؟

الملحمة التقليدية تؤكد أن البطل وريث ملكي حقيقي؛ لأن أباه ملك، بينما أمه من أصل ملكي، وهو ما يعني أن الأب ملك بالتأكيد والقطع، لكن أمه ربما تعود إلى أصل ملكي عن قرابة بعيدة، أو أنها من أصل ملكي لدولة أخرى، لكنها ليست ملكة وطنية بالقطع. ونحن نعلم أن إخناتون هو ابن الفرعون المصري الأشهر آمنحتب الثالث، الذي حكم على أعظم إمبراطوريات ذلك الزمان في أزهى عصورها، لكننا نعلم في الوقت نفسه أن زوجته «تي» أم إخناتون، يشوب أمرها شك كبير، فهي عند بعض المؤرخين من عامة الشعب، وعند البعض الآخر أنها من البلاط الميتاني/المداني.

وإن تتابع متغيرات الأحداث السريعة في المنطقة في تلك الحقبة، يمكننا أن تلقى ببعض الأضواء على ما حدث. كان البلاط الميتاني/المداني في زمن الأسرة الثامنة عشرة، التي حكم إبَّانها الملك آمنحتب الثالث، الصديق الصدوق للبلاط المصري، لكن في زمن تحتتمس الرابع والد آمنحتب الثالث، بدأت هذه العلاقات تتبدل، بعد سقوط حليف مصر الملك الميتاني شورتانا، ونظنه كان «ثور-آتون»، بعد الانقلاب الذي قاده «توعي»، واستولى

^{١٧} نفسه، ص ١٢٤.

به على عرش مديان/ميتان، وتحول إلى العداء الشديد للبلاط المصري، لكن في عهد آمنحتب الثالث وفي منتصفه تقريباً، عاد الود بين الأصدقاء مرةً أخرى، بثورة قادها حليف مصر الوريث الشرعي للعرش الميتاني «دوشراتا/ذو الشرى» ابن شورتانا، ضد «توعي» وتمكن من هزيمته والاستيلاء على الحكم، وقام بالعودة السريعة إلى الحلف مع مصر، ولا نطن مصر كانت بريئة تماماً من ثورة دوشراتا ضد توعي، بل ربما شاركت مشاركة مباشرة عسكرية لإعادة العرش لأنصار مصر في ميتاني. وهذا الفرض من جانبنا تدعمه أخبار المعارك العسكرية المنسوبة لزمن آمنحتب الثالث بالوثائق المصرية، ويكذبها المؤرخون ويرون أنه لم يكن فرعوناً مقاتلاً، ويفسر لنا أيضاً الإشارات المتكررة في زمن آمنحتب عن غنائم وصلت بلاده من آسيا. كما نعلم أن الملك «آمنحتب الثالث» قد تزوج من الأميرة الميتانية «جيلوخيبا» أو «يلوهيبا»؛ فهل كانت يلوهيبا هي ذات الملكة «تي»؟ ربما نعم، وربما لا، لكننا نعلم بالقطع أن الملكة تي كانت ميتانية. ويترتب على ذلك أن يكون والدها يويا هو «شورتانا»، الملك الميتاني الذي لجأ إلى البلاط المصري، بعد أن خلعه «توعي» وتولّى مكانه، وهو ما يفسر لنا عدة أمور؛ هي سر العداء المفاجئ الذي طبع سياسة ميتاني تجاه مصر بعد لجوء «شورتانا» لمصر، حيث لجأ الملك المخلوع ورجاله وربما حاشية واسعة من بلاطه إلى مصر، كالعادة التي نراها في حلفاء مصر المخلوعين في ممالك بلاد آدوم، وهو ما حدث بعد ذلك مع الملك هدد/حداد، الذي أسلفنا الحديث عنه، بل ونمد الخيط على استقامته، فنفترض أن شورتانا أو «ثور-آتن» هو ذات الشخص، الذي جاء ذكره بالكتاب المقدس باسم «يثرور» كاهن مديان حمى موسى، وقد سبق لنا في كتابنا «قصة الخلق» أن ناقشنا هذا الاسم، وانتهينا إلى أنه أحد الأسماء القديمة، التي تفخر بالانتساب إلى الثور كرمزٍ إلهي وملكي.

وهذا الفرض يفسر لنا ما حازه يويا من ألقاب، فهو الذي «أغناه ملك مصر»، وكان يكفي في اللقب القول: «أغناه الفرعون» أو «أغناه الملك»، لكن الإلحاق التشديدي «ملك مصر»، يعني المقابلة بغير المصري، فهو غير مصري أغناه ملك مصر، كما حاز هذا الرجل الأجنبي على شرف مركز عسكريٍّ عظيم، فقد كان قائد سلاح الفرسان «وكيل الملك للعجلات»، وهو منصب يليق به بحسبانه من البلاد، التي جاءت معها العجلات والخيول فهو الخبير بشئونها. والمعلوم أن العجلات والخيول ظلت في مصر شيئاً ابتدائياً لا يشكل سلاحاً، منذ خروج الهكسوس حتى زمن آمنحتب الثالث، الذي قرر أن يكون لديه ما يكفي من عرباتٍ وخيول، لإنشاء سلاح جديد في قواته المسلحة، وكان يويا أول قائد عسكري مؤسس لسلاح العجلات في الجيش المصري.

ثم يفسر لنا كيف يكون البطل ابن ملك باليقين لكن أمه «من أصل ملكي»، حيث نحتسب أن قصة إخناتون كانت النموذج الأصلي لأساطير الأبطال بعد ذلك، ثم يفسر لنا ثالثاً كيف أمر آمنحتب الثالث بدفن يويا وتويا في وادي الملوك في طيبة، وهو القاصر على أصحاب الدم الملكي فقط، ودون غيرهم من البشر، بكل ما لهؤلاء الملوك من قداسة، وكان مدعاةً للاستغراب والدهشة من جانب الباحثين المحدثين، الذين رأوا في يويا شخصاً من عامة الشعب، ثم رابعاً يفسر لنا وجهة نظر الطب التشريحي، التي أكدت أن يويا إطلاقاً لا ينتمي في تركيب جمجمته للشعب المصري، وأنه كان سامياً بالقطع واليقين، بل وبالتحديد من تلك الفئة ذات الألف البيغائي المقوس.

ثم نعلم أيضاً أن البلاط المصري قد استقبل أميرة ميتانية أخرى، هي «تادوهيبا» أو «تادوخيبا» أو «تادوكيبا»، فليس من المؤكد إطلاقاً النطق الصحيح تماماً، ويعتقد جاردنر وجلة محترمة من المؤرخين أنها ليست سوى الجميلة نفرتيتي التي تزوجها الفرعون آمنحتب الرابع/إخناتون ابن آمنحتب الثالث،^{١٨} وربما يعضد هذا اسمها نفسه؛ لأن نفرتيتي اسم له معنى هو: الجميلة قد أتت أو أقبلت، وعليه تكون نفرتيتي شقيقةً للملكة تي، ويكون إخناتون قد تزوج بذلك من خالته الصغيرة.

ثم ننتقل إلى العنصر الثالث من عناصر الملحمة، والذي يؤكد أن أبا البطل عادة ما يكون من أقارب الأم. ومعلوم أن آمنحتب الثالث كان ابناً لميتانية بدوره هي «موت أم أويا»، مما يؤكد قرابة آمنحتب الثالث والد بطل قصتنا إخناتون من زوجته «تي» الميتانية، التي لا شك كانت هي و«موت أم أويا» من البلاط الميتاني.

أما العنصر الرابع فهو ولادة البطل في ظروف غير اعتيادية بالمرة، وقد وُلد إخناتون في البيت المالك المصري في زمنٍ كانت فيه مصر أعظم إمبراطوريات زمانها، لكنها من الداخل كانت قد بدأت تعاني خللاً واضحاً؛ فقد انتشرت في مصر خاصة في بيوتات الأرستقراطيين العادات والثقافات الميتانية، نتيجة وجود عنصر نسائي واضح قلّد به الأغنياء سيدهم الملك، كما كان بلاط العرش نفسه يمجج بالأجانب وبخاصة العنصر الميتاني. وعندما ولد إخناتون كان الصراع قد بلغ مداه بين آمنحتب الثالث والكهنة؛ مما دفعه إلى رشوة القابل للارتشاء من كبراء كهنة آمون؛ لأن الصراع الخلافي كان حول شرعيته ذاتها كملك؛ لأن أمه ليست مصرية وليست من الدم الملكي، مما يعني مخالفة

^{١٨} جاردنر، مصر الفرعنة ... سبق ذكره، ص ٢٣٩.

واضحة للقوانين المقدسة. وضمن تلك الرشاوى المعبد العظيم الذي أقامه بطيبة للإله آمون، حتى أمكن تلافي ذلك العيب الشرعي، بقول بعض الكهنة إن الإله آمون هو الذي أنجبه من أمه، بعد أن تمثل لها بشراً سويّاً. لكن المشكلة تفاقمت بزواجه من أميرة ميثانية، رغم وجود الوريثة الشرعية (سيت آمون)، وجعل من تي الزوجة الرئيسية أو الملكة، ولم يضعها في مكانها الطبيعي بين الزوجات الثانويات أو المحظيات؛ لذلك كان ميلاد ولده إخناتون هو المخالفة الصارخة لكل قوانين السماء.

ورواية مانيتون التي نقلها إلينا يوسفوس عن فتنة أوزرسييف، كانت تتحدث عن ملك مصر حينذاك باسم آمنحتب/آمنوفيس، فإن ذلك يضيف رصيذاً من الظروف غير الاعتيادية، التي ولد فيها البطل الملحمي المفترض أنه إخناتون، فقد ولد وبلاده في أزمة طاحنة.

وعن فتنة أوزرسييف ينقل يوسفوس عن مانيتون القول: إنه بعد طرد الهكسوس من مصر، بقي بعضهم ممن لم يستطع الفرار، فوقعوا أسرى بيد المصريين حيث سيموا العذاب الطويل، وفرضت عليهم السخرة بالعمل في المحاجر زمناً طويلاً، حتى طلبوا من الملك أن يخصص لهم مدينة حواريس عاصمة الهكسوس القديمة، بعد أن خوت على عروشها. فاستجاب الملك لرغبتهم فلما أقاموا بها، وجدوا المكان حصيناً وصالحاً للتمرد، وأقاموا على أنفسهم قائداً من كهنة عين شمس اسمه أوزرسييف، سن لهم شرائع جديدة تعادي العبادات المصرية، وحرم عليهم الانضمام لغير رابطتهم، وأمرهم بالاستعداد لقتال الملك آمنحتب. وأرسل السفراء إلى الرعاة الهكسوس في أورشليم، وطلب منهم مساعدته مع وعد منه بإعادتهم إلى مدينتهم التي طردوا منها (حواريس)، وأنه سيُموّن جيوشهم بالغذاء الوفير، وأن في ميسوره إخضاع البلاد لسلطانهم مرةً أخرى. وقد استجاب له الرعاة وخفوا على وجه السرعة إلى مصر في عدد ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل، وهو ما أمكن تسميته بالغزوة الهكسوسية الثانية. ويفسر لنا قول التوراة بلسان الفرعون عن عبيده الإسرائيليين: «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا، ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»، وقد سبق هذا النص أحداث الخروج ليتضمن في صيغة مضمرة ما حدث بالفعل، من تحالف بين هؤلاء المستبعبدين، وبين ملوك الهكسوس المطرودين من مصر إلى أورشليم، حسب رواية مانيتون.

ومما يؤكد أن آمنحتب المقصود هنا هو آمنحتب الثالث أو الرابع إخناتون، أن القصة تقول: إن الفرعون آمنحتب تذكر ما سبق وتنبأ به الحكيم آمنحتب بن حابو. ونحن نعلم أن آمنحتب بن حابو قد عاش زمن آمنحتب الثالث والرابع. فأرسل آمنحتب ولده الذي

جاءنا له ثلاثة أسماء هي سيتوس ورمسيس وهارامبيس، إلى صديق له في بلاد مجاورة لتأمينه من مؤامرات أنصار الشرعية الربانية والكهنة الآمونييين تحديداً. وقد علمنا مما سلف أن المصريين قد أسقطوا أسرة العمارنة تماماً من التدوين، بحيث بدا أن ابن آمنحتب الثالث المباشر هو حور محب مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، الذي سجله اليونان «هارامبيس» والذي يليه «رمسيس الأول» ثم «سيتي الأول». وواضح أن هذه المنطقة الزمنية قد أُصيّبت بالخلل لدى مؤرخنا الجليل مانيتون، فافترض أن أحد هؤلاء كان ابناً مباشراً لآمنحتب الثالث؛ ولأنه لم يكن يعلم بوجود مسافة تفصلهم عن زمن آمنحتب الثالث، ولم يعلم أن ابن آمنحتب الثالث كان هو آمنحتب الرابع إخناتون، وليس حور محب ولا رمسيس ولا سيتي، لكنه يسوق لنا معلومة هامة تواترت حتى وصلته، وهي أن آمنحتب الثالث أرسل ابنه وكان غلاماً صغيراً في الخامسة من عمره إلى صديقٍ للبلاط المصري، وهو ما يفصح عن استبعاد إخناتون صغيراً إلى المكان، الذي اخترناه لمسرح أحداثنا عند أخواله في مديان.

ويؤكد لنا ذلك ما قرأناه في نسخة من خطاب آمنحتب الثالث إلى عبيد خيبا/عبد هفا، صديقه وتابعه المخلص على مدينة «قيله»، التي ربما كانت «أيله» أو «قينه» المعلومة في شرقي سيناء الآن. وحرفا اللام والنون من الحروف السقف حلقية سهلة التبادل. ويقول لنا «ماكلاستر»: «وقد كان فرعون يثق به فقد تلقى خيبا منه أمراً لم تكشف لنا الرسائل ماهيته، ولكنه وعد بتنفيذه بأمانة وإخلاص»^{١٩}، وهذا الأمر السري هو ما نظنه يتعلق بإخناتون، ثم نتذكر الآن لوحة الكرنك التي يقف فيها آمنحتب الثالث على سفينة، يودع فيها ابنه الذي تم محو اسمه واستبدل بحور محب. وما يعيننا هو أن الأحداث الآن قد أمست واضحة، وأجابت على سؤالنا الذي سبق وطرحناه وراء السر في ظهور الأب والابن على سطح سفينة بحرية، ثم يختفي بعدها ذكر هذا الابن تماماً مع كل المدونات والنقوش والرسوم، ليظهر فجأة صبيّاً ملكاً بعد موت أبيه. ولا ريب أن طريق البحر كان هو الأكثر أمناً، إزاء توتر الموقف على الحدود البرية مع سيناء، ومن هنا نعتقد أن السفينة الملكية التي كانت تحمل ولي العهد، قد اتخذت ذات خط سير بعثة حتشبسوت إلى بونت/آدوم/مديان، وهو الترجيح الأفضل من تهريبه

^{١٩} ماكلاستر، الأقوام الجدد ... سبق ذكره، ص ١٠١.

من القصر الصيفي في زارو، كما ذهب أحمد عثمان، حيث وضعته تي وهربته إلى أهلها خشيةً عليه عبر صحراء سيناء، إبان فتنة كبرى. وكان آمنحتب — في رواية مانيتون ويوسفوس — فرعوناً من نوع خاص، كان يعتقد أن الحرب عمل ضد الآلهة؛ لذلك ذهب برجاله إلى ملك إثيوبيا حليفه، ليحل ضيفاً عليه لمدة ثلاث عشرة سنة، يقول «إن القدر كان قد قضى بها سنوات منفي لآمنحتب وولده». وهو ما يشير إلى تقدير سماوي يفرغ صداه في نبوءة أبي الهول.

وبعد انقضاء المدة التي حددها القدر، عاد آمنحتب بجيوشه لطرد الرعاة من حواريص، وجاء ابنه بجيش آخر؛ مما يعني أن هذا الابن كان يعيش لدى دولة أخرى لها جيوشها وقوامها السياسي والعسكري، واشتركا في قتال الرعاة وهزمهم وطاردهم حتى سوريا.^{٢٠}

وهكذا كان ميلاد بطلنا في ظروف غير اعتيادية إطلاقاً، مما يؤكد العنصر الرابع من عناصر الملحمة الأسطورية. أما العنصر الخامس فهو القول أن البطل ابن إله، وقد علمنا أن آمنحتب الرابع/إخناتون كان ابن إله مرتين، الأولى لأن والده آمنحتب الثالث قد نصب نفسه إلهاً، وعبدته الناس باعتباره الابن المباشر لإله آمون، وعندما عاد إخناتون إلى مصر حاقداً على أبيه، الذي استبعده بسبب نبوءة أبي الهول الطيبى الآمونى، وقام بمحو اسم أبيه أينما عثر عليه في قتل أبدي متعمد، أعلن نفسه ابناً مباشراً للإله الجديد آتون. والعنصر السادس من عناصر الملحمة الأسطورية يقول إن الطفل البطل تعرض عند ولادته لمحاولة اغتيال، وإن هذا الاغتيال تم بتدبير من أبيه أو جده لأمه، فهو ما يلتقي بمؤامرات الكهنة والعسكر، لإقرار القواعد الإلهية بالتخلص من الأطفال الذكور للأسرة الملكية. ويبدو أن الفرعون نفسه كان ضليعاً في الأمر وفضل نفي ولده بدلاً من قتله، أو أرسله سراً إلى حلفائه وأنسابائه الميتانيين بينما أعلن عن موته. وهكذا يتحقق العنصر السابع الملحمي فتتم تربية البطل في بلاد غير بلاده بواسطة أبوين بالتبني. وبالفعل يختفي ذكر أي ابن لآمنحتب الثالث من جميع الآثار تماماً، ليتحقق العنصر الثامن وهو أننا لا نسمع عن البطل أي شيء، طوال مرحلة طفولته منذ استبعاده حتى عودته. والطريف في الأمر أننا لو أخذنا بحسابات مانيتو، في أن الطفل استبعد وعمره خمسة أعوام، وعاد ليحارب الرعاة بعد ثلاثة عشر عاماً، بالاتفاق مع أبيه وجيوش مصر؛

^{٢٠} لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص ١٤، ١٥.

فهو بذلك يعطينا بدقة زمن ظهور الابن في مصر ملكًا عمره ثمانية عشر عامًا، وهو عمر إخناتون عندما اعتلى عرش مصر بالتمام والكمال، ويتحقق بذلك العنصر التاسع فالبطل حين يبلغ مبلغ الرجال يعود إلى بلاده.

أما العنصر العاشر فهو أنه عند عودته إلى بلاده، يتغلب أولاً على ملك البلاد أو على وحش عملاق، وقد تحقق الأمران مع أوديب كما علمنا، عندما قدم حلاً للغز السفنكس وقتل أباه لايوس وهو لا يعرفه، ثم أنه قبل ذلك قد تحقق كلا الأمرين مع إخناتون، فقد بادر عند عودته إلى هدم نبوءة أبي الهول الطيبى الآمونى، وأمر بإلقاء تماثيل أبي الهول من على الجبل، ثم قام بمحو اسم أبيه ليقتله بذلك قتلاً أبدياً لا حياة بعده. ويحقق أوديب العنصر الحادي عشر، فيتزوج أميرة البلاد التي هي أمه يوكاستا، بينما يتزوج إخناتون من أمه تي، وهو الأمر الذي يجب الوقوف معه قليلاً، قبل استمرار المقارنة بين العناصر الملحمية، وبين واقع الأحداث في بلاد النيل.

الفصل الثاني

بقرة بني إسرائيل وثورها

في القرآن الكريم حكاية غريبة يمكن تسميتها: حكاية بقرة بني إسرائيل، والحكاية تروي أحداثاً يفترض أنها قد حدثت، إبان رحلة الخروج الإسرائيلي من مصر إلى فلسطين، وأن مكان الحدث كان شبه جزيرة سيناء، وتتناول الحكاية قصة تبدو ناتئة تماماً بين بقية الأحداث، لا رابط لها بأول تلك الأحداث ولا بآخرها، بحيث إن استبعادها لا يخل بقصة الخروج مطلقاً. لكن لأن القرآن الكريم كان يسجل أحداثاً وقصصاً كانت متواترة زمن الدعوة، وقبل زمن الدعوة بأزمان عديدة، فقد احتسبنا قصة البقرة لها أهميتها الشديدة، التي أدت بها أن تظل في ذاكرة الأجيال، حتى يدونها القرآن الكريم، ليضع بين أياديها مفاتيح لفهم بعض الأسرار الأولى، التي اكتنفت تكوّن الديانة الإسرائيلية في مناشئها الابتدائية، خاصة أنه على تلك القصة العابرة، سُميت أطول سور القرآن الكريم (سورة البقرة)، التي تحكي لنا عن حادثة قتل، حدثت إبان خروج بني إسرائيل من مصر، ولم يتم التعرف على القاتل، وهنا نستمع إلى الآيات تقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٦٧-٧٣).

ويجمع «علي عبد الواحد وافي» ملخصاً لما قدمه المفسرون، بشأن تلك الآيات فيقول: «وأشهر تفسير من تفاسير هذه الآيات جميعاً وأصحها، أنه وقعت في عهد موسى عليه السلام حادثة قتل لم يعلم فاعلها، فطلب بنو إسرائيل إلى موسى أن يدعو ربه، أن ينبئهم بمن ارتكب هذا الجرم؟ فقال لهم موسى إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فعجبوا من ذلك؛ إذ لم تظهر لهم علاقة بين ذبح البقرة وبين الكشف عن القاتل، وظنوا أن موسى يهزأ بهم. ولكن موسى بيّن لهم أن هذا هو ما أمر به الله، لإظهار الحق في هذا الحادث، فأخذوا يستفسرون منه، عن سن البقرة التي ينبغي أن يذبحوها، وعن لونها وعن عملها، فلما شرح لهم كل ذلك بوحى من الله، بحثوا حتى وجدوا بقرة تتوافر فيها الصفات جميعاً، فذبحوها وأوحى الله إلى موسى أن يضربوا جثة القتيل بجزء من هذه البقرة، فضربوه فأحياء الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله ثم مات ثانياً. فكان في ذلك معجزة لموسى من جهة، وبيان حسي من جهة أخرى، لقدرة الله على إحياء الموتى ... لذلك يختتم الله هذه القصة بقوله: كذلك يحيي الموتى ويريككم آياته لعلكم تعقلون. وفيه كذلك إشارة إلى أن بعث الله تعالى الحياة مرة أخرى، لا يتوقف على سبب من الأسباب التي تدرکہا عقولهم، وإنما أمر الله إذا أراد ذلك أن يقول له كن فيكون، فيحدث بدون سبب ما، أو يجيء عقب أمر، لا يتصور العقل أن يكون سبباً له كما في هذه الحادثة؛ إذ لا يتصور العقل أن ضرب جثة الميت بجزء من جثة حيوان ميت، يمكن أن تكون سبباً لبعث الحياة فيه. وأوصاف البقرة التي ذكرها الله في هذه المعجزة، تتفق في جملتها مع أوصاف العجلة التي ذكرها سفر التثنية في إجراءات القسامة.»^١

وموضوع القسامة الوارد في سفر التثنية بالتوراة، يحكي أيضاً عن بقرة لكن في حكاية مختلفة تماماً، فالمقدس التوراتي لا يبحث هنا عن قاتل قتل قتيلاً؛ لأن التوراة تغص طول الوقت بأخبار آلاف القتلى بل مئات الآلاف، وإهدار الدم فيها طبيعي غير مستنكر حتى نبحث عن فاعل. بل إن الله نفسه في تلك التوراة، يأمر موسى أن يأمرهم بذبح بعضهم بعضاً، دون جرم واضح يبرر كل تلك الدماء المسفوقة، ولم تتم في مرة محاولة البحث عن قاتل؛ لأن القتل كان جماعياً ومتواتراً. أما القسامة وقصة البقرة في التوراة، فهي لون من التشريع البدائي، لقوم يتحولون إلى ائتلافٍ مركزي كتشريع

^١ علي عبد الواحد وافي، اليهودية واليهود، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص ٦١: ٦٣.

قضائي للقصاص، فهي حالة العثور المفاجئ على قتل دون حرب بينهم أدت لذلك. فهي ليست قصة قتل بعينه، المسألة أن رب التوراة يشرع لهم شرائع، عندما يستقرون في أرضهم الموعودة لتنظيم المجتمع. والتشريع يقول: إنه إذا وجدت جثة قتل في العراء أو وسط حقل، ولم يتم التعرف على القاتل، فعلى كبراء إسرائيل الاجتماع، وقياس المسافة بين الجثة وبين القرى المحيطة بها. وعندما يتم تحديد أقرب هذه البلاد إلى مكان الجثة، يطلبون من كبراء تلك القرية إحضار بقرة، لم تستخدم في العمل بعد، ويذبحونها في جدول ماء، ويغسل أهل القرية أيديهم في الماء المدمم، ويقسمون أن أيديهم لم تُرَق دم القتل، وأن أعينهم لم تره، وبذلك لا يتحملون وزر دمه (انظر: سفر التثنية، ٢١: ٩-١٠). ويعقب «علي عبد الواحد وافي» على هذا الإجراء التوراتي التشريعي، ناقدًا بقوله: «ولكننا نجد في سفر التثنية ... إجراءً غريبًا قد أقحم على إجراءات القسامة ... لأن غسل أيديهم في جدول ماء ملوث، بدماء البقرة التي نحرها بأيديهم وصب الماء فوقها، كل ذلك لا يصلح رمزياً أن يكون رمزاً لبراءتهم من جريمة القتل، بل إنه لخليق أن يكون رمزاً لاقترافهم إياها».^٢

من جانب آخر يخبرنا المؤرخ اليوناني «بلوتارخوس»، أنه كان لكل إقليم في مصر حيوانه المقدس، دون أن يكون لهذا الحيوان بالضرورة تقديم في إقليم آخر (فقرة: ٧٤)، وغير سكان هذا الإقليم لا يابھون بهذا الحيوان ولا يقدسونه، مما كان سبباً في احتكاك خطر بين الأقاليم المصرية في عهود مصر المتأخرة، وصل أحياناً إلى حد الاقتتال، ومن ثم نجد حيوانات يحرم ذبحها في إقليم دون آخر، إلا وقت طقوس محددة، وفي أيام يتم تعيينا كأيام عيد مقدس،^٣ إلا أن هناك عبادة واحدة على الأقل قد شملت مصر جميعاً، بطقوسها وحلالها وحرامها، وهي عبادة الإلهة إيزيس وأسرتها الإلهية، وأنها فرضت احترامها وتحريماتها على جميع الأقاليم.

ويروي المؤرخ اليوناني «هيرودوت» أن المصريين قدسوا للإله أوزيريس زوج إيزيس ثيراناً، أطلق عليها الهلينيون «العجل أبيس»، وكان يعتقد أن الثور أبيس هو روح أوزيريس ولون أرض مصر الخصبة، ويجب أن تكون بجبهة الثور علامة بيضاء أقرب

^٢ نفسه، ص ٦١.

^٣ عبد المحسن الخشاب، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ص ١٢.

إلى شكل المثلث، وعلى ظهره رسم يشبه نسرًا أو صقرًا صغيرًا، وشعر ذيله مزدوج، وتحت لسانه عقدة تشبه الجعران، وأحيانًا يكون على إحدى جنبيه رسم يشبه الهلال.^٤ وقد حدد الكهنة هذه السمات للتعرف على ثور أبيس؛ لأنها السمات التي تؤكد أنه تكرار الولادة الإعجازية بملامسة جسدية، التي حدثت لأول مرة في قصة أوزيريس (أوزير)، الذي التقى بالإلهة إيزيس «إيزي» من بعد موته، لينجب منها الإله حورس حور. وكان حور تجسيدًا للإله الأب أوزير، فهو أب وابن في أقنوم واحد، وتبع ذلك اعتقاد بعودة أوزير إلى الأرض بذات الأسلوب، عندما تدلهمُ المحن والخطوب بالناس، ليقر العدل ويقيم السلام، ومع عقيدة التسامح كان بإمكان روح أوزير، أن تحل في الحيوان الذي يرمز له، ويعرف باسم «عجل أبيس».

ويقول «عبد المحسن الخشاب»: «إن العجل أبيس يولد من بقرة، لا يخصبها ثور أرضي، إنما يخصبها القمر بشعاعه، ولم تزل عقيدة التخصيب بالقمر حتى لإنات البشر، تنتشر بين الطبقات الشعبية لدى عدد كبير من الشعوب، فيعتقد أنه إذا نامت الفتاة عارية تمامًا، على مرتفع في ضوء القمر، فإنها تحمل منه بوليد مقدس، فالعجل أبيس يولد من بقرة، يخصبها شعاع من أشعة القمر المخصب، وهي في حالة استعداد للحمل ... ويروي إيلياتوس أن شعاعًا هبط من السماء على بقرة، وهي في حالة استعداد للخصب، فولدت عجل أبيس الذي يسميه اليونانيون إيبافوس Epaphos، وعندهم أن أم هذا العجل هي أيو ... وبليني Plinius ... في كلامه عن العلامات التي تزين أبيس، يذكر أن أول ما يتميز به الثور أبيس هذا، بقعة بيضاء في شكل هلال قمري على جانبه الأيمن ... وكان المصريون يعتقدون في خصب القمر، حتى إنهم رمزوا إلى ابتداء الربيع، بقمر شهر فامينوث Phamenouth الجديد في هذه المناسبة، بعيد أسموه: أوزيريس في القمر، وهذا يعني أن أوزيريس هو المخصب كالربيع، وهو الذي يخصب البقرة أم أبيس بشعاع من القمر، ثم يذكر بلوتارخوس أن المصريين، كانوا يركزون قوة إخصاب أوزيريس في القمر؛ ولذا فمن الكهنة من يقول بأن إيزيس ليست سوى القمر، فتماثيلها التي تمثلها بالقرنين المتوجين لرأسها، ما هما إلا محاكاة لشكل الإله القمري ... وقد أكد إيودوكسوس

^٤ نفسه، ص ٩٧.

Eudoxos أن إيزيس هي الإلهة، التي يحتكم إليها الناس في شئون حياتهم الجنسية، فالناس يناجون القمر في الحب وأحواله.^٥

وقد سبق وعالجنا رمزية القمر الأسطورية في العقائد في كتابنا «الأسطورة والتراث»، وشرحنا فيه السر وراء ارتباط القمر بألهة الخصب الذكور؛ إذ إن تقديس الخصب قد تمثل في الحيوانات ذات الفحولة الجنسية كالثور والتيس؛ ولأن الهلال يأخذ شكل القرنين، فقد احتسب أحياناً ثوراً وأحياناً تيساً، باحتساب الهلال هو قرني الفحل السماوي المختفي. ونظراً لما جاء من إشارات عدة إلى علاقة القمر بالأنثى، وتناغم تحولاته — من محاق إلى هلال إلى تربيع إلى بدر، حتى يعود محاقاً مرة أخرى — مع دورة الدم الشهري النسوي، فقد احتسبه بعض دارسي الأساطير رمزاً للأنثى في العقائد القديمة. لكننا — في كتابنا المذكور — رأينا الرب الذي ينجب أبناءه بمعجزات، والزوج السماوي للإلهات في الإناث، الموكلات بالخصب والزرع والميلاد، وهو ما يفسر لنا هنا قصة حمل البقرة «أبو» بشعاع القمر المخصب، لتعيد إنتاج أوزير/الخصب/الزرع، مرة أخرى، ويتحول من أب إلى ابن في هيئة الثور أبيس. ومن هنا كان لا بد من تمثيل إيزيس في بقرة أحياناً، وفي هيئة امرأة تحمل على رأسها قرنين أحياناً، لكن الواضح أن أوزير رب الخصب المرتبط بمواسم الزراعة، ويصبح رباً للقمر أو هو نفسه القمر «تحوت/ضحوت/الضحاك».

ويؤكد ذلك ما وُجد على توابيت الدفن الفاخرة للثور أبيس، من نقوشٍ لمنازل القمر وأوجهه المختلفة،^٦ ويبدو أن الأسطورة قد دمجت أوزيريس بإله القمر ضحوت، ونسبت لكلٍ منهما صفات الآخر على التبادل، وأصبحت ألقاب الإله القمري هي ذات ألقاب أوزير: العارف، المتمرس في المعرفة، سيد السحر، مخترع الكتابة وواضع القوانين والناموس. أما اللقب الأهم الذي يعني هذه الدراسة، فهو أنه كان «سيد البلاد الأجنبية»، وهو لقبٌ قديم كان يشير إلى القمر، باعتباره رباً للصحارى والبدواة، فاحتسبوه دوماً رباً للساميين الرعاة، الذين يسكنون سيناء وبوادي الشام،^٧ لقد أصبح أوزيريس باعتباره قمراً «سيداً للبلاد الأجنبية»، ورباً للساميين من وجهة نظر مصرية؛ لذلك نجد الشهر المشار إليه يونانياً باسم «فامينوث»، هو ذاته الذي أطلق عليه المصريون شهر ضحوت، الذي خفف

^٥ نفسه، ص ١١٢، ١١٤.

^٦ سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ص ١٩٦.

^٧ ياروسلاف تشيرني، الديانة المصرية ... سبق ذكره، ص ٧٩، ٨٠.

نطقه إلى طوط أو توت، ولم يزل باسمه هذا في الروزنامة القبطية، فهو شهر القمر المرتبط بخصب الأرض وبداية الربيع.

ويرى «هيرودت» أن المصريين أبدًا، لم يبيعوا نحر الأبقار الإناث؛ لأنها مقدسة للإلهة الجليلة إيزيس، وهو ما يلتقي مع الحاجة الاقتصادية للأبقار الإناث والحفاظ عليها؛ لأنها المصنع الإنتاجي للمواليد، وإيزيس هي التي أسماها اليونان باسم «أيو Jo» ابنة «إناخوس Inakhos»، وكان الإغريق يصورونها في هيئة امرأة، يزينون رأسها بقرني بقرة.^٨

وفي ترجمات أوراق البردي الأرامية الخاصة بالمجتمع اليهودي، الذي عاش في أسوان بمصر عند Elephantine زمن الإمبراطورية المصرية، إشارات واضحة إلى أن اليهود الذين انفصلوا عن شعبهم وعاشوا هناك، ولم يعرفوا التطور الذي شهدته ديانتهم، بعد الخروج من مصر إلى فلسطين، حفظوا لنا مرحلة قديمة من اليهودية، حيث وجد لدى تلك الجالية عبادة الإله اليهودي المعروف «يهوه»، لكن إلى جواره إلهة أنثى هي زوجته باسم «إناث ياهو»، أو الأنثى يهوه أو يهوه المؤنث،^٩ وهو الأمر الذي يلتقي بوضوح مع تسمية إيزيس باسم «إيو»، التي هي «ياهو» بدون مشاكل لغوية.

وبقراءة التوراة تعلم أن موسى عندما أراد الخروج ببني إسرائيل المستعبدين في مصر، ساق حجة للفرعون يقول فيها إن دينهم يلزمهم بذبح ذبيحة لله في يوم بعينه، وإن تلك الذبيحة يحرم ذبحها عند المصريين؛ لذلك هم بحاجة إلى الخروج من عاصمة الملك إلى الصحراء ليقيموا عيدهم، وهنا رد عليهم الفرعون بقوله:

اذهبوا فاذبحوا لإلهكم في هذه الأرض، فقال موسى: لا يصح أن نفعل هكذا؛ لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلها، وإن ذبحنا رجس المصريين أمام أعينهم أفلا يرجموننا؟ نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلها كما يقول لنا.

(سفر الخروج، ٨: ٢٥-٢٧)

^٨ هيرودت في مصر، ... سبق ذكره، ١١٢١.

^٩ كمال الصليبي، التوراة جاءت ... سبق ذكره، ص ٥٥؛ انظر أيضًا سيجموند فرويد، موسى، ... سبق ذكره، ص ٧٩.

وهكذا كانت الحجة أو لحظة الخروج من العاصمة مسيرة ثلاثة أيام، ليزبحوا حيواناً مُحَرَّمًا عند المصريين منعاً للفتن، لكن ليكون ذلك سبيلهم إلى الهرب من مصر، بعد أن يبتعدوا عن العاصمة بمسافة تجعلهم بمأمن من المطاردة عندما تبدأ. لكننا لا نجد بعد ذلك أية تفاصيل لأي ذبح، اللهم إلا ذبح الخراف على عتبات أبواب بيوتهم بمصر، ليلة الخروج وهو ليس الذبح المقصود، ثم لا تأتينا بعد ذلك قصة ذبح أي حيوان إبان رحلة الخروج، اللهم إلا في قصة عبادة الثور الذهبي، ولا نجد حديثاً آخر عن الذبح حدث في سيناء غير تشريع القسامة، وهو ما لا علاقة له بالأصول التعبدية بالقرابين الحيوانية. هنا تأتي القصة القرآنية فتسد الفجوة المفقودة، وتروي لنا ذكريات قديمة عن ذبح مقدس، قد حدث فعلاً بعد الخروج من مصر إلى سيناء، وتعطينا وصفاً دقيقاً لهذا الذبح المقدس، فهو ذبح لبقرة ذات سمات خاصة جداً، فهي صغيرة مدللة لم تحمل نير المحراث، ولونها أصفر فاقح تماماً دون شائبة.

وهنا نعرف من المؤرخ اليوناني «بلوتارخوس» أن المصريين كانوا ييبحون ذبح الثيران الصفراء؛ لأنها مغراء حمراء أي بلون رب الشر ست،^{١٠} ثم يخبرنا «ديودور الصقلي» أن ذبح الثيران الصفراء أو الحمراء كان مباحاً في العقيدة الأوزيرية، فلماذا موسى من المصريين عند قراره ذبح ذبيحة صفراء لإلهه؟ يبدو أن السر وراء ذلك هو أن الذبيحة لم تكن ثوراً إنما بقرة أنثى. لقد كان ذبحاً لإيزيس العدو الإلهي للرب سيت، حسب الأسطورة المصرية القديمة.

ويردد «هيروdot» حكاية يقول إنها حدثت في زمانه، وتتلخص في أن أهل مدينتي ماريا وأبيس على أطراف مصر الغربية، أرسلوا إلى كهنة آمون يقولون إنهم ليسوا مصريين بل ليبينون؛ لذلك يطلبون السماح لهم بأكل لحم البقرة الإناث، لكن جاء الرد من وحي معبد آمون في سيوة برفض هذا الطلب بحزم،^{١١} مما يشير إلى تحريم صارم لذبح إناث البقر، ويعقب «الخشاب» بقوله: «فالمصريون يعتقدون بأن إله الشر المصري لونه أحمر أصهب؛ لذلك خصصوا للأضاحي من بين مواشيهم تلك التي يكون لونها أشقر تماماً، إذ إنهم كانوا يعتقدون أن أوزيريس أسمر، فكان اللون الأسود عندهم مقدساً.»^{١٢}

^{١٠} عبد المحسن الخشاب، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ص ١٢.

^{١١} هيروdot في مصر ... سبق ذكره، ص ٩٣، ٩٤.

^{١٢} الخشاب، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ص ٩٦.

ويضيف هيروت أنه بعد تقديم الذبيحة، كانت أحشاؤها ودهونها جميعاً، تُحرق على مذبح الإله،^{١٣} وهو ذات الأسلوب الذي أقرته التوراة بعد ذلك في تقدماتها لربها يهوه، ومعها تكرر العبارة «وقود رائحة سرور للرب».

ثم نقرأ في تاريخ مصر كلاماً غير واضح وملتبساً، عن اعتقاد المصري القديم فيما يُسمى بالجلد الشافي، ذلك الذي نراه مُعلّقاً على عصا في كثيرٍ من لوحات مصر القديمة، ولونه أصفر فاقع.^{١٤} ويبدو أنه كان رمزاً للإله ست نفسه، بعد ذبحه مُمثلاً في ثورٍ أصفر. وكان المُعتقد دوماً عند الشعوب القديمة، أنه بعد إنزال العقاب بمرتكب الإثم، يتحول إلى كائنٍ مقدس يمكنه شفاء المرضى، ولا تطأ قدماه أرضاً إلا أصبحت أرضاً مباركة، وهو ما يمكنه تفسير مسألة الجلد الشافي الذي تحول بصاحبه «ست» من اللعنة إلى النعمة، ونجد لذلك أمثلة كثيرة لدى أساطير الشعوب القديمة، أقصد التحول من الحالة الشرية إلى الخيرية بعد إنزال العقاب الملائم بالشرير. ومنها مثلاً قصة أوديب اليونانية، التي ارتكب فيها أوديب أفظع جرم، لكنه بعدما لاقاه من عقابٍ هائل تحوّل من إنسانٍ مبارك يشفي من يلمسه. ثم يقول «عبد المحسن الخشاب»: فكان للون الأصفر عند بني إسرائيل شأن خاص ومغزى هام؛ ولذا فقد صنعوا الثور الذي ارتدوا إلى عبادته في سيناء من الذهب، لا من معدنٍ آخر غير الذهب الأصيل ... دليلاً على ما في قلوبهم من إيمانٍ شديد بالتقليد المصري الذي كانوا يتبعونه في مصر، من عبادة إلههم ست الذي كان البقر الأصفر الذي لا شية فيه بلون معبودهم، وشدة تمسكهم برمزه الأصفر الخالص. إن الثور كان معبوداً في الشرق الأوسط بكامله ... وكان ذكره وارداً في ألقاب وصفات الممتازين من الحكام والقادة، وظلت هذه الألقاب الدالة على انتماء هذه الشخصيات البارزة الرفيعة القدر ... وقد وردت هذه الألقاب كقولٍ في النصوص الإنجيلية، بلغتها الأولى العبرية بعد العصر الوثني، ثم أبعدت الترجمات الأخرى بما يوافق روح المسيحية ... فقط ورد في (التكوين، ٢٢ / ٢٤) إشارة إلى ذلك بعد أن انمحت صفة يوسف: الثور الصغير ... وأبعد تعبير «ثور يعقوب»، وبديل إلى عزيز يعقوب ... لذا فقد علق كونراد على هذا التصحيح بقوله: «إن ذلك كان تناسياً للأساس التاريخي للعبادة في الشرق القديم ... ويوسف كان في زمرة

^{١٣} هيروت في مصر ... سبق ذكره، ص ١٣١.

^{١٤} فرانسوا دوماس، آلهة مصر ... سبق ذكره، ص ٧٤، ٧٥.

الهكسوس الذين عبدوا ست الإله المصري، ووصفه بالثور الصغير تكريم له كحاكم ... ثم إن ترجمة الإنجيل اللاتينية المسماة يشوع Volgate — كما يذكر كونراد — تذكر أن موسى كان بقرني ثور، ولا تقول هذه الترجمة: على رأسه هالة. وهما تعبيران بمعنى عبري واحد. وذهب بعض المفسرين إلى أن الهالة نشأت أصلاً من تتويج الرأس بقرني ثور.^{١٥} ويضيف «أن يشوع Jushua الذي قاد اليهود إلى كنعان، كان من قبيلة إفرايم Ephraim، وهو اسم مشتق من اسم الثور».^{١٦}

أما نحن فقد ألحنا في كتابنا «قصة الخلق: منابع سفر التكوين» إلى أن اسم الإله اليهودي «يهوه» أو «جوفاه»، ليست في وجوب نطقها السليم سوى صوت خوار الثور بكل دقة، حيث ينبهنا «لودز» إلى صحيح نطقه الذي يجب أن يبدأ بفتح ثم سجد طويلاً.^{١٧} ومن جانبه أشار «شتاده» أن معنى اسم يهوه: المسقط، أي الذي يسقط البروق على الأعداء؛ لأن «هوى» بمعنى «سقط»،^{١٨} إلا أن «فلهاوزن» يرى الاسم يهوه من «هوى» في العربية بمعنى الهواء؛ فهو الذي يهب أو هو رب العاصمة.^{١٩}

والقمر في نظر الأقدمين كان جرماً عظيماً كالشمس، لكنه بالنسبة لها غير مستقر الأحوال، فسلوكه «هوائي»، وحتى اليوم نصف الشخص متقلب المزاج بأنه «هوائي».

إذن كان الذبح الذي يتعلل به موسى، للخروج من مدينة الفرعون إلى الصحراء، حتى لا يستفز مشاعر المصريين، كان ذبحاً لإله يرمز طوطمياً للعشاء الرباني، الذي مارسه شعوب عديدة، فكانت تأكل ربها في يوم معلوم يكون عيدهم السنوي، وكان لونه الأشقر دلالة واضحة تشير إلى الإله المصري «سيت»، لكنه كان بقرة أنثى. وهنا يطفر السؤال: هل كان ذبح البقرة التي ترمز لإيزيس، وتحمل أيضاً اسم ايو أو يهو الأنثى لمجرد استفزاز مشاعر المصريين؟ لو كان ذلك كذلك لذبحوها داخل العاصمة المرية، فلماذا ذهبوا بعيداً عن أعين المصريين ليزبحوها؟

^{١٥} الخشاب، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ص ١٠٠، ١٠١.

^{١٦} نفسه، ص ١٠٥.

^{١٧} Lods, A, Israel from its beginnings to the middle of Eighth Century, London, 1963, pp.

321-322.

^{١٨} Stade, B., Lehrbuch der hebräischen Grammatik, Libzig, 1949, p. 429.

^{١٩} Wallhausen, J. Die Biblischen ater tu mer, Calw and Stuttgart.

نفهم من هيروت وغيره من المؤرخين الكلاسيك، أن المصريين بدورهم كانوا يذبحون البقرة الأنثى الصفراء الفاقعة اللون المدللة، لكن في يومٍ احتفالي بعينه معلوم الشأن، هو يوم الاحتفال بعيد القيامة المجيد للإله الشهيد أوزير، لكن ليس لدينا أية إفادة من المصادر المصرية، تفيد السر وراء ذلك التناقض الشديد، بين تحريم ذبح إناث البقر، وبين ذبح بقرة أنثى صفراء، في ذلك اليوم الديني الاحتفالي.

هنا تفسر لنا القصة القرآنية ما حدث ...

في لوحةٍ وقعنا عليها بكتاب الموتى المصري القديم، تضيف مزيدًا من الوضوح على التفسير.

اللوحة تمثل الإله أوزير ميتًا شهيدًا داخل تابوته، ممثلًا في هيئة أقنوم الابن «الصقر سوكر»، أي تجليه الجديد في هيئة ابن ميت. وكان الاعتقاد أن أوزير يعود حيًا من بعد موته بأيامٍ ثلاثة، يحتفل فيها المصري بعيد قيامة أوزير المجيدة. وفي اللوحة تقف أنثى فرس النهر «ميهورت» أمام الإله الميت. وتنطق «ميهورت» أيضًا «ماروت»، وهي إلهة الولادة المصرية، ورعاية الأجنة في بطون الأمهات، تمسك أداة تعقب عليها شروح الباحثة «إيفلين روزيتر»، بأنها أداة غير معروفة على وجه التحديد.

The exact nature of the object held by Hathor in her right hand is uncertain.

وتضرب «ميهورت» أو ماروت الإله الميت بتلك الأداة، لكل الواضح لنا. وفي اللوحة أمام القارئ أن تلك الأداة ذيل بقرة، هذا بينما تظل البقرة الإلهية إيزيس في شكل أحد تجلياتها المعروفة باسم «حتحور». وجاءت في الترجمة باسم «هاروت»، في يمين الصورة في شكلٍ شديد التدلُّل مع الزينة والماكياج واللطافة.

إن اللوحة تذكرنا بكون إيزيس هي التي أحيت أوزيريس، بسحرها من الموت في أسطورتها التي جمعها لنا بلوتارخوس، لكننا أبدًا لم نعلم في أي مصدر كان، كيف أحيت إيزيس أوزير من الموت، أي ماذا كانت مظاهر ذلك السحر وأدواته. هنا والآن فقط عرفنا، لقد مارست الإلهة هذا الطقس السحري. أما ربة الولادة في اللوحة «ماروت»، فترمز لعودة ولادة الإله من جديد في أقنوم الابن، لكنه كي يقوم من الموت؛ فإن إلهة الولادة تضربه بذيل البقرة إيزيس (والصفرة واضحة في لونه)، ترميزًا لدورها في عودة الإله إلى الحياة. ولأننا نفقد تمامًا أي مادة أركيولوجية مفيدة هنا، أو حتى اجتهدية من المؤرخين، فإننا وفق ذلك جميعه يمكننا افتراض أنه كان هناك شعيرة، يصحو فيها أوزيريس وينطق

فيها باسم قاتله وهو الشرير «سيت»، ويساعد على مزيد من الفهم وعلى تأكيد الفهم، أنه كان في مصر القديمة طقس معلوم، يمارس مع الإله في محرابه، أو بالأحرى مع تمثاله، كما كان يمارس مع الميت بعد تحنيطه، لمساعدته على الكلام والإجابة عما سيوجه له من أسئلة، في قاعدة الحساب الأوزيرية بعد البعث، وهو الطقس المعروف باسم «فتح الفم». ويقول «ياروسلاف»: «كان طقس فتح الفم يتكون من عدة أفعال، يحتل فيها الفم نقطة مركزية ... ثم يذبح بعد ذلك ثور وتقطع أطرافه وينزع منه القلب ... وكانت الأطراف الأمامية والقلب تقدم إلى التمثال، ويلمس الفم بالقدم الأمامية ... ثم يقدم الماء، وهذه المراسم كان يفترض أنها تؤدي إلى فتح فم وأعين التمثال، وتهبها قدرات وملكات الشخص الحي».^{٢٠}

لقد كان ذبح البقرة «أيو» تكررًا لمشهد قيامة أوزيريس ليس أكثر، ليقوم أوزيريس من الموت وينطق باسم قاتله، وهو في الوقت ذاته استحضار لعدو المصريين سيت، عبر النطق باسمه بلسان أوزير الميت الحي؛ لأنه كان يحرم نطق البشر العاديين باسمه، وكان النطق وحده هو ما يسمى بالنطق الخلاق، أو النطق المجسد.

كانت قصة بقرة بني إسرائيل استحضارًا سحريًا للإله ست رب الهكسوس ورب إسرائيل باسم «يهوه»، ليقود بنفسه جموع الخارجين من مصر عبر سيناء إلى فلسطين، منطوقًا بلسان الإله الشهيد أوزير، بفعلٍ سحريٍ ذُبحت بموجبه إيزيس البقرة الصفراء، حتى يمكن إتمام النطق المتجسد في الإله قائد جموع الخارجين الإله «سيت».

وهكذا فإن يهود ألفتين الذين أقاموا لهم جالية بأسوان، قد احتفظوا من عبادتهم بأصول قديمة، لم تعرف التطور الذي حدث لها في فلسطين، فعبدوا ربًا باسم يهوه ومعه زوجة باسم إناث يهو، ثم نعلم من الأساطير المرية أن إيزيس كانت باسم «أيو» المؤنث من «يهوه».

[انظر الشكل رقم «٢٢٠»]

وكان معظم الخارجين من مصر من أتباع التقليد الأوزيري، الذين حافظوا عليه فلم ينطقوا أبدًا باسم ربهم، وأسموه الكائن احترامًا وتقديسًا، وهو ما كان يفعله المصريون إزاء أوزيريس. ومع تطور آخر أصبح أوزيريس ربًا للقمر، فاندمج بالإله القمر ضحوت،

^{٢٠} ياروسلاف تشيرني، الديانة المصرية ... سبق ذكره، ص ١٤٧، ١٤٨.

كي يتمكن من تخصيص البقرة «ايو/إيزيس». ويبدو أن هذا التطوير قد تم على يد أجنبى كانوا يعيشون في مصر، بدليل أن ضحوت المندمج بأوزير القمر، قد حمل لقب «سيد البلاد الأجنبية».

والمهم هنا أن موعد ذبح إيزيس البقرة الصفراء في الوليمة الطمونية في العيد المصري القديم لقيامة أوزير من الموت، هو ذات موعد خروج الإسرائيليين من مصر ليذبحوا ذبحهم، وهو المسمى بيوم عيد الفصح، يوم كيبور/الغفران.

وبمرور الوقت وللتغطية على الأصول الأسطورية المصرية، تم تبديل اسم يعقوب من «ثور يعقوب»، الذي يعني يعقوب الثور أو الأبيسي نسبةً للثور أبيس، إلى «عزيز يعقوب»، وهو يعقوب العزيز الذي حمل بدوره أصولاً أسطورية؛ لأن عزيز مذكر للمؤنث عزيزة، وعزيزة هي إيزي زوجة أوزير. أما المدهش فهو أن يتحول اسم يعقوب — بعد صراعه مع ربه في نص بالكتاب المقدس — إلى اسم إسرائيل، لكنه يظل يحمل في طياته أصوله الصادقة؛ لأننا هنا نستبعد كل التخريجات التي قيلت في تفسير كلمة إسرائيل، لنقول تخريجاً جديداً هو أن الاسم يتكون من ملصقين هما: «إزر» و«إيل» فهو «إزرائيل»، والشق «إزر» هو الاسم المنطوق مصرياً بكل سلامة لاسم الإله أوزيريس. وهكذا يعني الاسم إسرائيل معنىً جديداً هو «أوزير إله». ويمكن أن يتطابق هذا التخريج أيضاً مع جبال «سراه» (سر-إيل/اسم إسرائيل بالعبرية).

[انظر حكاية البقرة مرسومة بكتاب الموتى المصري: شكل رقم «٢٢١»]

الفصل الثالث

دور العقائد الميتانية

لعلنا نذكر كيف كانت أهم تجليات الإله السيناوي، سواء كان عند جبل الشريعة أو في جبال أدوم سدير، هي التجلي الخصبي ممثلاً في قضيب الذكر/المشروم/البركان، وأن البركان عندما يقذف بمصهوراته، مع هيئته المرتفعة كالقضيب العظيم ومقذفه القوي، وما يؤدي إليه من خصوصية عالية في الأرض، أدى إلى تصويره قضيباً إلهياً عظيماً، يلقي بمنيه ليخصب التربة. وهو ما يبرر لي شخصياً أمراً حرت فيه طويلاً، حيث كانت كل الديانات الخصيبة عند الشعوب القديمة، تنظر إلى الأرض باعتبارها إلهة أنثى تلد الزرع، وترى السماء إلهاً ذكراً دائم التخصيب لأنثاه الأرض بمنيه الطري وببساطة؛ لأن السماء فوق والأرض تحت، عدا المصريون تحديداً، الذين تفردوا بجعل الأرض إلهاً ذكراً هو الإله «جب»، يلقيح السماء الأنثى نوت لتلد الكون والكائنات. وقد وجدت في مسألة القضيب الإلهي/البركان تفسيراً واضحاً للأمر، فهو قضيب الأرض الإله المذكر، الذي يقذف بحممه التي تأخذ شكل المشروم المختون ختائاً نموذجياً، فيتصورونه قاذفاً بالكائنات وبالنجوم، ومصدراً لخصب الأرض، وتصبح نوت السماء بذلك إلهة أنثى، تقبل مقذوفاته لصنع الحياة. وقد علمنا من أسطورة تيفون، أنه كان حبيباً تحت بركان، وأن دمدمات البركان لم تكن سوى صوت هذا الإله الحبيب. والطريف أن اسم الذكر الإلهي جب «الأرض» هو أحد أسماء الإله سيت، فهو الجبت والطاغوت، وهو الأمر الذي يضيف مزيداً من الرصيد، لتحديدنا بلاد بونت بأنها شرقي سيناء/أدوم، ووصفها دون غيرها في نصوص مصر بأنها أرض الإله؛ لأن هناك كان البركان العظيم، أعظم ظاهرة يمكن أن تسلب لب الإنسان. وهناك كانت تقع ميطان أو مديان.

والمعلوم إضافة للبركان الذي وصفته التوراة في سرد يضعه قرب قبل كاترين الحالي، فإن بلاد السراة كانت — كما تدل تربتها الآن — مركزاً لأكثر من بركانٍ نشط في ذلك

الزمان، ونذكر المسمى الإلهي «ود» أحد أرباب السراة، وأنه كان هو نفسه «هد» «هداد» «حداد»، ونقلنا عن أن «يهود» يمكن ردها إلى «ه-ود».

كانت العبادة هناك متعددة التجليات نعم، لكن الخصب والجنس كان عمادها وعمودها وعمدتها. ومن هنا نفهم السر في ذلك العُري العجيب في فنون العمارنة، ولماذا كان نفرتيتي وتي وبناتهما يظهران عرايا الفروج أمام الناس. لقد كان إفصاحاً عن طقس لا بد يلزم العبادة الجنسية التي تقُدس أعضاء التناسل، ولا ترى في إظهارها عيباً ولا كارثة أخلاقية، بل لوناً من الاحترام الواجب واللائق للمقدس، والإعلان عن هذه العبادة بسفورٍ اعتزازاً بها وتقديساً لمعناها؛ لأن إخناتون كان دوماً يؤكد أنه الفرعون الذي يعيش في الحقيقة.

ولا يفوت عيناً مدققة أن الذين ذهبوا إلى أن يويا وتويا، والذي الملكة تي زوجة أمنحتب الثالث مصريان من بلدة إخميم، قد قالوا بمصريتهما لأن يويا كان كاهناً للإله «مين» في بلدة إخميم، ويفترض أنه نشأ هنا وربى وتدرج في مدارج السلك الكهنوتي حتى صار كبير كهنة «مين»، ويقول هنا أدولف إرمان: «إن مين هو إله المنطقة بين إخميم وقفت وبين طيبة وأرمنت، وقد صوروه على شكل رجل بقضيب منتصب، وعلى رأسه ريشتان عاليتان، وذراعه اليمنى مرفوعة وبيده سوط مثنت في النهاية، وعده المصريون القدامي إله خصب يسرق الناس وسيداً للعذارى. وتذكر الأساطير كونه قد أخصب أمه، والتي قام بها حسب أسطورة أخرى إله الشمس، وهو إله خصوبة الأرض. واعتبر مين أيضاً إله البقاع الشرقية والمنطقة بين البحر الأحمر والنيل والذي تسير فيه القوافل، وهو إله الصحراء الشرقية، كما عبده أهل بونت، وربما قدس في وقتٍ ما بطيبة، وهو مقابل الإله بان عند اليونان» (رب المعيز الشبقي).^١

ولنراجع هنا تلك الصورة التي مثل المصريون بها إله الشبق والجنس والخصب مين، فعلى رأسه ريشتان والريشة سمة الملوكية عند البدو الرعاة، وذراعه الأيمن المرفوع هو صورة دائمة متكررة للإله البعل حداد بعل صافون، والسوط المثنت الذي يمسك به هو الصاعقة ذات الثلاث شعب التي يحملها البعل، وهي الأمور كلها التي تؤكد أن مين كان أحد التصورات المصرية للبعل حداد، إله الجبل الأقرع عند آدوم وشرقي سيناء حيث مديان/ميتان وآدوم. ويؤكد ذلك أن المصريين اعتقدوا أنه رب المناطق الواقعة في صحارى

^١ إدولف إرمان، ٤٢، ٤٤.

شرقي مصر، على طريق القوافل التجارية. أما الأكثر إبهاراً هو القول إنه كان رب بونت، التي رأيناها لا تقع في الصومال، إنما تقع عند العقبة والبتراء حتى البحر الميت. لقد جاء شورتانا أويثرون إلى مصر حسب نظريتنا لاجئاً على زوج ابنته ملك مصر، ليحمل اسم «يويا»، ويكرس كاهناً للإله البعل، الذي كان يعبد في وطنه، لكن باسم مصري قديم هو «مين» الرب القضيبى، الذي تم تصويره هنا في هيئة رجل بقضيبٍ منتصب. أما أن يتم العثور على تمثال الملكة تي الأشهر في سيناء تحديداً، على مسافةٍ لا تتجاوز العشر كيلومترات إلى الغرب من جبل كاترين، المظنون أنه كان الجبل المقدس حوريب في التوراة، وأنه كان الجبل البركاني، فهي دلالات أخرى تؤكد صدق ما ذهبنا إليه، ناهيك عن تكوين وجه تي الأسمر السيناوي الواضح، الذي لا يمت للجنس المصري المعروف لدينا آنذاك بصلة.

المهم لدينا هنا أن «مين» كان يخصب أمه (!؟) وهو أمرٌ لا يستهجنه المصريون تماماً، كلون من التقاليد البشرية الاجتماعية، لكنهم كانوا لا يرون فيه عيباً على مستوى الآلهة، فيجوز لها ما لا يجوز للبشر، ولم يقتصر نكاح الأم على الإله المشكوك في مصريته «مين»، بل نجده واضحاً معلناً لدى الرب الأعلى والأكبر، إله الملوكية والإمبراطورية، رب طيبة الأعظم ورب الإمبراطورية المصرية «آمون» أو «أمين». انظر مثلاً تلك الترتيلة التي كانت تتلى في قدس أقداس آمون بالكرنك يوم الصلاة الجامعة:

الحمد لك يا آمون رع يا رب الكرنك،
المسيطر في طيبة،
ثور أمه وأهم من في حقله،
واسع الخطى وسيد كل من في الصعيد،
رب أرض الماتوي وأمير بونت،
من تحب الآلهة رائحته الطيبة عندما يأتي من بونت.
وتتوضع رائحته عندما يأتي من أرض الماتوي،
عندما يأتي من أرض الإله.^٢

^٢ د. أحمد فخري، تاريخ شبه جزيرة ... سبق ذكره، ص ١٦٤.

ويشرح هنا «أحمد فخري» في حاشية على تلك الترتيلة، بقوله: «إن التعبير «ثور أمه» لقب من ألقاب آمون، وإن الإشارة هنا للأم يقصد بها ربة السماء نوت؛ لأن هناك نصوصاً أخرى تذكرها باعتبارها زوجة آمون».^٣ ومعنى النص هنا مع تعقيب فخري، إنما يعني أن آمون كان يخصب أمه السماء. ولعله يلتقي التقاءً واضحاً مع تفسيرنا السابق لعلاقة البركان بالسماء، ويتأكد لدينا علاقة هذا الجماع الإلهي بين الإلهة الأم والإله الابن، في قول الترتيلة أن آمون ثور أمه، والثور كان رمز الخصب الأول في المجتمعات الإنسانية القديمة على التعميم. وقد ربطت الترتيلة بين هذا الجماع التخصصي وبين كون آمون هو أهم من في الحقل، أي إنه المخصب الطبيعي الأول، الذي بفعله هذا يتكاثر الزرع والخير في الحقول. أما الأهم هنا فهو ما تؤكدته تلك الصلوات المرتلة من صدق نظريتنا، التي يطلب عودها «الخرساني» طوال الوقت، حيث تؤكد الترتيلة أن آمون رب طيبة، ليس فقط رباً في مصر، إنما هو أيضاً رب بلاد بونت، التي تتكرر مرتين على التبادل مع أرض الماتوي، والماتوي هو الميتان أو ميتاني أو كما ذهبنا نحن، هي مديان بسيناء الشرقية. وقد قام فرضنا التأسيسي على أن بلاد ميتان تقع في محيط وادي عربية، كذلك تقع هناك بلاد بونت حيث عاش تجار العالم القديم، وكانت أهم بضائعه التين والعطور والبخور (اللبان على أنواعه وألوانه)، وهو ما تؤكدته الترتيلة بمجيء آمون من هناك مضوئاً بالروائح الطيبة. وزيادةً في التأكيد فإن الترتيلة تؤكد لنا نظريتنا فتقول: إن هناك كانت تقع «أرض الإله»، التسمية المصرية المتكررة لبلاد بونت.

وفي نصوصٍ مصرية أخرى نجد الإله حورس يُلقب بـ «ثور السماء»، الذي هو «زوج لأمه التي تلده مرة أخرى»؛ لذلك كان لقبه الثاني هو «عجل أمه التي تحمل منه وفيه»، وقد عقب «كونراد» على هذا الشذوذ في العلاقات الاجتماعية بجماع الأم أو الأخت أو البنت، بأنه كان ينعكس فقط في التقاليد الملكية، وإن لم يشرح لنا «كونراد» كيف كان ذلك وما هي براهينه؟^٤

ومن جانبه يقول لنا المؤرخ وعالم المصريات «سليم حسن» إن «أعظم الآلهة المحيلة التي كانت تعبد في الدلتا، هو الإله آتون الإله المحلي للمقاطعة الثالثة عشرة ومقرها عين

^٣ الموضع نفسه.

^٤ الخشاب، تاريخ اليهود ... سبق ذكره، ص ١٢٩.

شمس ... هناك تمثل الشمس على هيئة عجل من الذهب ولدته إلهة السماء، وفي خلال النهار يكبر ويصبح ثورًا ويسمى كاموتف أي ثور أمه؛ لأنه يلحق البقرة لأجل أن تضع شمسًا جديدة لليوم التالي»^٥.

والمعلوم أن المصري القديم كان يتصور السماء، في هيئة بقرة عظيمة هائلة تلد النجوم والكواكب التي ترصع بطنها، ويبدو لنا أن هذا الخلط الابتدائي الضروري للخصب بين ابن يلحق أمه، ويكون هو أبو نفسه الذي يولد بعد ذلك، كان تأسيسًا لذات الخلط بيت ذات الأقانيم في آخر الديانات الخصبية الفدائية، حيث أصبح يسوع المسيح هو الله، وهو ابن الله في وقت واحد، فكان يسوع أبًا لنفسه.

وما دمنّا بصدد المسيح وزمنه، نلمح إلماحًا خاطفًا إلى أن زمن المسيح، كانت فلسطين تحت النير الروماني، وقد أجهض الرومان عدة ثورات يهودية ضدهم، وقام الرومان بتعيين وإل من قبلهم، أتوا به من بلاد آدوم، كما تم تكوين هيئة حكومية تابعة وموالية جميعًا للرومان، وكلها آدوميون متهودون، وكان الوالي هو «هيرود أنتباتس الآدومي»، ورئيس مجمع السند هارين كان آدوميًا بدوره، وحمل اسمًا شديد التصديق على كشفنا، بشأن بلاد بونت باعتبارها بلاد آدوم، فقد كان رئيس السند هارين القادم من بلاد آدوم، يحمل لقبًا ينسبه إلى وطنه، فهو بيلاطس «البنطي» نسبة إلى موطنه بنط/ بنت/ آدوم.

وإذا كانت المسيحية هي الامتداد الواضح المطابق في كل تفاصيله لديانات الخصب القديمة عمومًا، وللأوزيرية المصرية خصوصًا، فإن لكتانيتوس الكاتب المسيحي المخلص، وصف في القرن الثالث الميلادي تمثيلية آلام وقيام أوزير من بين الموتى، بعد ثلاثة أيام من موته في عيد القيامة المجيد، أكد فيها أن المسرحية جعلت من أوزيريس زوجًا لإيزيس وابناً لها في الوقت نفسه^٦، وقد فسر كلام لكتانيتوس — وحتى الآن — باعتباره لم يفهم المسرحية؛ لأن حور كان هو الابن وليس أوزير.

وإذا كانت القواعد الاجتماعية في مصر، قد حرمت مبكرًا زواج الرجل من أمه أو ابنته، ورسخت تلك القاعدة بمرور الوقت، حتى أصبحت جريمة ووزرًا يستحق الاستهجان والعقاب الشديد بين بني البشر، وأنهم لم يرو ذلك نقيصةً في عالم الآلهة لأنها آلهة؛

^٥ سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٨، ١٩٩.

^٦ شكري عياد، البطل ... سبق ذكره، ص ١٣٣.

فإن عالم الشرق القديم كان جميعه، كان لم يزل ينظر إلى وجوب التخصيب بين الأم الإلهية وولدها، كضرورة لتخصيب الأرض والزرع والحيوان والإنسان، باعتباره فعلاً إلهياً مقدساً وسنة يحتذى بها الناس، ففي الملاحم البابلية نجد الإله القمري «إنليل، أو ياليل، أو ليل»، بعد فصله للسماء عن الأرض، يجامع أمه «كي» الأرض، وبتاحدهما (القمر السماوي وكي الأرض)، يخصب الكون ويخلق الإنسان على الأرض.^٧

والمعلوم أنه في بابل وبلاد العراق والشام القديم، كانت العبادات الجنسية الخصبية تمارس على نطاق واسع، وفي أعياد عشتار وتموز وأدونيس كانت حفلات الجنس الجماعي، التي تتم في العراء على العلن تتفشى تفشياً هائلاً، أي رجل لأي امرأة حضاً للطبيعة وتقليداً للآلهة؛ كي تحرض القوى الإخصابية الكونية.

لكن بعض الفرق الدينية كانت تجعل من جماع المحارم أحد الفروض الدينية، كما سبق وشرح لنا فليكوفسكي، وأن ذلك كان يتم في بلاد ميثان، التي احتسبها تقع شمال فارس، وبحسبان ذلك التقليد تقليداً فارسياً أرياً، لكننا نقرأ عند المؤرخ «هروشيوش» أن سميراميس الملكة البابلية المشهورة كانت من أتباع تلك العقيدة، فيحكي عن كونها كانت تعلن أنه «لا ينبغي أن يكون بين الآباء وأبنائهم حشمة، ولا امتناع في مناكحة بعضهم بعضاً كيفما أرادوا ذلك، ويقال إن من سببها صار في العراق إتيان الأمهات والبنات».^٨

والمعلوم أن المجوسية نحلة فارسية أريّة، وعن أصحابها يقول المؤرخ العربي المسعودي: «وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف في النكاح بين البطون ولم يتحرّ المخالفة، ولهم في هذا المعنى سر يدعون فيه الفضل في صلاح الحال، بتزويج الأخ من أخته والأم من ابنها».^٩ وبشكل هُلامي غير واضح أدرك المؤرخون القدامى، أن هناك علاقة ما تربط بين المجوسي واليهودي، وتلك علاقة علمناها واضحة في بحثنا هذا، حيث نشأت اليهودية وربت مع الجنس الإسرائيلي الأرامي، ومع الآريين (المجوس بعد ذلك) في النقب وأدوم وشرقي سيناء. وتأكيذاً لذلك روى المسعودي حواراً حدث في بلاط أحمد بن طولون بقاهرة المعز، بين مصري قبطي وبين طبيب يهودي؛ إذ قال المصري لليهودي: أنت

^٧ حسني حداد وسليم مجاصص، بعل هداد ... سبق ذكره، ص ٤٢.

^٨ أورسيوس، تاريخ العالم ... سبق ذكره، ص ٩٣.

^٩ المسعودي، مروج الذهب ... سبق ذكره، ج ١، ص ٣٥.

مجوسي. فتعجب اليهودي من وصفه بالمجوسي، فقام المصري القبطي يشرح ذلك؛ لأنهم يشرعون كالمجوس؛ فالرجل يتزوج بنت أخيه، وإذا مات فعلى أخيه أن يتزوج زوجة أخيه الميت، لينجب منها نسلاً باسم أخيه الميت. وفي هذه الحال فإن هذه الأرملة ربما كانت بنته. وتأكد ابن طولون بالبحث أن ذلك الطبيب اليهودي تحديداً، كان شهادة دامغة على صدق المصري؛ إذ ثبت أن هذا اليهودي قد تزوج امرأة أخيه وكانت ابنته. ولما احتدم النقاش بين المصري واليهودي، قرر المصري تقييحه بشهادة تلمودية، فقال له: «إن الابن الأكبر — من كفرهم — قولهم في يوم عيد الكفور، وهو يوم الاستغفار [أي كيبور عيد الغفران/المؤلف]، وذلك لعشر تخلو من تشرين الأول، أن الرب الصغير ويسمونه ميظطرون، يقوم في هذا اليوم قائماً، وينتف شعر رأسه ويقول: ويلي إذ خربت بيتي وأيتمت بنتي، فأمتي مُنكسة لا أرفعها حتى آتي بنتي».^{١٠}

ويقول «علي عبد الواحد وافي» عن أساليب النكاح حسب شرعة يهود القديمة: «جاء في تلمودهم أن الولد الإسرائيلي، لا يعاقب إذا زنى بأمة الأرملة، بل يجب عليه في هذه الحالة، أن يستمر على الزنا معها بعد زواجه، صيانةً للحالة التي كانت عليها قبل زواجه، وأن ذلك يعد حقاً لها عليه. وقد جاء في تلمودهم كذلك، أن الوالد إذا زنى ببنته بعد وفاة أمها، لا يقام عليه الحد بل لا يعاقب ولا يزجر؛ لأنه بذلك يحفظ أمواله أن يبذرهما مع العاهرات الأجنبية، ويدرب ابنته على شئون الزوجية».^{١١}

وعلى الجانب الآخر نجد في أساطير الحضارة المينوية بالجزر اليونانية، والتي أرجعناها من جانبنا إلى المعينية في مديان وآدوم وبلاد الحجر، نجد إلهة أمًا عظيمة القدر، تشاركها ربات أقل منها شأنًا، وكان شريكها في الفراش ذكرًا أصغر منهن جميعًا؛ لأنه ابنها في نفس الوقت. ويؤكد لنا «ميز» أن هذا الاعتقاد كان مألوفًا تمامًا، بل وشائعًا في عقائد آسيا الصغرى، وأن أهم رموز هذه العقيدة كان الصليب.^{١٢}

ونجد الآن ما سبق وساقه فليكوفسكي، حول عادات الميتانيين التعبدية يلح على الذاكرة، مع ما جاء ذكره بشأن المجوس وسكان سيناء المديانيين، عند كلمنت السكندري

^{١٠} نفسه، ج ١، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

^{١١} علي عبد الواحد وافي، اليهودية ... سبق ذكره، ص ٥٥، ٥٦.

^{١٢} ج. ل. ميز، المينويون والميسينيون، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، المجلد الثاني من تاريخ العالم، ص ٦٠.

والقديس هيرونوموس والقديس جيروم، وخاصة ما كتبه فيلون السكندري يقول: «إن الأطفال الذين يولدون من زواج الأم بالابن عند هؤلاء يعدون أكثر الأطفال شرعية. وقد قال كاتوللوس: إن كاهن مازدا الذي كان يلعب بالمجوسي، لا بد أن يكون ثمرة مضاجعة الابن لأمه.» كما جاء بالمقدس المجوسي: «إن مراعاة هذه العادة تعتبر من أجل علامات التقوى.» وهو الأمر الذي يعني أن ممارسة تلك العلاقة الشاذة لم يقتصر على الآلهة، لكن مارسها البشر عمومًا دون تمييز في بعض العقائد ذات الأصول الآرية. فهل عرفت مصر مثل تلك الممارسات بين أفراد شعبها القديم؟ الإجابة فيما وصلنا كانت بالنفي القاطع، حيث احتسبت مثل تلك الألوان من جماع المحارم، أمرًا خاصًا بآلهة الخلق وحدها وغير مسموح بها للبشر. لكن هل كان ذات الأمر ساريًا على الملوك وهم نسل الآلهة؟ الإجابة بحاجة إلى بعض التوضيح اللازم. إن جماع المحارم كحالة طقوسية تعبدية، تعود إلى أصول بعيدة في تاريخ البشرية، وترتبط بصورة الملك عند القبائل البدائية، حيث كان البدائيون يرون في ملوكهم مستودعًا للقوة الكونية الحيوية، التي تتغلغل في شتى مظاهر الحياة. وبذلك اعتقد الإنسان البدائي أن بإمكان الزعيم، أن يجعل المطر يسقط والماشية تكثر والزرع ينضج. وقد بقي صدًى لذلك الاعتقاد في تصور المصريين، أن الفرعون كان أيضًا سبب حياة الناس، وذلك في التعبير المصري القديم المتواتر بكثرة، في كتابات الفراعنة ورسائلهم وملاحمهم وأساطيرهم، «أن الفرعون يمنح الناس أنفاس الحياة».

وكان هؤلاء البدائيون حريصين على ألا يتركوا هذه القوة تخمد أو تضعف، فيجب ألا ينتظروا شيخوخة الملك وضمور قوته الكونية، إنما يجب قتله بمجرد أن تطرأ عليه بوادر الضعف، وتنصيب ملك جديد عادةً ما يكون كبير أبنائه، بغرض انتقال تلك الطاقة الحيوية للملك الجديد وهي في أوج قوتها؛ حتى لا يحل الجفاف والخراف بالمحاصيل وبالماشية بل وبالإنسان. وعادة ما كانت أهم علامات ضعف الملك هي تقصيره في أداء واجباته الزوجية السريرية مع نسائه العديداً.

ويقول جيمس فريزر: إن هذه الطقوس قد تطورت مع الزمن، فتم تحديد دورة محددة بعدد من السنين هي زمن قوة الملك الحيوية. ففي المدن اليونانية القديمة كانت هذه الفترة ثمانى سنوات، وهي أقل مدة تكفي لالتقاء التقويم القمري بالشمسي، بمعنى أنه لا يحدث أن يتفق اكتمال القمر وبلوغ النهار غاية القصر أو غاية الطول إلا مرة كل ثمانى سنوات. وإذا كان الأقدمون قد تعلموا الربط بين نمو الزرع وبين دورة القمر ودورة الشمس، وجعلوا من الأيام البارزة في دورتيهما مواسم يتقربون فيها إلى آلهتهم،

فلا عجب إن احتسبوا التقاء الدورتين في السماء علامة على ابتداء دورة ألتهتم على الأرض، وهو المرتبط بهذه القوى الكونية وجزء منها.^{١٣}

ويبدو لنا أن بقايا تلك الفكرة قد ظلت قائمة، لدى المصري القديم مع بعض التشذيب والتطوير، حيث استبعدت مسألة قتل الملك، مع تحديد الزمن اللازم لبقاء الطاقة الكونية الحيوية في الملك نشطة وشابة، وأنه بالإمكان تجديد تلك الطاقة بطقوس وشعائر يتم تحديدها بدقة، لتجديد تلك الطاقة في الزمن المطلوب بالتحديد، وهو ما نتصوره ماثلاً فيما أسماه المصريون القدماء عيد «حب/سد/أو العيد الثلاثيني»، وهو العيد الذي ظل أمره غامضاً وغير مفهوم القصد منه حتى اليوم، وهو ما يوضحه قول المؤرخ المصريولوجسيت «ياروسلاف» بقوله عن هذا العيد: «هو عيد ما زالت طبيعته الحقيقية غامضة بالنسبة لنا».^{١٤} لكنه بشكل عام قد تم الاتفاق على أنه — كما تقول «جوليا سامسون» — «كان القصد منه تجديد قوى الفرعون الحاكم».^{١٥}

ويوضح «آلدريد» ما يعرفه عن عيد حب/سد في قوله: «وكان احتفال السد يقام بمنف، ولكن بعض شعائره كان يمكن تكرارها في مراكز العبادة الأخرى ذات الأهمية. فمثلاً نجد أن أمانحتب الثالث قد أعاد الاحتفال بهذه المناسبة بمدينة طيبة في قصره هناك. وبُنيت بهذه المناسبة قاعة للاحتفالات وُجهزت ساحة واسعة لهذا الغرض، واشتملت الاحتفالات على عرض مراسم التتويج من جديد، وقد ارتدى الملك في هذه المناسبة عباءة قصيرة لها ياقة عالية. وقد ظهر كبار الموظفين من مصريين وأجانب في هذه المناسبة في أبهى صورة، حيث كان يجري تجديدهم هم أيضاً. وكان الملك في ذلك الاحتفال يتقبل الهدايا ويمنحها بسخاء».^{١٦}

ويعيد شرح ذلك بقوله: «ومن الاحتفالات الطقسية التي كان يتمنى الفراغة شهودها — إلا أنه لم يسعد الحظ بذلك إلا القليل منهم — عيد السد أو اليوبيل، وهو في الحقيقة عيد تجديد نشاط الفرعون. واحتفال السد حسب النص الإغريقي على حجر رشيد، هو عيد الثلاثين عاماً، ويدفعنا هذا إلى استنتاج أن أول يوبيل يُقام بعد ثلاثين عاماً من اعتلاء

^{١٣} عياد، البطل ... سبق ذكره، ص ١١٤: ١١٧.

^{١٤} ياروسلاف، الديانة ... سبق ذكره، ص ٨٤.

^{١٥} سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ٦٩.

^{١٦} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٣٨.

الفرعون لعرشه، إلا أنه وجدت حالات كان فيها خروج واضح عن هذه القاعدة ... لكن في حكم المؤكد أن احتفال السد هذا قد اقتصر في الأسرة الثانية عشرة على الفراعنة، الذين أمضوا في الحكم ثلاثين عامًا.^{١٧}

وللوصول إلى ما نريد، نوسط «أنتاديوب» هنا بين «ألدريد» وما سنصل إليه، لنستمع إليه يقول: «كان يتعين ألا يحكم الملك في مصر إلا إذا كان في أوج قوته، ويبدو أنه كان يُقتل فعلًا في بداية الأمر، عندما كانت قوته تضمحل، غير أن الملكية سرعان ما لجأت إلى مختلف الحيل. كان الملك يتمسك بامتيازات منصبه — وهذا أمرٌ مفهوم — مع الخضوع بأقل قدر لمغباته؛ ولذا فقد توصل إلى جعل هذا الاختبار رمزًا، فلم يعودوا يقتلونه إلا طقوسياً عندما يتقدم في السن، وذلك في الحفل الذي يستعيد فيه الملك شبابه في نظر الشعب، ويصبح صالحًا للاضطلاع بمهامه. وهكذا غدا حفل السد احتفالاً لتجديد شباب الملك، وأصبح موت الملك الطقوسي وتجديد شبابه مترادفين، وكانا يتمّان في مناسبة واحدة ... ووفقًا لتلك المعتقدات؛ فإن خصوبة الأرض ووفرة المحاصيل، وصحة الشعب والقطعان وسير الأحداث بشكلٍ طبيعي، وكأن مظاهر الحياة مرتبطة ارتباطاً حميمًا بقوة الملك الحيوية الكامنة.»^{١٨} لكن أنتاديوب، وبقية المؤرخين، لا يقول لنا، أية تفاصيل مفيدة عن تلك الطقوس، مما يعني أنها لم تدون ولم يتم الإفصاح عنها، من جانب الكهنة أبدًا بالتصريح ولا بالتلميح؛ لذلك تظل تحمل سميتها التاريخية «طقوس الأسرار».

لكن على لوحات الفراعنة عن عيد سد/حب، نجد الملك يوم عيده الثلاثيني يدخل مع الكاهنة الكبرى، أو زوجته الرئيسية الملكة بعد تنصيبها كاهنة كبرى، إلى قدس الأقداس وتغلق عليهم الأبواب، ولا يقال لنا ماذا كان يحدث داخل قدس الأقداس إبان هذا الاحتفال، من شهادة الزوجة في دور الكاهنة وشهادة الكهنة لقدرة الفرعون الجنسية. ما نعلمه أنه بعد خروج الملك تعم الفرحة البلاد، ويبدأ في تلقّي الهدايا من أبناء شعبه، كما يهبهم هو هبات وهدايا مع مزيدٍ من القوانين التيسيرية على المواطنين. وهنا أقترح من جانبي أن يكون هذا الذي كان يحدث في قدس الأقداس، شبيهًا بما كان يحدث في بلاد الرافدين يوم الاحتفال بالمنقلب الربيعي، وكان لونًا من احتفالات الصخب المعروفة في العالم القديم. فكان الكاهن يضاجع الكاهنة الكبرى داخل المعبد، بينما تقوم الجماهير الحاشدة من

^{١٧} الموضع نفسه.

^{١٨} أنتاديوب، الأصول الزنجية ... سبق ذكره، ص ١٥٩، ١٦٠.

نساء ورجال حول المعبد بالعريضة في حفلٍ نزوي هائل، يمارس فيه الجميع الجنس مع الجميع دون أي تمييز، لحض الطبيعة على القيام بذات الممارسة للإخصاب وإكثار النّاتج والخير، اعتمادًا على مبدأ السحر التشاكلي الذي بموجبه ينتج الفعل شبيهه.

وربما غامرت قليلًا وقلت إن ما كان يحدث كان تقليدًا لفعل الخلق الإلهي الأول، عندما كان الإله يلتقي بأمه جسديًا، باعتبار أن الأم تحديدًا هي التي سبق وأكدت قدرتها على الإنجاب بإنجاب الملك نفسه، الذي يجب أن يقوم بذات الدور مع أمه داخل قدس الأقداس؛ لينجب نفسه من جديد. لكن يبدو أنه في مراحل تالية تم تشذيب هذه القاعدة، واستبدلت الأم بالزوجة الرئيسية، التي ستقوم بإنجاب ولي العهد، لتقوم بدور الأم الإلهية ويقوم الملك بدور الأب الإلهي. ويؤكد لنا ذلك أن قوانين مصر القديمة، جعلت حق العرش للأُنثى وليس للذكر، وأن الملك لا يصبح ملكًا إلا عندما يجامعها بالزواج. وإلا لماذا أحيطت احتفالات عيد حب سد الثلاثيني بكل تلك السرية، وأطلق عليها كهان مصر «احتفالات الأسرار»؟ وإذا كان الملك على الأرض من ذات النسل الإلهي، فمن الطبيعي أن يمارس الملك سلوك الآلهة. وما دام القصد هو تجديد قواه الحيوية، فيجب إذن أن يولد من جديد، فكان يجامع في البدء أمه التي ولدته، ثم بعد ذلك بزمان أصبح يجامع زوجته أو الكاهنة الكبرى لتقوم بدور أمه، فيكون هو الأب والابن في أقنوم واحد. وبهذه العملية السرية يعود الملك مولودًا من جديد، وقد تجددت طاقاته الحيوية، ويخرج من قدس الأقداس إلى جماهير شعبه، التي تعلن فرحها العظيم بملكها الجديد، في احتفالٍ بهيج ظل حتى الآن مجهول الهوية والغرض والمعنى. لكن بينما كانت مصر قد تخلصت مبكرًا بحكم تطورها الثقافي من جماع المحارم، كانت بلاد مديان لم تزل على الدرجة الأدنى في سلم التطور، كانت لا تزال تمارس جميعًا إتيان المحارم، كشعيرة تعبديّة تعود إلى أصولٍ إيرانية قديمة في مواطنهم الأولى.

ويؤكد ذلك فهمنا لكلامٍ ملتبس جاء عند دوماس في فقره، تؤكد أن الإلهة «حاتحور وحورس كانا يُعتبران في الأساطير زوجين، ولا يستطيع المرء أن يفسر — إلا بفضل وجود جهاز موحد — تطابق صيغ الأسرار المحبوبة التي تتعلق بالمولد الإلهي».^{١٩} ونحن نعلم أن حاتحور هي إيزيس أم حورس، وهو نفسه الذي تتزوجه من أجل المولد الإلهي،

^{١٩} دوماس، آلهة ... سبق ذكره، ص ٧.

ويضيف للفكرة مزيداً من الدعم أن الملكة الكبرى أو الأم الملكية في طيبة، كانت عادةً ما تكون هي «كاهنة آمون».^{٢٠}

ويقول «أحمد عثمان»: «إن التقاليد المصرية كانت تقضي، بأن يكون ميراث العرش عن طريق الابنة الوريثة، فمن يتزوج الابنة البكر للفرعون يصبح صاحب الحق في الجلوس على العرش من بعده؛ لذلك فإن ابن الفرعون كان يلجأ للزواج من أخته حتى يبقى العرش من بعده. وسبب هذا التقليد أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون بال ميلاد المقدس للملك؛ فعند زواجه يذهب الملك الجديد إلى المعبد، حيث يمر بمراحل عديدة من الطقوس الدينية مع الكهنة، الذين يطهرون جسده بالمياه المقدسة، ثم يدهنونه بالزيوت المقدسة، ويقرءون التراتيل التي كانت — في اعتقادهم — تحضر روح الإله في جسد الملك، ويدخل الملك على زوجته في ليلة الزفاف وكأنه هو آمون الرب، وعلى ذلك فإن من يولد لها من الأبناء يعتبر بالنسبة للمصريين ابناً لآمون، وكان شرط حدوث ذلك أن تكون الملكة هي الوريثة ابنة الملك الراحل، فآمون لا يتزوج إلا الوريثة. وعلى ذلك كان من الممكن للملك أن يتزوجوا ما شاء لهم من النساء، لكن الملكة التي يرث أبنائها العرش، لا بد وأن تكون هي الوريثة ابنة الملك السابق».^{٢١}

وغني عن الذكر أن ميلاد إخناتون كان مخالفاً لكل هذه القوانين، وقد حاول التغلب على ذلك بمحاولة تأويل القانون السماوي، فأقام عيده الثلاثيني فقط بعد خمس سنوات من وصوله إلى طيبة، وهو الأمر الغريب في التاريخ المصري أن يحتفل الفرعون بعيده الثلاثيني قبل مضي ٣٠ عاماً على ميلاده، وقامت في عيد إخناتون الثلاثيني بدور الأم الإلهية زوجة نفرتيتي، لكن ذلك كله كان تخيلاً مكشوفاً مرفوضاً. وبعد أن أعلن صراحةً عن عقيدته الجديدة، ونصب ربه آتون رباً أعلى وأوحد، وأعلن لقبه الدائم «ذلك الذي يعيش في الحقيقة»، قرر إعلان طقوس الآتونية علناً بالعودة إلى مرحلة تجاوزها المصريون من زمان بعيد؛ إذ قام بتكرار عيد حب سد الثلاثيني في العام الثاني عشر من حكمه في تل العمارنة. لكن التي قامت بدور الأم الإلهية والكاهنة العظمى هذه المرة كانت أمه تي — وهو ما تنطق به لنا لوحة الحائط الشرقي بمقبرة حويا، التي يأخذ فيها إخناتون بيد

^{٢٠} نبيلة محمد عبد الحليم، معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، منشأة معارف الإسكندرية، د.ت، ص ٤٧.

^{٢١} أحمد عثمان، غريب في وادي ... سبق ذكره، ص ٧٠، ٧١.

أمه تي، يقودها إلى المعبد تتبعهما ابنته بكتاتن فقط وحدها، مع تدوين شارح يقول: «يقود الملكة العظمى والأم الملكية تي لترى ظلها في الشمس». وفي اللوحة يرتدي إخناتون ثوباً شفافاً، يسمح برؤية تفاصيله الداخلية، أما تي فتكاد تكون عارية تماماً. ومن بعدها قرر أن تستمر هذه العلاقة في زواج صريح معن دائم، وليس فقط في حفل سري بالمعبد، مما كان موطئاً ومشعلاً لشَرِّ الأحداث المؤسفة، التي ترتبت على ذلك من بعد. وبينما كان «جار ستانج» يعلن أنه: «من الجائز أن تكون قصة الزواج الإلهي البعيدة الصيت من ابتكار الحيثيين».^{٢٢} فإن الإله المصري حور قد جامع أمه إيزيس/حتحور، وكان أوزيريس زوج إيزيس ابناً لها في الوقت نفسه، وكان معلوماً جيداً للمصري آنذاك «أن ملك مصر كان يعتبر تجسيدا للإله حور منذ الأسرة الأولى».^{٢٣} لقد أراد إخناتون كشف كل الأسرار، والتصريح بطقوس عقيدته، فقرر أن يكون إلهاً ابن إله على الأرض، قبل رحيله إلى عالم الآلهة بعد الموت، بالزواج من الأم الإلهية.

والآن بعد هذه الوقفة التفصيلية مع زواج البطل الملحمي من الملكة، نتذكر أننا كنا نتابع مساحة التطابق بين العناصر المكوّنة للمحمة البطل الأسطورية، وبين حياة الفرعون آمنحتب الرابع إخناتون. وكانت آخر تلك العناصر هي زواج البطل من أميرة البلاد، التي عادة ما تكون زوجة سلفه أو ابنته ويصبح ملكاً، لتنتقل الآن إلى العنصر الثاني عشر الذي يقول إن البطل بعد أن يصبح ملكاً، يحكم فترة من الزمن دون أحداث تذكر، وهو ما حدث مع إخناتون في بداية حكمه في طيبة، ثم العنصر الثالث عشر الذي يقول إن البطل الملك يسن للبلاد قوانين جديدة، وأعراف من نوع خاص، وهو العنصر الذي يرتبط ببقية العناصر، فالرابع عشر يؤكد أن تلك القوانين والأعراف تعرضه لسخط الآلهة والرعية، ليتم في العنصر الخامس عشر إقصاؤه عن العرش، ونفيه من مقر حكمه ومن بلاده، وهي كلها الأحداث التي واكبت إعلان إخناتون عن عقيدته الجديدة الآتونية، التي نصب فيها أدون أو البعل أو السيد المدياني رباً جديداً وحيداً في أفق العقائد المصرية، ومارس العادات المديانية في العلاقات الزوجية الشاذة علناً، مستثمراً في ذلك الطقوس المصري السري. ووفقاً للعناصر النمطية للمحمة، ينتهي مصيره بالنفي بعد إقصائه عن العرش، ليموت بعد ذلك ميتة غامضة كما في العنصر السادس عشر، وهو الأمر الذي ستفسره لنا

^{٢٢} جار ستانج، إمبراطورية الحيثيين ... سبق ذكره، ص ٢٩.

^{٢٣} نبيلة عبد الحليم، معالم التاريخ ... سبق ذكره، ص ٤٤.

قصة موسى عندما نبدأ بمقارنتها مع ذات العناصر. أما العنصر السابع عشر الذي يقول إنه لا يخلف الملك البطل أبناؤه على العرش، فهو ما يخالف ما حدث لإخناتون، فإن فترة حكم الصبيين الصغيرين، سمنخ كا رع وتوت عنخ آمون لم تدم أكثر من سنة واحدة لسمنخ كا رع وستين لتوت أو عشر سنوات في تقديراتٍ أخرى. لكن الحاكم الفعلي كان آنذاك هو خالهما أي. وإن كان المقصود بهذا العنصر في الملاحم، هو عدم استمرار أسرة البطل في الحكم، وسقوطها وانقطاع نسله عن الملك، فهو ما حدث مع أسرة العمارنة تمامًا. أما العنصر الثامن عشر فقد تأكد يقينًا؛ لأننا لم نعثر أبدًا على جثمان إخناتون، ولا نعرف له مكانًا يقينًا. ثم العنصر التاسع عشر، الذي يؤكد أنه رغم ذلك تتعدد القبور والأضرحة، ومواضع كثيرة تصبح مقدسة لهذا البطل، وهو ما ليس لدينا عليه أية وثائق من زمن إخناتون، بعد أن قرر المصريون نسيانه تمامًا وإسدال الستار على مأساته، لكنه بالفعل قد تعدد ممثلًا في أوديب وتعدد المسرحيات التي تناولته، وفي موسى متمثلة في المواضع المقدسة لرحلة الخروج، وكثير من أسماء الآبار والجبال والوديان، التي تحمل اسم موسى في سيناء، إضافةً لمدفنه المزعوم على جبل نبو بالأردن وكلها مواقع مقدسة.

فماذا الآن عن موسى التوراتي وما نزعمه؟

كان فرويد أول من نبهنا — فيما نعلم — إلى اختلاف أسطورة البطل الملحمي التوراتية «موسى» عن الأسطورة النمطية، التي عددنا عناصرها في أن الأسطورة النمطية، تجعل البطل دومًا من أصل نبيل ملكي، ينشأ ويربو في بلاط مالك بالميلاد، وعادة ما يكون استبعاده إلى أسرة غير نبيلة، بل عادة ما يقضي طفولته وصباه في بيئة شديدة الفقر، كما بين الرعاة أو الصيادين، وعندما يشب عن الطوق يعرف حقيقة أصله وأهله ومنبته، ويعود ليحارب من أجل استعادة ملكه المسلوب. وفي هذه النقطة تختلف أيضًا قصتا إخناتون وأوديب عن الأسطورة النمطية؛ لأن الأمر لم يكن مجرد أسطورة، إنما كان تسجيلًا بالأسلوب الأسطوري لأحداث وقعت بالفعل. فقد استبعد إخناتون مباشرة إلى ملك حليف للأسرة الحاكمة المصرية. أما أوديب فاستبعد أولًا إلى أسرة فقيرة هي أسرة الراعي، ثم تبناه يوليوس ملك كورنثة وزوجته ميريوب، لكن على أية حال فإن الأسرة التي استبعد إليها إخناتون، كانت رغم ملوكيتها أدنى شأنًا بما لا يقارن، فأهل هذه الأسرة كانوا — حسب نظريتنا — بدورهم بدوًا رعاة، وعادة ما أكدت الأسطورة النمطية على الرعاة تحديدًا، كمحل لنشأة البطل ويفوعه بعد استبعاده.

لكن قصة موسى في التوراة تقف نافرة على العكس تمامًا، من تلك التأسيسات الأولية للأسطورة النمطية، فهو بالميلاد وبالجنس ينتمي إلى أسرة وضيعة أسيرة، ضمن الأسرى

الإسرائيليين في مصر. وعندما يتم استبعاده يستبعد إلى الأسرة النبيلة الملكية، حيث يصبح رجلاً من رجال البلاط وابتناً للفرعون، وهو ما يخالف قواعد الأسطورة النمطية بشدة، لكن لكي تتم عناصر الأسطورة، يعود موسى إلى أهله الوضعاء، ليخرج بهم من مصر في أكبر حدث ديني، في تاريخ المنطقة قبيض له التدوين.

وبناءً على قراءته لما حدث، يرى سيجموند فرويد أن ما جرى لموسى بالفعل في حقل أحداث التاريخ، يسير على قوانين الأسطورة النمطية، لكن محرري التوراة هم من قلب الأوضاع وعكسوها تماماً، ليجعلوا من هذا المصري الذي أسس لهم في التاريخ عقيدة وقومية، إسرائيلياً بالميلاد وبالعنصر، استبعاداً لتلك السُبة التاريخية العظمى، فقاموا بعكس حقائق الواقع الفعلي، ليؤكدوا إسرائيليته وليستبعدوا تماماً مصريته. وهكذا كان موسى من أصلٍ ملكي وأبوه ملك وأبوه من أقارب أمه الأدنين، وهو بذلك يطابق قصة إخناتون مطابقةً كاملة، من حيث التطابق مع العناصر الملحمية الثلاثة الأولى، بل ونزعم أن قصته بهذا الفهم تطابق جميع العناصر الملحمية التأسيسية.

وفي ظننا أن أسطورة الإلقاء في اليم — إن كانت قد حدثت — لم تكن بقصد تهريب الطفل المطلوب قتله، بمغامرة الإلقاء في اليم ليتعرض لموتٍ أكيد، إنما كانت بقصد اختبار نسب وبنوة الطفل الوليد على عادة الشعوب القديمة، فعادةً ما كان النهر هو القاضي بهذا الشأن. وإن ذلك قد حدث كنتيجة للمعارضة الكبرى، التي قادها كهنة آمون الأمانة على تطبيق الشرائع الإلهية. ولما كان إخناتون بظروف ميلاده يخالف تلك الشرائع والقوانين مخالفة حادة، فقد كان الحل هو اختبار صدق نسبته لآمون بالقضاء النهرى؛ لأنه ما كان ممكناً التدليس على شرع السماء مرتين، مرة مع أبيه ومرة معه. ويبدو أنه تم إنقاذ الطفل قبل أن يبتلعه اليم، وهو ما حدا بالأُم تي إلى استبعاد طفلها، بعيداً عن دسائس ومؤامرات الكهنة، التي قد تناله بالاغتياي في الخفاء.

والمبهر حقاً أن ننع في أسطورة أوديب على رواية نادرة مخفية غير متواترة، تتفق مع أسطورة إلقاء إخناتون/موسى في اليم، ويرويها لنا روبرت جريفز؛ إذ لا يقول إنه تم استبعاد أوديب، بعد أن وثق قدميه مع تابعٍ بالقصر للتخلص منه، وأن هذا التابع سلمه إلى راعٍ، وأن الراعي كان من بلادٍ أخرى، يملك فيها الملك بوليبيوس الذي أخذ أوديب من الراعي وتبناه. وهي القصة المعلومة المتكررة، إنما يقول أمراً آخر تماماً في رواية نادرة، فبعد أن أوثق الملك لايوس قدمي طفله أوديب، وضعه في صندوقٍ مغلقٍ ورمى به في البحر، وحملته الأمواج إلى شاطئ سيكيون، حيث كانت الملكة بريبيويا تشرف على

وصيقاتها، وهن يغسلن لها ملابسها، فأخرجت الطفل وحلّوا وثاقه، وتظاهرت بريوباً أنها ولدته على الشاطئ، وعندما عادت إلى قصرها، صارحت زوجها بوليوبوس بحقيقة ما حدث، وقررا تبني الطفل.^{٢٤}

والمدقق في رواية التوراة إن أخذها على علاقتها، سيكتشف خللاً شديداً، فإلقاء موسى في سبط باليم يحمله التيار لبيت الفرعون، تتناقض تناقضاً فاضحاً مع حقائق الجغرافيا والتاريخ، فحقائق التاريخ تقول إن البلاط الملكي خلال الأسرة الثامنة عشرة كان يقع في طيبة/الأقصر، بينما كان الإسرائيليون يعيشون في شرقي الدلتا، وحقائق الجغرافيا تقول إن معنى إلقاء سبط في فرع نيلي بشرق الدلتا، يعني أن يسير السبط مع تيار الماء شمالاً نحو البحر المتوسط، وليس جنوباً نحو طيبة، والقصة بذلك تجعل الصندوق يسافر عكس التيار حوالي ألف كيلومتر أو يزيد.

وقد يعترضنا هنا معترض بحجة أن قصة النبوة، بمولد بطل للملحمة يقتل أباه ويتزوج أمه، هي عنصر تأسيس في دراما أوديب والملاحم المشابهة، لكنها أبداً غير موجودة بالتوراة، فالتوراة لم تحدثنا عن أية نبوة سبقت ميلاد موسى ليستحق الاستبعاد بسببها. لكن القصة حسب التوراة تقول إن الفرعون، قد أصدر قراراً بقتل جميع المواليد الذكور من بني إسرائيل لسبب آخر، هو أنهم قد ازدادوا عدداً بشكلٍ خطر، وأصبح يخشى من تخابريهم أو تعاونهم مع أعداء البلاد. وهذا الكلام إضافة لمجافاته أي منطق، فإنه يخالف ضرورةً فرز الأحداث آنذاك، حيث كان الإسرائيليون يعملون في سخرة البناء، وهو ما يعني أن الفرعون كان بحاجة ملحّة لهذه الأيدي العاملة الرخيصة، وإلا كان سجنهم أو طردهم دون تسخيرهم. ومن هنا تتناقض قصة التوراة في أمر الفرعون بقتل الذكور من المواليد الإسرائيليين مع ظروف الأحداث حينذاك.

لكن ما يبدو لنا هو أن محرري التوراة قد استبعدوا قصة النبوة بكاملها؛ لأنها كانت تعني إبراز وإيضاح مصرية موسى بالميلاد وبالجنس؛ لأن النبوة تستبعد الطفل الملكي لخطره على أبيه الملك وقتله واستيلائه على عرشه حسبما قالت، لكن هذه النبوة لن يكون لها أي معنى مع أسرة حقيرة غريبة مستبعدة في مصر. لكن الأصل الحقيقي المصري للقصة كان يحوي لا شك قصة النبوة التي ظهرت في النسخة اليونانية «أوديب».

^{٢٤} Graves, R., The Greek Myths, Benguin Books, 1955, Vol. II, p. 9

كما ظل أصيلاً فيما تواتر شفاهة وميراثاً غير مكتوب، حتى وجد طريقه للتدوين بالقرآن بعد ذلك بأزمان، ليزر قصة النبوة ويؤكدّها.

وهنا نستأنس برواية المؤرخ الإسلامي الحافظ ابن كثير الدمشقي، وهو يقول:

وذكر السدي عن ابن عباس: أن فرعون رأى في منامه، كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط، ولم تضر بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحزاة والسحرة وسألهم عن ذلك. فقالوا: هذا غلام يولد من بين هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه؛ فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وهم بني إسرائيل، ﴿وَنَجْعَلُهمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهمْ الْوَارِثِينَ﴾ أي الذين يتول ملك مصر وبلادها إليهم، ﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ أي سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً، وقد جري هذا كله لبني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٢٧) «وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٥): الدخان). وقال السهيلي: اسم أم موسى يارخا وقيل أياذخت. وذكر المفسرون أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرن على فتحه، حتى وضعه بين يدي امرأة فرعون آسية بنت مزاحم بن عسد بن الريان بن الوليد، الذي كان فرعون مصر زمن يوسف. وقيل إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى، وقيل: كانت عمته، حكاها السهيلي.^{٢٥}

وبغض النظر عن الخبط والتوليف المعتاد في كتب التاريخ الإسلامية، فإن قصة النبوة وصلت عرب الجزيرة لتدون في القرآن، رغم أنها استبعدت من التدوين في التوراة، لكن ذلك لم يكن يعني أنها لم تكن معلومة لمحري التوراة، فنحن نقصد بوضوح أنها كانت

^{٢٥} ابن كثير، البداية والنهاية.

معلومة لديهم. وتم استبعادها عن عمدٍ مع استبعادهم لكل ما يتعلق بمصرية موسى الجنسية، ويؤكد لنا ذلك أنها كانت معلومة لدى أشهر المؤرخين اليهود خلال القرن الأول الميلادي، المؤرخ يوسفوس فلافيوس؛ إذ يحكي أن أحد كهنة مصر القديمة «من أولئك الذين كانوا يتنبئون، أخبر الملك أنه في ذلك الزمان، سيولد طفل لبني إسرائيل، سوف يعرض مستقبل الأسرة المالكة للخطر، لكنه هو سيصبح عظيمًا وتعيش ذكراه عبر عصور الزمان».^{٢٦} ويتابع يوسفوس روايته فيقول: «إن ابنة الفرعون بعد أن تبنت الطفل أرادت أن تجعله وليًا للعهد، فأخذته ووضعت بين يدي الملك الذي احتضنه ووضع التاج على رأسه، لكن موسى الطفل أوقع التاج على الأرض وداسه بقدمه. وكان الكاهن المصري الذي سبق أن أنذر بميلاده حاضرًا، فأمسك به وهو يصرخ وهم بقتله، لكن ابنة الفرعون منعتة وانتزعت الطفل من بين يديه، كما لم يوافق الفرعون على قتله».^{٢٧}

ولعل الرموز هنا واضحة بما لا يقبل لبسًا، فما معنى أن بنت فرعون كانت تريد تأهيل طفل من أبناء العبرانيين، ليكون وليًا لعهد فرعون مصر، خاصةً وأن هناك نبوءة يعلمها القصر، تحدث عن كارثة ستقع على يد طفل من هؤلاء. إن الأمر فقط يمكن أن يكون متسقًا، إذا احتسبنا ذلك ترميزًا للقصة الأصلية، ظل محافظًا على وجوده في القصة المعدلة المزورة والمحرفة، ترميزًا واضحًا إلى أن موسى كان ولي عهد مصر فعليًا بحسبانه إخناتون، مع ترميز آخر تأكيدي في تفاصيل لا معنى لها، إلا لو كانت تحتل بلاغًا ضمنيًا مستترًا، مثل وضع فرعون التاج على رأس الوليد، وهو ما لا يتم أو يعقل إلا إذا كان هذا الطفل، هو ابن الفرعون بالميلاد والجنس، ثم الترميز الثالث في رمي الطفل للتاج، تسجيلًا لما فعله إخناتون، وانحيازه لمبادئه على حساب استقرار حكمه أو استمراره، وإصراره على ما كان يفعل من مناهضة إرادة الشرائع المصرية، المؤسسة لمعاني الملكية في مصر القديمة، مما أدى إلى سقوطه كملك في نهاية الأمر. وهكذا يجب الإقرار مع سيجموند فرويد، أحد علامات القرن العشرين البارزة، أن موسى كان مصريًا من أصل ملكي، وهو العنصر الأول في عناصر الملحمة، وأبوه ملك وهو العنصر الثاني. ويزيد الشك في إسرائيليته أن أمه الإسرائيلية المزعومة، لم تطلق عليه اسمًا عبرانيًا ولا نعرف له سوى اسمه المصري «موسى». أما العنصر الثالث فهو الذي يؤكد على أن البطل يكون من الأقارب الأدنى للألم،

^{٢٦} أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٤٣.

^{٢٧} نفسه ج ١، ص ٤٤، ٤٥.

وهو ما يفصح به نص التوراة، وهو يقول إن السبط لاوي شقيق يوسف، قد أنجب في مصر ولده قهات، وأنجب قهات عمران، وأنجب عمران موسى، ويفصل أكثر فيقول:

وأما قهات فولد عمرام واسم امرأة عمران يوكابد بنت لاوي، التي ولدت للاوي في مصر، فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم أختهما.

(عدد، ٢٦: ٥٨-٥٩)

وهكذا فإن يوكابد زوجة عمران، وهما أبوي موسى، بينهما قرابة واضحة يفصح عنها المحرر التوراتي فيقول:

وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له، فولدت له هارون وموسى.

(خروج، ١٦-٢٠)

ويلفت نظرنا هنا الاسم «يوكابد» أو «يوكابت»، الذي يلتقي بشدة مع اسم بنت الملك الميتاني «جيلوخيبا» أو «يلوخيبات» أو «يلوكيبا»، التي افترضناها هي ذات الملكة «تي» أم إخناتون زوجة آمنحتب الثالث، وتتسق عناصر أطروحتنا وتتماسك عندما نجد اسم «يوكابد» يلتقي أيضًا بتطابق واضح، مع اسم أم أوديب في الملحمة اليونانية «يوكاستا»! والأمر يجرننا هنا إلى تدقيق بقية أسماء أبطال الملاحم الثلاثة، وهو ما أفرز تطابقاً مدهشاً بين أسماء هؤلاء الأبطال، مع نشوز هنا وشذوذ هناك، مما يعني أن محرري قصتي موسى وأوديب، قد حافظوا بعض المحافظة على الأسماء الأصلية لأبطال القصة.

لقد حلت اللعنة على بيت لايوس اليوناني والد أوديب؛ لأنه أول من أدخل اللواط إلى طيبة، بحالة العشق التي مارسها بصحبة الصبي خريسبوس، وقد تم تصوير آمنحتب الثالث في اللوحات المصرية في ملابس نسائية، وكانت الحالة الوحيدة الأولى والأخيرة في تاريخ مصر، التي يظهر فيها الفرعون بملابس نسائية. وهنا لا بد أن نسترجع فوراً عادات قادة الهكسوس الأسكيث الهندو آريين، في مقرهم العسكري الأعظم في بلاد آدوم، وكيف استرجلت النساء بينما تخنثت الرجال، ويحيطننا المؤرخ اليوناني هيبوقراط عن عادات الإسكيث مزيدياً فيقول: «بين الإسكيث نجد كثيراً من المخنثين الذين كانوا يؤدون أعمالاً نسائية ويتحدثون كالنساء، وشعبهم ينظر إلى هذه الظاهرة باعتبارها رغبة إلهية، فيوقرون المخنثين ويققدسونهم، إلى حد كانوا يتعبدون لهم ويسجدون أمامهم، بينما كان

عامة الناس يرتعبون منهم ... وكان هؤلاء المخنثون يلبسون ملابس نسائية، ويمارسون العادات النسائية ويقومون بأعمالهن. وكان هذا التخنث مرضاً يصيب أثرياء الإسكيت. «وقد أرجع هيبوقراط ذلك التحول المرضي، الذي كان يصيب بعض رجال الإسكيت، مع تقدمهم في العمر إلى أسباب وراثية، سببتها بيئتهم الجغرافية الأصلية التي كانوا يعيشون فيها في مواطنهم الباردة الأولى، ويشرح ذلك قائلاً: «فيكتنزون إلى حد عدم إمكان تمييز أعضاء الجسد عن بعضها، وترتخي العضلات والجزء الأسفل من البطن، نتيجة وجود قدر عالٍ من الرطوبة والمائية باللحم، ومع الامتلاء يخفّي الشعر عن الجسد»^{٢٨} وهنا يجب أن نعيد تأمل اللوحات والتمائيل التي صنعها فنان العمارنة، وبخاصة للفرعون إخناتون لنكتشف مدى تطابق اللوحة، التي رسمها هيبوقراط للإسكيت مع لوحات العمارنة.

أما في بلاد آدوم حيث عاش الإسكيت، بعد هجرتهم إلى هذا المكان من مواطنهم الأصلية الشمالية، انتشر داء اللواط انتشاراً هائلاً في قصة لوط المعروفة بالكتاب المقدس، لكن الكتاب المقدس زمن تدوينه على يد المحرر، كان قد تطور تطوراً شديداً عن أصوله الأولى؛ لذلك جاء المنطق الجديد بعقابٍ إلهي دمر تلك المنطقة الخماسية المدن أو بنط بوليس شمالي آدوم، بكارثة تشبه تماماً الكوارث البركانية في تفاصيلها؛ لأنهم إضافة لهذا الانحراف الجنسي، فقد ضاجعت بنتا لوط أباهما وهو سكران وأنجبا منه، ثم بعد ذلك انشغل المحرر التوراتي مع التطور، بالتنبيه على وجوب ألا يلبس الرجل زي امرأة، باعتباره سبة وعاراً، وذلك في النص: «لا يلبس رجل ثوب امرأة؛ لأن كل من يعمل ذلك مكروه لدى الرب إلهك» (ثنية، ٢٢: ٥). وهو تنبيه لن يكون له معنى، إن لم يكن ينهي عن عادة قديمة، كانت معروفة ومنتشرة، لكنها أصبحت زمن التدوين عادة مردولة، تستحق نفيها واستبعادها.

وإذا كان لا يوس هو النسخة اليونانية لأمحنتب الثالث المصري، فإنه بحذف التصريف الاسمي تصبح لا يوس، هي «لايو» البيت الذي أنجب أوديب، لكن المبهـر هنا حسب التوراة، أن بيت السيط «لاوي» كان هو البيت الذي أنجب موسى!

ومعلوم أن إخناتون قد أقام مدينته على تل عرف باسم تل العمارنة، وحتى الآن تعيش هناك قبائل تحمل اسم بني عمران/العمارنة، تزعم أنها من نسل أميرٍ عظيم،

^{٢٨} هيبوقراط، ضمن نصوص كوزينيتسوف عن الإسكيت بالروسية ... سبق ذكره، ص ٨٩، ٩٠، ٩١.

حُكم عليه بالحبس في مكان هذا التل حيث مات. ومعلومٌ لدينا من جانبٍ آخر أن موسى وهارون ومريم، يعودون إلى الأب عمران وجمعها عمارنة.

وقد استنتج الباحثون أن أي الذي بدأ صديقاً لإخناتون، ومؤيداً له مخمل الألقاب العظمى، أنه كان ابناً ليويا وتويا وشقيقاً للملكة تي، أي إنه كان خال إخناتون، وقد تحول أي عن التأييد المطلق لإخناتون إلى العداء المطلق، بعدما بدأت كفة الآمونية في الرجحان والصعود. وقد جاء المعادل اليوناني لشخصية أي متمثلاً في «كر-آي-ون»، يحمل في اسمه الشق أي، أحد الأسماء اليهودية الإلهية. وقد تحول كرايون بدوره من حالة التأييد المطلق لأوديب، إلى العداء المطلق له بحسابات المصالح والتآمر، الذي انتهى به ملكاً على البلاد.

وفي القصة التوراتية:

نجد شخصاً مؤيداً شديد الإخلاص لموسى، يتحول عن هذا التأييد إلى العداء الشديد، لكنه جاء في التوراة باعتباره ابن عم لموسى. ونحن نعلم أن المصري القديم كان يلقب والد الزوجة بـ «الأب»، وبقية الشعوب وحتى اليوم يلقبونه بالعم، وكان ابن عم موسى هذا في التوراة يحمل اسم قارون، الذي يطابق اسم كرايون مطابقةً تامة، وهو في القصة المصرية أي ابن يويا. لكن الاعتراض البدهي هنا هو المعلوم أن موسى في التوراة، قد تزوج من صفورة بنت كاهن مديان «يثران/رعوئيل» أو «رع-إيل = رع إله»، وليس أمه يوكابد. ومن جهةٍ أخرى نعلم أن التوراة، لم يكن لديها ملامة في زواج المحارم (بمنطق اليوم)، فالبطرك إبراهيم تزوج شقيقته سارة، وعمران تزوج من عمته (أو خالته) يوكابد، وكان بالإمكان التجاوز إلى بقية المحارم. لكن التطور اللاحق منع المحرر من تسجيل الزيجة الأهم والصارخة، فقد عمد المحرر بعد تطور العلاقات الاجتماعية إلى إخفاء هذه الحقيقة المروعة، لكن لتختلط الأحداث بين يديه وتلتبس، فنقلت الحقيقة من بين السطور، في حكايةٍ فصيحة.

والحكاية في حديث التوراة عن زواج موسى من صفورة بنت «يثران» في سيناء، وكيف أنه لم يكن مختوناً بعد. ومعلوم أن موسى قد هرب إلى مديان يافعاً، بعد قتله المصري ظملاً، وهو الترميز التوراتي لقتله أباه بمحو اسمه، كما يرمز الهرب إلى مديان قصة استبعاد إخناتون طفلاً إلى هناك، ولكنه لو كان ذهب يافعاً بالفعل لكان مخنوقاً؛ فقد نشأ ورُبي في مصر بل في بلاطها، الذي يحافظ على هذه الشرعية كل المحافظة، ولكن عدم ختانه يحمل في طياته ذكرى استبعاده طفلاً، وهناك في مديان يحدث ما تخبرنا

به التوراة قائلة في نصٍّ بليغ، يمر عليه الجميع دون فهم واضح لمراميهِ رغم خطورته الهائلة، التي أظهرها عملنا هذا وفسرها لأول مرة؛ إذ يقول هذا النص عن موسى:

وحدث في الطريق إلى المنزل أن الرب التَّقاء وطلب أن يقتله، فأخذت صفورة [زوجة موسى المديانية/المؤلف] صوانة وقطعت غرلة ابنها ومست رجله، فقالت: إنك عريس دم لي [عريس الدم هو من يفض البكارة فتدعى/المؤلف] فانفك عنه، حينئذٍ قالت: عريس دم لي من أجل الختان.

(خروج، ٤: ٢٤-٢٦)

هنا تتم عملية الختان بسكينٍ من الصوان، وهو تقليد مصري عريق من العصر الحجري، تم توارثه بحيث ظلت تجري تلك الجراحة حتى نهاية العصور الفرعونية بسكينٍ من الصوان، رغم اكتشاف سكاكين المعدن مبكرًا، وظل سكين الصوان يستخدم طقوسياً فيما يتعلق بشرائع السماء، كما في الختان وكما في الذبائح المقدسة، وكما في عمليات تحنيط الموتى، ويقول هيرودت واصفاً عملية تنظيف بطن الميت لتحنيطه: «يشقون الكشح بحجرٍ إثيوبي مسنون، ويخرجون الأحشاء كلها».^{٢٩} وعقب أحمد بدوي بقوله أنهم «استعملوا السكين الصوان، وأغلب الظن أن يكون سببه الحرص على التقاليد».^{٣٠} وتروي التوراة أنه عند وصول الخارجين من مصر إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن بقيادة يشوع بن نون بعد موت موسى، قرر يشوع عدم عبور النهر إلا بعد اختتان كلِّ مَنْ لم يختتن من الموالي، الذين وُلدوا خلال أربعين عاماً قضاها في سيناء منذ الخروج من مصر، وهنا تقول التوراة أن ذلك كان أمراً إلهياً:

وفي ذلك الوقت قال الرب ليشوع: اصنع لنفسك سكاكين صوان، وعد فاختن بني إسرائيل ثانية. فصنع يشوع سكاكين من صوان، وختن بني إسرائيل في تل القلف. وهذا هو سبب ختن يشوع إياهم. إن جميع الشعب الخارجين من مصر، الذكور، جميع رجال الحرب، ماتوا في البرية على الطريق بخروجهم من مصر؛ لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين. وأما جميع الشعب الذين

^{٢٩} هيرودت في مصر ... سبق ذكره، ص ١٩٥.

^{٣٠} الموضع نفسه.

ولدوا في القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختنوا؛ لأن بني إسرائيل
ساروا أربعين سنة في القفر.

(يشوع، ٥: ٢-٦)

ونعود للنص الخطير عن ختان صفورة لموسى بالصوان، لنجد النص يقول إن
موسى يفع وكبر، وتجاوز السن الشرعية للختان ولم يختتن، فأخذت زوجته صفورة بنت
رعوثيل/يثران سكيناً مصنوعاً من الصوان، وقطعت به قلفه أو غرلة أي غلفة قضيب
موسى. لكن المبرر أن موسى هنا يوصف بأنه ابن صفورة التي هي زوجته. وقبل عملنا
هذا كان ذلك النص مدعاة لتخریجات وتخريفات، ومحاولات تفسير تأويلية فاشلة غير
مقنعة، لتفسير كيف كانت صفورة زوجته وأمه في نفس الوقت، خاصة أن هذه الأم بعد
أن ختنته كبيراً أعلنته عريساً لها! كان لا بد كي يستقيم الأمر هنا ألا تكون صفورة هي
الزوجة والأم، بل أن تكون يوكابد أمه التي تزوجها أبوه عمران في مصر.

وننقب في المقدس التوراتي بعيون المباحث والتحري، وفي قصة التوراة التي نقصدها،
نعلم أن هارون شقيق موسى ومريم شقيقته، بعد مساندة طويلة لموسى يغضبان عليه
غضباً شديداً، ويعلنان على الناس هذا الغضب مع تحريضهم وإثارتهم ضد موسى، لسبب
يتلخص في كلمات شاردة سريعة مغطاة، لا تتكرر مرة أخرى بالتوراة، إلا هذه المرة
الوحيدة، تقول تلك الكلمات الشاردة:

وتكلمت مريم وهارون على موسى، بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها؛ لأنه كان
قد اتخذ امرأة كوشية.

(عدد، ١٢: ١)

أبداً لا يكرر الكتاب المقدس تلك الإشارة، ولا يفصح لنا عن هذه المرأة الكوشية،
ومتى تزوجها موسى، ولماذا أغضبت مريم وهارون. وليس مقبولاً أن يكون كل هذا النزاع
والغضب فقط؛ لأنها كوشية/سوداء/زنجية. ولا ريب أن لذلك الغضب الهائل مبرراً آخر،
أغضى المحرر التوراتي عينيه عنه. أما تمثال تي أم إخناتون، الذي عثر عليه في سيناء
قرب الجبل المقدس كاثرين، فكان يفصح بوضوح عن وجهها السيناوي الأسود الكوشي.
ويشرح كمال الصليبي قراءته للنص مقارناً بالأصل العبري، بعد أن كشف أن موسى
في بعض المقدس التوراتي كان نبياً، وفي البعض الآخر كان إلهاً فيقول:

وحدث في الطريق في مليان (ب-ملون) أن يهوه التقاه، وطلب أن يقتله، فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها، ووصلت إلى رجله (وتجع ل-رجليو) وقالت: أنت عريس دم (حتن ديميم) لي من أجل الختان (ل-مولت) ... صفورة في الأصل لم تكن زوجة الإله موسى هذا، بل والدته ... وتدخلت صفورة فختنت ابنها الإله موسى، واتخذته لنفسها عريس دم، أي عريس عذريتها استرضاه ليهوه.^{٣١}

إذن يبدو أن إخناتون عندما عاد إلى مصر، وكي يتزوج أمه تي، كان لا بد أن يقوم بطقس الختان، حيث لم يكن قد اختتن في مديان، وهو ما جاء في النص التوراتي المذكور «فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة ابنها». أما أن يرى الصليبي بعينه الثاقبة أن في التوراة صورتين لموسى: واحدة باعتباره نبياً، وواحدة باعتباره إلهاً، فهو ما يؤكد نظريتنا لأن إخناتون كان نبي آتون، وفي الوقت نفسه ابنه الإلهي، لقد كان إلهاً ونبياً في الوقت ذاته.

ومن جانب آخر لاحظ «جيمس فريزر» أن هناك خللاً غير واضح المعالم في نسب موسى، أرجعه إلى أن والده عمران تزوج عمته، وليس كما كشفنا نحن عن أسبابه الحقيقية، وفي ذلك يقول إن: «قصة ميلاد موسى ... تحتوي على ملامح يمكننا أن ننسبها ... إلى مجال الفولكلور أكثر مما ننسبها إلى التاريخ؛ إذ يبدو أن القاص لكي يزخرف معجزات حياة البطل، رغب في أن يحكي كيف تعرض الرجل لخطرٍ عظيم ... ساعة ميلاده طفلاً، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق، إلا من خلال حادثة تبدو للعين المعجز، من أجل المصير الكبير الذي ينتظره».^{٣٢}

«وقد افترض بعض الباحثين أن الحكايات الشبيهة، بحكاية إبعاد موسى الطفل وطرحة في الماء، بقايا عادة قديمة كانت تتبع، بقصد اختبار بنوة الأطفال الشرعية لأبائهم، فقد كان الأطفال يطرحون في الماء حيث يتركون لمصيرهم، فإما أن يطفوا أو يستقروا في قاع الماء. والطفل الذي يطفو يُعد طفلاً شرعياً، أما الطفل الذي يستقر في قاع الماء؛ فإن المجتمع يرفضه بوصفه ابناً غير شرعي ... أما حكاية التوراة فلم تذكر شيئاً

^{٣١} الصليب، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقى، لندن، ١٩٨٨م، ص ٢١٦.

^{٣٢} جيمس فريزر، الفولكلور في ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٥٣٣، ٥٣٤.

عن شرعية بنوة موسى، لكن إذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجاً من عمته، وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج، وإذا تذكرنا أن القانون العبري المتأخر، قد أبطل مثل هذا الزواج باعتباره زناً، فربما ساورنا الشك ... أن أم موسى في الشكل الأصلي للحكاية، كان يدفعها سبب خاص إلى طرح ابنها في النهر.^{٣٣}

وفي الدولة الحديثة التي ظهر فيها إخناتون، وقاد فيها موسى الخروج الإسرائيلي من مصر، يبدأ المصريون بالنظر إلى فرس النهر، باعتباره أحد رموز الشر سبت، رب الصحارى والقفر والجذب والموت، رغم أنه قبل ذلك لم يكن كذلك، ويطلقون عليه لقب «ابن الماء»، ويتضح السبب في كراهية فرس النهر، ما نسب له المصريون في الدولة الحديثة، ونفهمه من سرد المؤرخ اليوناني بلوتارك لحكمة مصرية نُقشت بالهيروغليفية بمدينة سايس في معبد إيزيس على جدران (البيلون Pylon: بوابة ضخمة عند مدخل المعبد)، ونصها أولاً طفل، ثم رجل عجوز، ثم بعده صقر يليه سمكة، ثم بعد كل ذلك فرس نهر. ويفسر بلوتارك معنى تلك الرسوم فيقول إنها تعني: «أيها الناس أطفالاً وشباباً، إن الله يكره الفسوق، ففي النص الأول الطفل رمز الولادة، والعجوز رمز مفارقة الحياة، والصقر يرمز للإله، والسمكة ترمز للكراهية، ثم فرس النهر الذي يرمز إلى الفسوق وعدم الحياء؛ إذ يقولون إن فرس النهر يقتل أباه ويجبر أمه على معاشرته.»^{٣٤} ويقول لنا «دوماس» إنه بعد ذلك أصبحت تقام احتفالات وأعياد في مدينة «حفات»، تنتهي بمقتل فرس النهر الذي يرمز لعدو البلاد وللشر،^{٣٥} ورمز عدو البلاد ورب الشر، هو سبت رب الهكسوس العامو البعل الأدون.

وإذا كان إخناتون/موسى/أوديب، يعود بميلاده من جهة الأب إلى مصر، فإنه من جهة الأم يعود إلى شرقي سيناء وأدوم، حيث المديانيين والعماليقة والكنعانيين (العموريين)، والسكيث (الأراميين) وضمنهم الإسرائيليون. وهنا نقف نستمع إلى الباحث علي الشوك يقول: «وكانت للسفنكس أهمية خاصة عند الهكسوس، وهم ساميون أو كنعانيون، حكموا مصر ما بين ١٦٧٥ و ١٥٨٠ ق.م. ويعتقد عددٌ من الباحثين أن الهكسوس هاجروا إلى اليونان بعد أن أُجِّلوا عن مصر ... وقد عثر في بيوتيا/اليونان الشرقية على نقشٍ يرقى

^{٣٣} نفسه، ص ٥٤٠، ٥٤١.

^{٣٤} الخشاب ... سبق ذكره، ص ٤٦، ٤٧. انظر أيضاً: Graves, The Greek Myths ... Vol. II, p. 13.

^{٣٥} دوماس، آلهة ... سبق ذكره، ص ٤٤.

إلى القرن الثالث عشر، تظهر فيه صورة ملك أمام سفنكس (أبي هول)، ولا بد أنه يرمز إلى أوديب. ويؤكد على أن قصة أوديب والسفنكس كانت معروفة في القرن الرابع عشر [وهو زمن إخناتون تحديداً/المؤلف] ... ولا بد أن أوديب كان يونانياً، وهو ما يدل عليه اسمه «القدم المتورمة» ... لكن أجداده كانوا كنعانيين على ما يبدو. فلابداكوس جده المباشر يذكرنا اسمه بالحرف الأبجدي الفينيقي لابدا أي حرف اللام ... وجد لابداكوس هو قدموس الكنعاني باني طيبة.^{٣٦}

ويلاحظ علي الشوك ما جاء عند بلوتارتك بخصوص فسوق فرس النهر، لكن ليسوق قول روبرت جريفز الساخر من فرويد، واكتشافه لعقدة أوديب فيقول: «وعندما أشار بلوتارك ٤٦ / ١٢٠ ق.م. في كتابه إيزيس وأوزيريس إلى أن فرس الماء قتل أباه، وأجبر أمه على معاشرته، لم يرد في حسابانه أن الرجال عندهم عقدة فرس الماء، ولا شك أن روبرت جريفز يسخر بهذا من نظرية فرويد حول عقدة أوديب.»^{٣٧}

وهنا نستمع إلى بلوتارك يحدثنا عن الإله الذي عبده اليونان باسم طيفون وعرفناه سيت المصري: «ومن أجل هذا يخصونه من بين الحيوانات المستأنسة بالحمار وهو أغباها، ويخصونه من بين الوحوش بأشرسها، وهما التمساح وفرس النهر ... ويشيرون في هرموبوليس (الأشمونين) إلى تمثال توفون على هيئة فرس النهر، يقف على ظهره باشق يصارع ثعباناً.»^{٣٨}

ثم يعود بلوتارك إلى فرس النهر ابن الماء، الذي حيكت حوله تلك القصة في نهاية الأسرة الثامنة عشرة، التي ضمتها أسرة العمارنة وبيت إخناتون المارق، فيقول: «إن فرس النهر يعبر عن القحة؛ إذ يُقال إن هذا الحيوان كان يجمع أمه بالقوة، بعد أن يقتل أباه.»^{٣٩}

ولا تفوت العين المدققة رمزية الباشق يصارع الثعبان على ظهر «توفون/سيت/فرس النهر/ابن الماء»؛ لأن الباشق هو الفينيقي القادم من بلاد العربية أدوم مديان، حيث الثعابين الطائرة قاتلة الحيات في الأسطورة.

^{٣٦} علي الشوك، مأساة أوديب بين تحليلات فرويد وفرس الماء، صحيفة الحياة اللندنية، بتاريخ ١٧ / ٦ / ٩٣.

^{٣٧} الموضع نفسه.

^{٣٨} بلوتارك، إيزيس ... سبق ذكره، ص ٧٨، ٧٩.

^{٣٩} نفسه، ص ٥٥.

ويقول لنا صاحب كتاب دولة الأنباط: إن هناك مَنْ كان يعبد عددًا من الأرباب أهمها ذو الشرى، وإن أهم رموز ذي الشرى كانت هي الأفعى والنسر/الباشق، صائد الحيات.^{٤٠} وكان الثعبان والنسر هما الرمزين اللذين اتخذهما كلٌّ من بولينكيس وأتيوكليس؛ ولدا أوديب، أو الملك سمنخ كا رع وأخيه توت، ولدا إخناتون، أو جرشوم وأليعازر ولدا موسى، عندما عاد سمنخ كا رع، بولينكيس في الأسطورة اليونانية بأهالي تلك البلاد إلى مصر، في غزوة هكسوسية ثانية، انتهت بالفشل الذريع وبموت الأخوين الملكين الصغيرين.

وقد أحاطنا دي بوا إيميه علمًا، أن رسالة الملك اليوناني أريوس ملك لأكديمونيا، إلى كبير أحبار يهود زمانه، أن بين اليونانيين وبين اليهود قرابة جنسية بالدم في أزمنة قديمة، وختم رسالته بخاتم يحمل رسمًا لنسر يصارع ثعبانًا.^{٤١}

والغني عن البيان هنا أن اسم موسى يتركب من شقين أو ملصقين هما «مو = ماء + سا = ابن» = موسى = ابن الماء. وهو اللقب الذي أطلقته الأميرة الفرعونية على موسى، عندما عثرت عليه وصفًا لحاله حسب الأسطورة التوراتية، وابن الماء هو لقب فرس النهر، الذي قتل أباه وتزوج أمه.

وبعد سنواتٍ طويلة من التطور الارتقائي الطويل، كتب المحرر التوراتي معبرًا عن انشغال بالٍ يقف وراء ما كتب «وعورة أمك لا تكشف. لاويين ١٨ / ٧». فهل كان في زمنه مَنْ يكشف عن عورة أمه لينهاه عن ذلك؟ وبقي فرس النهر في ذاكرة المصريين رمزًا للفسق الأعظم، وعدوًا وعلمًا على تيفون سيت رب سيناء والصحارى الجداء، القبيح الذي يأتي المحارم، وذكرى فرعون مهرطق قرر المصريون نسيانه، ونسيان اسمه ونسيان أسرته بالكامل (أسرة العمارنة). وقد لاحظ لويس عوض علاقة اسم قرية العمارنة بآل عمران العبران، فوقف ينبّه قارئًا في كتابه «فقه اللغة»:

أما اسم عمران هذا الذي انتسب إليه موسى، وانتسبت إليه العمارنة/أختياتون مدينة إخناتون، فهو بحاجة إلى تحليل لغوي وإثنولوجي بوصفه إبونيم Eponym قبليًا [وهذا ما فعلناه في كتابنا هذا/المؤلف]. وفي تقديري أن اسم عمران ومشتقاته، له علاقة باسم العمو Ammou أو العمو Amrou، وهي

^{٤٠} إحسان عباس، تاريخ دولة ... سبق ذكره، ص ٢٩.

^{٤١} دي بوا إيميه ... سبق ذكره، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

القبائل التي احتلت دلتا مصر أو شرقها مع الهكسوس وفي زمنهم؛ فنصوص مصر القديمة تحدثنا دائماً عن كفاح مصر ضد الخازو والعمو بعد الفتح الهكسوسي، والصلة بين الخازو والعمو غير واضحة عند المؤرخين. وعلى كلٍّ فالأمر بحاجة إلى مزيدٍ من التحقيق، للتثبت من وحدة أسماء الأعلام المذكورة، فهي مجرد اجتهادات تعتمد على قرائن لا على أدلة.^{٤٢}

وفي كتابه «الفكر المصري الحديث» سبق للويس عوض أن طرح ذات الأفكار وربطها بالممالك (الغز/الخازو)، وبالأُسرة الأباضية التي تعيش على أطراف الدلتا الشرقية في مصر حتى اليوم. وعلينا أن نلاحظ أن تلك الأسرة قد توارث ضخامة الجسم العملاق عن العموريين، واللون الأحمر عن الأراميين حتى الآن، وفي هذا قال عوض:

قبيلة الهوارة ... يُسمَّون أحياناً في الجبرتي وغيره الهوارة قبلي، مما يوحي بأن هناك هواراً بحري ... وأنهم من فلول أفاريس أو أواريس Avaris عاصمة الهكسوس في الشرقية، التي تمت تصفيتها في الدولة الحديثة ... وهذا يفسر اشتغالهم بالزراعة وتحضرهم، لكن مع رفضهم مخالطة المصريين في الوقت ذاته. وهذا يفسر نسبة الإمارة لزعمائهم من ناحية، بل وصفة الملكية التي نسبها الجبرتي إلى كبيرهم، الأمير همام بن يوسف صاحب الثورة الكبرى في القرن الثامن عشر ... بل إن هناك ما يوحي بأن الممالك أنفسهم، واسمهم التقليدي طوال العصور الوسطى (الغزو)، هم أيضاً طوائف من الهكسوس Hyksos، وهي كلمة يونانية قديمة محرّفة عن الاسم المصري القديم لهؤلاء الغزاة ... ولا يبعد أنهم بعد طردهم من مصر أيام أحمس، وتصفية مملكة أفاريس أيام رمسيس الثاني، استقروا في الحجاز، وسميت هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية باسمهم ... وقد كان اسم مكة في خريطة بطليموس ملكاي Melchae (قارن: ممالك وعماليق). أما اسم الهكسوس الرسمي كما ورد في نقوش الآثار المصرية القديمة ... فهو خزو Chesou ولا يبعد أن «خزو» هذه هي أصل كلمة «الغز» بمعنى الممالك. وفي هذه الحالة لا يكون هناك فرق جوهري، بين هكسوس أو خزو دولة أواريس في العالم القديم ...

^{٤٢} لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص ٢١.

وغزو العصور الوسطى أو ممالكها، ويكون هؤلاء وأولئك موجات مختلفة من الفرسان الرعاة، الوافدة إلى مصر في عصور انهيار السلطة فيها من جورجيا وبلاد الألبازة.^{٤٣}

إن عوض يلّمح إلى أن «الغزو» هم الخازو، هم الهكسوس هم العمو هم بنو إسرائيل، وأنهم قدموا من بلاد أرات وجورجيا (بلاد الألبازة أو الألبازة)، وهي رؤية لماحة، لكنها لم تدقق تفاصيل ما حدث، فقد كان الهكسوس كما علمنا في بحثنا هذا أكثر من عرق متميز لكن متحالفين.

وإن نظرة فاحصة للتكوين الاجتماعي لسكان مدينة إخناتون (أخت آتون أو أختياتون)، والحاشية التي أحاط بها إخناتون نفسه، يمكنها أن تفسر لنا اسمها الحالي «العمارنة» جمع «عمران»، وتؤكد قدم ذلك الاسم التاريخي. وليس فقط لأنه اسم قبائل العمارنة، التي تعيش هناك الآن في قرية التل ومنحوها اسمهم، وربما كانت هذه القبائل المعاصرة من بقايا ذلك الماضي التليد. إن نظرة على سكان أخت آتون توضح أنها كانت تغص بعوام الناس، الذين لم تدون لهم المصادر أصلاً مصرياً نبيلًا واضحًا. ويقول «جاردنر»: «وأما عن الشخصيات التي منحها إخناتون فيما بعد مقابر صخرية في العمارنة، فلسنا نعرف من بينهم سوى واحد تبعه من طيبة، هو ساق يه بارننوفه».^{٤٤} وإن كنا نعلم أنه قد صحبه أيضًا «حويا»، صاحب المقبرة الشهيرة بلوحت الوليمة. إلى هذا الحد لم يكن من أتباع إخناتون في بلاطه، الذي انتقل من طيبة إلى العمارنة، سوى واحد واضح المصرية أو اثنين، كان من قبل في بلاط طيبة. أما بقية الجماهير الذين عَجّت بهم العمارنة، فكانوا مجهولي الأنساب في المدونات المصرية، وهو الأمر النافر تمامًا عن المعتاد المقدس، الدائم في بلاط مصر القديمة. وقد رجح البعض مثل «آلدريد» أن سبب مجهولية تلك الأنساب يرجع إلى أنه «لم يكن رجال بلاط إخناتون من عائلات عريقة، بل كانوا رجالاً من عامة الشعب، يرجع الفضل كله في سمو مكانتهم للفرعون نفسه».^{٤٥} ويبدو أن هؤلاء «العوام» المجهولين، قد ارتفع شأنهم مع ملكهم الذي اختارهم لنفسه شعباً من دون الناس، ووصل ببعضهم إلى مراتب عليا، مثل اللواء «ماي» الذي

^{٤٣} لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث، كتاب الهلال، القاهرة، أبريل ١٩٦٩م، ص ٣٧، ٣٨.

^{٤٤} جاردنر، مصر الفراغة ... سبق ذكره، ص ٢٥.

^{٤٥} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٤.

عين مشرفاً على الوحدات العسكرية للوجه البحري وأميناً لسر القصر. وهو ما يعنيه لقبه «حامل أختام الملك في الوجه البحري». وقد دون ماي في مقبرته أنه ليس من أسرة معلومة الشأن بين الناس، بل غالى في التأكيد على انتمائه لأسرة وضيفة مجهولة.^{٤٦} والغريب أن هذا الوضع قد ارتقى في المناصب إلى وظيفة سفير بالخارجية، وهو ما كان مستحيلاً أن يرتقيه غير مصري قبل تلك اللحظة، بل كان مستحيلاً أن يرتقيه مصري غير متعلم ومثقف ثقافة عليا؛ لأنه يمثل شخص الفرعون وجلاله في البلاد الأجنبية، وكان يجب أن يكون متضلعا في لغات تلك الشعوب، بل وعاداتها وتقاليدها وديانتها، فما بالنا و«ماي» هذا شخص مجهول الأصل؟! هذا ناهيك عن زميله «عبريا»، الذي وصل إلى رتبة رئيس وزراء.

إن «ماي» كي يقوم بهذه المهمة، كان عليه أن يلم بلغات وعادات البلاد، التي أوفد إليها بسفارته في بلاد الشام، وكى يكون كذلك وهو غير مصري، وليس من الطبقة التي أتيح لها العلم والثقافة، فلا شك أنه كان من أبناء تلك البلاد البعيدة. ونحن نعلم من كتاب اللآلئ/التوراة الكنعانية، أن كاتبها الذي عمل كبيراً للمعلمين في القصر الملكي في أوغاريت التي دمرها العبيرو، أن هذا الكاتب كان يعمل في بلاط العمارنة، وأن اسمه كان إيلي ماي ليكو، فهل كان ماي هذا هو ماي ليكو؟ وكان هو من نقل قصة أحداث العمارنة ونشرها هناك؟

وتشير نقوش العمارنة إلى أن إخناتون، أحاط نفسه وأسرته بفيالق من العسكر، تتولى حمايته هو وأسرته بالتحديد، وليس بينها من يفصح تكوينه عن أصول مصرية، والسمات العامة لهذا الحرس سمات آسيوية بدون نقاش.^{٤٧}

ثم تحيطنا رسائل العمارنة علماً بشخصية أخرى، هي وزير الخارجية «دودو» أو «توتو»، الذي بلغ من السلطان مراتب عظيمة، وقام بدور المفاوض السياسي والدبلوماسي مع الأقاليم الآسيوية، «ويرى بعض المؤرخين أنه ربما كان ينتمي على أصل أجنبي، أو أنه سليل محارب آسيوي كان قد أسر»^{٤٨} فيما سجل لنا «أحمد قدرى». وفي مقبرة

^{٤٦} أحمد قدرى، المؤسسة العسكرية ... سبق ذكره، ص ١٥٣.

^{٤٧} آن زيفي، مقبرة عبريا، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٥ م.

^{٤٨} نفسه، ص ١٤٩.

وزير إخناتون (رمسيس)، نجد تصويرًا في لوحة لأتباع هذا الوزير، وليس بينهم مصري واحد.^{٤٩}

وتبدو علاقة الآسيويين بعبادة آتون، علاقة حميمة داخل بلادهم، فلدينا رسالة من الملك الكوشي علي بابل (يورنا بورياش) الثاني موجهة إلى إخناتون، يقول فيها: «إني بأذل الآن جهدًا كبيرًا في بناء المعبد، وسوف أنجز العمل بدقة، فأرسل لي قدرًا وافيًا من الذهب». ^{٥٠} هذا ما دونه المؤرخ العراقي طه باقر، ومن جهة أخرى سجلت جوليا سامسون: «أنه قد عُثر على بقايا معبد، أقيم لعبادة آتون في إحدى المناطق السورية». ^{٥١} وهكذا نظن إخناتون قد اختار له شعبًا، يعرف عقيدته ويسهل انقياده لمثلها الملكي وطاعته والولاء له، بل وربما الموت في سبيله، وهو ذلك الفصيل الآسيوي الذي كان أسيرًا في مصر، منذ طرد الأحلاف الهكسوس، وهم العبارنة أو العمارنة. فالباء تتبادل مع الميم بقانون تبادل الشفويات والأنفيات، نسبة إلى عابر أو عامر أو عمران، الذين كانوا يتعبدون للإله هفا أو هوا أو يهوه رب الريح، وينعتونه بلقب السيد الذي هو بلغتهم «آدون»، الذي سجله اللسان المصري الأكثر رقة «آتون»، الذي كان بالأصل ربًا مصريًا مهجنًا بالبدوية السامية السينائية، هو آتون النار البركاني القضبي، والذي تعد الشمس أجلى مظاهر قدرته النارية، ولم يكن أحد يذكره إلا لمامًا، حتى جاء إخناتون وأعلنه ربًا واحدًا.

^{٤٩} جاردنر: مصر الفرعنة ... سبق ذكره، ص ٢٤٥.

^{٥٠} طه باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص ٤٦٠، ٤٦١.

^{٥١} سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ٢٩.

الباب الرابع

نهاية البطل

الفصل الأول

آتون وآدون

إن ما حدث في العمارنة، واختيار إخناتون لأوليائه ومواليه وحاشيته، يذكرنا باللمحة العبقريّة لسيجموند فرويد وهو يقول: إن جميع شعوب الدنيا كانت تختار آلهتها، إلا الشعب الإسرائيلي وحده، هو الذي تم اختياره من قبل إله، ليتأله عليه ويتخذه شعباً له. وقد دَوّنت لوحات العمارنة اسم الإله بالصيغة (آ. ت. ن.) ATEN، التي تمثل الشمس ذاتها كفرن وآتون عظيم. ويحيطنا لسان العرب علماً تحت مادة آتن قوله: «الآتون بالتشديد الموقد ... قال ابن خالويه ... ولا أحسبه عربياً وجمعه آتن.»^١ ومعلوم أن رب الشمس في الأكادية كان هو أوتو AUTU أيضاً، وتعني السيد أو راعي رعيته. وقد صور إخناتون الرب أو السيد آدون أو آتون في هيئة قرص شمس، تخرج منه أذرع رفيعة تنتهي بكفّ يمنح العنخ/العنق/الحياة (رمز العنخ)، وكف يحمل الـ «واس» رمز السعادة لتضعها عند أنف إخناتون، وهو ما يعني أن آتون يمنح بذراعيْن ممدودتين الحياة والسعادة، فهل نجد بالديانة الإسرائيلية أي أثر لذلك التصور عن الإله؟ وكما أوضحنا توصلّ فرويد إلى أن الإسرائيليين بعد خروجهم من مصر إلى سيناء، نكسوا عن التوحيد الإخناتوني في قادش سيناء، وعادوا إلى صورة الأدون يهوه ممثلة في العجول وأشباهاها من ذوات القرون. لكن فرويد يقول إن الاعتقاد القديم ظلّ كامناً حتى جاء زمن أنبياء التجديد في القرون المتأخرة قبل الميلاد، ليعيدوا التوحيد إلى صورته الأولى الآتونية الإخناتونية. وقد وجدنا من جانبنا نصوصاً بالتوراة تفصح بوضوح عن أصولها الآتونية في شمس تركب السماء، وتمتد من تحتها أذرع أبدية رفيعة، وهي الصورة التي ابتكرها إخناتون لربه. ومن نماذج ما عثرنا عليه في التوراة، يشير إلى تلك اللوحة القديمة:

^١ فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج ١، ص ٢٨٧.

أنا الرب، وأنا أُخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأنقذكم من عبوديتهم، وأُخلصكم بذرَاعٍ ممدودة.

(خروج، ٦: ٦)

هل شرع الله أن يأتي ويأخذ لنفسه شعبًا من وسط شعب، بتجارب وعجائب وحرب ويد شديدة، وذراع رفيعة ومخاوف عظيمة، مثل كل ما فعل الرب إلهكم في مصر؟

(تثنية، ٤-٣٤)

هم شعبك وميراثك الذي أخرجته بقوتك العظيمة وبذراع الرفيعة.

(تثنية، ٩-٢٩)

عظمته ويده الشديدة وذراعه الرفيعة.

(تثنية، ١١-٢)

وهنا قد يقال إن الذراع الرفيعة في وصف يهوه مسألة مجازية، تشير إلى قدرته، وليس إلى يد بالفعل كما في لوحات إخناتون؛ لذلك نسوق من التوراة تلك اللوحة التي تصور رب إخناتون، كما تخيله الفرعون، وكما تم نقشه ورسمه في مصر، يقول الكتاب المقدس كما لو كان يصف لوحات الإله آتون:

ليس مثل الإله، يركب السماء في معونتك، والغمام في عظمته، الإله القديم ملجأ والأذرع الأبدية من تحت.

(تثنية، ٣٣: ٢٦-٢٧)

هكذا إذن تتفق القصص الثلاث «إخناتون» و«أوديب» و«موسى» على عناصر تأسيسية متطابقة نبوءة، طفل يولد يشكل خطرًا على الملك. استبعاد الطفل صغيرًا بعيدًا عن أهله، الطفل ابن ملكي سواء بالتبني أو بال ميلاد. وغني عن التنويه أن موسى

إضافة لتبنيه من قبل ملك حسب الرواية التوراتية، فهو في نظر بني إسرائيل من بيت ملكي، هو بيت آل عمران. وتتفق الروايات الثلاث أيضًا على عودة الطفل يافعًا، في أول مراحل الصبي إلى بيت أهله، حيث يقتل أباه في الطريق كما حدث مع أوديب عندما قتل لايوس، أو يقتله بعد عودته كما فعل إخناتون باسم أبيه، أو كما حدث مع موسى في رمزية قتل المصري (لاستبعاد شبهة الأصل المصري)، ثم هربه إلى مديان، ثم عودته إلى مصر بتوجيه إلهي «وقال الرب لموسى في مديان، اذهب ارجع إلى مصر؛ لأنه قد مات جميع القوم الذين يطلبون نفسك» (خروج، ٤: ١٩-٢٠)، وهو ما يعني لنا خبر موت آمنحتب الثالث، وعودة إخناتون إلى مصر لتولي العرش.

ثم تتفق الروايات الثلاث إن تصريحًا أو تلميحًا على زواج البطل بأكثر من زوجة، يظهر من بينهن زوجة أولى تختفي في الظل عندما تظهر الزوجة الثانية، كما تتفق جميعًا على أن الزواج الثاني قد أغضب الآلهة، فضربت البلاد بالوباء، وهو ما عبر عنه الملك توت عنخ آمون، الذي ارتد بعد اختفاء إخناتون إلى عبادة آمون، وأصبح اسمه توت عنخ آمون؛ إذ يقول: «إن الأرض كانت مريضة وأغلقت معابد الآلهة، وهجرت الآلهة هذه الأرض؛ لأن البلاد كانت في مأزق أثيم».^٢ أما الأسطورة اليونانية فتقول إن الآلهة أرسلت الطاعون على طيبة اليونانية، بعدما تزوج أوديب من أمه يوكاستا.^٣

أما الكتاب المقدس فقد أسهب في شرح الوباء في سفر الخروج (٢٣ / ٢٥)، وفي سفر اللاويين بدءًا من الإصحاح الثالث عشر، كذلك في سفر العدد (١٦ / ٤٩)، وسفر التثنية (٢٧ / ٢٨، ٣٥).

ويبدو أن هناك وباء قد حدث حقًا، ربطه الناس بقصة الملك الخاطيء؛ لأن أحمد قدري يحيطنا علمًا أن هناك كتابات حيثية، تؤكد أن وباء الطاعون قد انتشر في منطقة الشرق الأدنى في تلك الفترة من الزمان، وبالتحديد المبين زمن العمارنة؟! وقد حجّم هذا الوباء من الخطر الحيثي ضد مصر، وأعطى الفرعون حور محب حرية الحركة العسكرية في المنطقة، بعد سقوط أسرة العمارنة، وقام بتطهير مصر من آخر العناصر الأجنبية.^٤ كذلك أنجب الأبطال الثلاثة، كلٌ منهم ولدَيْن؛ فقد أنجب إخناتون سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، وقد أكد لنا ألدريد أنه: «قد أصبح من المسلّم به أن سمنخ كارع وتوت

^٢ سليم حسن، الأدب المصري ... سبق ذكره، ج ٢، ص ١٢٩، ١٣٠.

^٣ Graves, The Greek Myths ... Vol. II, pp. 11-12.

^٤ أحمد قدري، المؤسسة ... سبق ذكره، ص ١٧٤.



شكل رقم «٢٢٢»: الإله القديم يركب السماء والأذرع الأبدية الرفيعة من تحت تمتد إلى توت
عنخ آتون وزوجته.

عنخ آمون كانا أخوين. والواقع أن رفاتهما المتبقية تُظهر تشابهاً غير عادي، وخصوصاً
بين قياسات جمجمتيهما المفرطتين الشاذتين ... وقد ثبت في دراسةٍ حديثة اعتمدت
على تحليل الدم، أن فصيلة دمائهما كانت واحدة (A2MN) ... وتطابق شكل الملكين
الصغيرين، يدل على أنهما شقيقان لأبٍ وأمٍ^٥. كذلك تقول الأسطورة اليونانية إن أوديب

^٥ آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٩٣.



شكل رقم «٢٢٣»: جلسة عائلية تحت أيدي الرب الرفيعة نفرتيتي إلى اليمين، بثوب مفتوح من أسفل تحمل طفلتين من أطفالها، لاحظ رؤوس الصغيرات، وإخناتون إلى اليسار يداعب واحدة من بناته، وتيجان الوالدين العالية وملافحهم الطائفة.

قد أنجب ولدين هما بولينكيس وأيتوكليس، ويُحيطنا الكتاب المقدس علمًا أن موسى قد أنجب ولدين هما أليعازر وجرشوم.

لكن إذا كان أوديب قد تزوّج أمه يوكاستا، وإذا كان إخناتون قد تزوج أمه تي، وإذا كان موسى قد تزوج أمه صفورة ورمز لها بالأم في ختانه، ولو في الأسطورة التوراتية دون الحقيقة، فماذا عن الزوجة الأولى؟ وهي في حالة إخناتون تحمل اسم نفرتيتي،

وفي حالة أوديب تحمل اسم يوريكانيا.^٦ وفي حالة موسى تحمل اسم صفورة لدينا هنا مشكلة فيما يتعلق بالزوجة في القصة الأصلية «نفرتيتي»؛ إذ يقول «جاردنر»: «إن الملكة نفرتيتي مستها فضيحة ما في العام الثاني عشر أو بعده بقليل، ما لم تكن قد ماتت، وقد مُحي اسمها دوماً من مبنًى خاص بها، يدعى مارو آتون يقع إلى جنوبي المدينة، وأحل محله اسم ابنتها الكبرى مريت آمون.»^٧ لكننا نفهم من آلدريد أن إخناتون كانت له زوجة ثالثة تسمى كيا، وجد اسمها محفوراً على إناءٍ من الكالسييت محفوظ الآن بمتحف نيويورك،^٨ وبهذا يشذ عن قاعدة الزوجتين (بالطبع هذا عدا الحريم الملكي)، رغم أنه الأصل في النماذج التي صِيغت فيما بعد، على قصته في العبرية واليونانية، فهل ترانا قد أخطأنا هنا خطأ واضحاً؟

نقف الآن مع هذه المشكلة نحاول الفهم؛ لنقرأ عن نفرتيتي: «إن اسمها يُنطق حسب كتابته بالخط الهيروغليفي «نفرت إيتي» أي الجميلة آتية أو مقبلة، أو كما سميت في السنة السادسة من حكم زوجها «نفر نفرو آتون»؛ أي الجميلة جمال آتون. ولا يزال موضوع أصل نفرتيتي موضوع نقاش بين المتخصصين؛ إذ لم يذكر أي نص اسم والديها. ويعتقد البعض أنها تنتسب إلى إحدى الأسرات الأجنبية، التي كان يعج بها البلاط الملكي في عهد آمنحتب الثالث، وقد اختلف أصحاب ذلك الرأي؛ فمنهم من رأى أنها ميتانية الأصل، أي من شمال سوريا، ومنهم من رأى غير ذلك.»^٩

ويكرر عبد المنعم أبو بكر فيقول: «يغلب على الظن أن نفرتيتي تنتسب إلى إحدى الأسرات الأجنبية، التي كان يعج بها البلاط الملكي، وكثر الحديث عن الانبعاث الغريب الذي تميّزت به مؤخرة الرأس للأميرات، وخاصة في التماثيل والرسوم التي تمثلهن إبان الطفولة المبكرة. وواضحٌ من التماثيل أن هذا الانبعاث الغريب، لم يكن نتيجة طريقة تصفيف الشعر، بل هو نتيجة لمحاولة مقصودة.»^{١٠}

وثمة اجتهاد آخر في تفسير اسم نفرتيتي، أو على الأدق الشق الثاني في اسمها «تي»، فالشق الأول «نفر» يعني الجميلة، أما الثاني «تي» — وهو اسم الملكة الأم — فهو طي

^٦ عبد المعطي الشعراوي، أساطير إغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٢٤٩.

^٧ جاردنر، مصر الفرعونية ... سبق ذكره، ص ٢٥٩.

^٨ آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٩٣.

^٩ جمال مختار، مقدمته لكتاب نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ١٢، ١٣.

^{١٠} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٨٦.

في العربية من الأصل السيرياني طي Tayyaya. واللغة العربية تسمى في السريانية لسان طي لشاناً طايايا Lessana Tayyaya. وقد ترجم صاحب الاجتهاد اسم نفرتيتي وفق ذلك بأنه «جميلة طي».^{١١} والأصوب: «الجميلة العربية». ونحن نعلم أن منطقة عرابة عند سعيير وحتى حدود الدلتا الشرقية، كانت تعرف بالمنطقة العربية.

بينما ألدريد يرى أن نفرتيتي هي ذات الأميرة الميتانية تادوخيبا، بدليل أن اسمها يعني «آتت الجميلة» باعتبار «تي = آتت».^{١٢} وهو ما يشير إلى قدومها من خارج البلاد. وتظهر لنا نقوش العمارنة أن إخناتون حذا حذو أبيه، فمجد زوجته التي لا شك كانت تعاني من عداء الكهنة، عندما رفعها زوجها لمرتبة الزوجة الملكية العظمى/الرسمية/الرئيسية التي تنجب ولي العهد، وهي غير مصرية. وقبل ذلك كان يتم تصوير الملكات الرئيسيات في أوضاع لا يتجاوز فيها طول الملكة الواقعة ركبتى الملك الجالس، لكن آمنحتب الثالث وإخناتون خرجا على هذا المألوف المعتاد، وفعل إخناتون فعل أبيه عندما صور تي بذات حجمه، فصور إخناتون نفرتيتي في صورتها المتكاملة، التي لا تقل عنه بحال، لتأكيد أنها ملكة كاملة الأهلية، بل إنه أطلق على نفرتيتي لقباً كان قاصراً على أميرات القصر المصري فقط، هو لقب الوريثة، بل تشير كل النقوش إلى حرص واضح من جانب إخناتون لإعلان نفرتيتي ليس فقط مجرد ملكة، بل كشريكة في الحكم مثله سواء بسواء.^{١٣}

وعلى اللوحات الضخمة التي أقامها إخناتون على حدود مدينته، وصف لنفرتيتي يصفها فيه الفرعون بقوله: «مليحة الوجه المبتهجة بالريشتين، ربة السعادة، فريدة الحس، رخيمة الصوت، سيدة الكياسة والرشاقة، عظيمة في الحب، بهيجة في الطبع، مصدر سعادة سيد القطرين».^{١٤}

لكن ماذا يقصد جاردنر بقوله إن هناك فضيحة لحقت بنفرتيتي في آخر أيام تل العمارنة؟ لقد لوحظ اختفاء اسم نفرتيتي، بل محوه بعد وصول الملكة الأم إلى العمارنة،

^{١١} فهمي خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج ١، ص ٥٢٧.

^{١٢} ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٦.

^{١٣} سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ٤٥، ٤٦، ٥٧.

^{١٤} ألدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١٧.

كما وجدت شواهد على أنها انتقلت إلى أطراف مدينة أخت آتون، لتعيش هناك في عزلة غير مبررة أو واضحة السبب.^{١٥}

ويشرح لنا عبد المنعم أبو بكر الأحداث التي تتابعت بعد ذلك، وما حدث لنفرتيتي باختفاء إخناتون المفاجئ والمغز فيقول: «في هذا الجو المشحون بكل عوامل الكراهية والحقد والفساد، تأتينا الأخبار أن نفرتيتي تحاول الثأر لنفسها، فترسل خطاباً إلى الملك الحيثي شوبيلوليماء، وتطلب منه أن يرسل أحد أبنائه ليتزوجها ويتولى عرش مصر. كان هذا التصرف من نفرتيتي بمثابة صفقة دنيئة على وجه مصر والمصريين. يحدث هذا في العصر الذي حاول فيه أكثر من ملكٍ آسيوي، أن يخطب لنفسه أو لابن من أبنائه إحدى بنات البيت المالكة المصري، فكان يأتيه الرد دائماً بالرفض، واستجاب الملك الحيثي لهذه الدعوة وأرسل بالفعل أحد أبنائه، الذي لم يكد يصل على مقربة من الحدود المصرية، حتى داهمه بعض المصريين وقتلوه، وقضوا بذلك على هذه المؤامرة، أو حسب رأي مصري مصر في ذلك الوقت، إنهم قضوا على هذه الخيانة العظمى. وقد صممت الآثار المصرية عن هذا الحادث، ولم تذكره وثيقة ما، إلا أن إحدى الوثائق الحيثية التي عثر عليها في أطلال بوزازكوي العاصمة القديمة لدولة الحيثيين، ذكرت هذا الحادث، وقام بتسجيله الملك مورسيل الثاني ابن شوبيلوليماء.»^{١٦}

وقد ترجم لنا جوتر بوك، الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو، ذلك النص وفقاً لرواية مورشيليش الثاني Mursilis II ابن شوبيلوليماء Suppiliumas كالآتي: «بعثت ملكة مصر إلى أبي رسولاً، وكتبت في رسالتها تقول: مات زوجي وليس لي ابن، فلو منحتني أحد أبنائك لصار لي زوجاً، ولن أختار قط أحداً من خدمي ليكون لي زوجاً، وأنا خائفة. وعندما سمع أبي هذا دعا إليه العظماء للتشاور، وقال لهم: إن شيئاً مثل هذا لم يحدث لي في حياتي قط.»^{١٧}

وكانت عبارة «ليس لي ابن» مدعاة للتشكك في شخصية الملكة التي أرسلت الخطاب، فاتجه رأي البعض إلى أن صاحبه ربما تكون نفرتيتي، وأن عبارة ليس لي ابن من باب التجاوز، بينما رأى البعض أن الرسالة كانت موجّهة في تاريخٍ لاحق من أرملة توت عنخ

^{١٥} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ١١٦.

^{١٦} نفسه، ص ١١٨، ١١٩.

^{١٧} إيفارلسنر، الماضي الحي ... سبق ذكره، ص ٨٧.

أمون (عنخ اسن ابن باتون)^{١٨}، أما إعلان خوفها وهي ملكة، فهو ما يشير إلى شعور بالوحدة والاعتراب، في مجتمع ليس مجتمعها.

حتى الآن ليس هناك بالقطع فضيحة واضحة، إذا لم تكن نفرتيتي هي من أرسل هذا الخطاب، ومع ذلك يصر المؤرخون على تلك الفضيحة غير الواضحة، فيقول — مثلاً — شتيندورف وسيل: «إنه في حوالي العام السادس عشر من حكمه، وقع اضطراب خطير في العاصمة الجديدة، فقد سقطت الملكة نفرتيتي في فضيحة، وانعزلت في الطرف الشمالي من المدينة، حيث أقامت لنفسها قصرًا جديدًا. والأشياء التي عثر عليها في خرائب هذا القصر، تشير إلى احتمال أن تكون قد أخذت معها في المقر الجديد، الأمير الطفل توت عنخ آمون»^{١٩}.

ويرى شتيندورف وسيل من جانبهما أن صاحبة تلك الرسالة، كانت بالقطع الملكة نفرتيتي، التي كانت تدبر مؤامرة واضحة وكبرى، لتنفرد بالسيادة ويرى «أنه ليس من المستبعد أن تكون قد لقيت حتفها مع عريسها المنتظر؛ إذ إنها تختفي عند هذه النقطة من مسرح التاريخ، ولا يُسمع عنها شيء بعد ذلك»^{٢٠}.

أما الباحثة والمصروولوجيست الأمريكية «جوليا سامسون» فتتخذ موقف الدفاع الحاد عن نفرتيتي، وتؤكد أنه لم تُصبها فضيحة ولا يحزنون، وأنه إذا كانت تلك الفضيحة قد افترضت افتراضاً، بناءً على انعزالها في قصر شمال المدينة، وابتعادها عن القصر الملكي الإداري، فإنها من جانبها قد توصلت إلى أن من قالوا ذلك، قد أخطئوا خطأ فاحشاً، حيث التُبست عليهم قراءة الاسم الممحو من آثار ذلك القصر، الذي لا يجب قراءته نفرتيتي، إنما يجب قراءته «كيا». وافترضت أن «كيا» هذه إحدى الزوجات الثانويات لإخناتون، وقد كتب اسمها بشكلٍ يمكن أن يؤدّى منطوقه بالخطأ إلى اسم نفرتيتي، خاصة مع عمليات المحو التي لحقت بذلك الاسم.

وتشرح «جوليا سامسون» نظريتها تحت عنوان: «تصحيح خطأ تاريخي» فتقول: «النظرية ... التي تقول بمحو اسم نفرتيتي، وإبداله باسم ابنتها مريت آتون، قد ثبت خطأها، بعد دراسة متأنية لبقايا الاسم الذي تم محوه، والتي قرئت خطأً على أنها بقايا

^{١٨} نبيلة عبد الحليم، معالم التاريخ ... سبق ذكره، ص ٧٥.

^{١٩} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢١٧.

^{٢٠} نفسه، ٢٢٢.

اسم نفرتيتي؛ فقد ثبت الآن أن الاسم المحو كان اسمًا لامرأة أخرى هي كيا، وفي عام ١٩٧٤م نشر البروفيسور جون هاريس John Harris تقريرًا علميًا مفاده أنه ... تبين له بصفة مؤكدة أن الاسم المحو لم يكن اسم نفرتيتي، بل كان اسمًا لامرأة تدعى كيا ... وتدل الشواهد الأثرية التي اكتُشفت أو عُثر عليها مؤخرًا، أن كيا كانت زوجة ثانوية لإخناتون، مجرد زوجة من الحريم، لكنها أبدًا لم تكن زوجته الملكية العظمى، فلم يكتب اسمها إطلاقًا داخل الخرطوش الملكي، ولم تضع على رأسها تاجًا ... وقد عُثر على منظرٍ لها منقوش على أحد الأحجار، التي نُقلت من العمارنة بعد تدميرها إلى مدينة هرموبوليس/الأشمونيين حاليًا. تظهر فيه كامرأة عادية من النبيلات، تزين رأسها بباروكة مميزة ذات طراز خاص.^{٢١}

ووقفت دون هذا الكشف الجدية عقبة؛ إذ ثبت أن الأميرة التي سكنت هذا القصر البعيد محدد الإقامة، قد أخذت معها الأمير توت عنخ آمون، المفترض أنه ابن نفرتيتي، وحتى يتم تجاوز هذه العقبة قال «هاريس»: إن الأمير توت إذن لم يكن ابن نفرتيتي، لكنه كان ابن كيا.^{٢٢}

تقف عدة عقبات ضد هذا الكشف، أولها شكل رأس الأمير المستطيل، الذي يطابق رءوس بقية بنات نفرتيتي، كما يطابق رأس شقيقه سمنخ كارع، ويشير إلى عادة كانت تمارسها نفرتيتي عند ميلاد الطفل عن عمد، بربط رأس الرضع بقصد استطالته، إضافة إلى أن هذا الأمير «توت» قد ارتقى عرش مصر بعد الثورة الأمونية، وتغير اسمه من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون، مما يشكك تمامًا في أن والدته كانت زوجة ثانوية أي مجرد محظية. من هنا نظن أن نفرتيتي قد لحقتها فضيحة كبرى، وأنها بالفعل كانت صاحبة القصر النائي، الذي عاشت فيه بقية حياتها مع ولدها الأصغر توت، وأن ذلك قد صحبته لعنة سيد القصر، فأمر بمحو اسمها المصري الذي منحها إياه (الجميلة آتية أو نفرتيتي)، ليعيدها إلى اسمها الأصلي الميتاني المجرد. وإذا كان جاردنر قد افترض — ونحن معه — أن نفرتيتي كانت هي الميتانية تادوخيبا أو تادوكيبا، وهو اسم ملصق من شقين، فإن الكاتب المصري ربما اكتفى بكتابة الشق الأخير المميز «كيبا»، استهانةً وامتهانًا، أو أنه ضاع مع عملية المحو، الذي قرأه بعد ذلك — حديثًا — البروفيسور جون هاريس

^{٢١} سامسون، نفرتيتي ... سبق ذكره، ص ١١٦، ١١٨.

^{٢٢} نفسه، ١٦٨.

باللفظ «كيا». وهكذا ووفق هذا التخريج لا يكون لإخناتون أكثر من زوجتين، كلاهما كانت زوجة رئيسية، تمت تنحية إحداهما لتفسح المكان للآخرى، فذهبت نفرتيتي أو كيا الفرعونية، يوريكانيا اليونانية/صفورة التوراتية لتظهر مكانها زوجة ملكية عظمى تي/يوكاستا/يوكابد، أم الملك وزوجته في الوقت نفسه.

لكن مع استمرار مطابقة الروايات الثلاث، سنجدنا بحاجة إلى العثور في الملاحم الأخرى، على نماذج متشابهة لذات الشخصيات الأساسية، مثل العراف الحكيم العجوز الأعمى تيرياس في أسطورة أوديب. فمن كان تيرياس في واقع أحداث العمارنة؟ ثم من كان في الملحمة التوراتية عن موسى؟ و«أدراستوس» ملك أرجوس حمو (بولينكيس ابن أوديب الأكبر) من كان في ملحمتي إخناتون وموسى؟ بل سنجد في الملحمة التوراتية شخصاً غاية في الأهمية، مثل هارون ومريم شقيقي موسى، دون تواجد واضح لشخصيات مقابلة في الأصل المصري، أو في الملحمة الأوديبية. فمن كانا في تلك الملاحم؟

ثم الأهم من كل هذا تبقى ثغرات واضحة في نظريتنا، لا تحتاج جهداً لكشفها وتتمثل في السؤال: كيف كان الفرعون إخناتون هو ذات شخص موسى، بينما المفترض أن موسى ثائر ضد الفرعون ودخل معه صراعاً جديلاً، استُخدمت فيه أدوات مختلفة لإدارة الصراع، دمرت البلاد والعباد؟ ناهيك عن كون أوديب قد مات أعمى، وهو ما لم يحدث بالنسبة لموسى، بل على العكس تماماً كانت التوراة تؤكد طوال الوقت أن موسى عاش ثاقب البصر صحيح العينين، طوال عمره الذي وصل إلى مئة وعشرين عاماً. ومعنى ذلك أيضاً أن إخناتون بدوره لا بد كان أعمى. وهو أمر بحاجة إلى تيقن أو على الأقل ترجيح أكثر تماسكاً مما قدم فليكوفسكي. وعلمياً من المستحيل على باحث أن يجد جميع العناصر والتفاصيل الصغيرة بدقائقها ومنمنماتها، متطابقة تمام التتابع بين أصل واقعي في حقل أحداث حدثت في مصر، ونسخة مروية من تلك الأحداث في كتاب موصوف بأنه مقدس، عمد محرروه إلى أكثر من استبعاد وأكثر من تزوير، لاستبعاد فكرة واستبعاد أخرى تتفق مع رؤيتهم القدسية. وفي عددٍ من ملاحم التراجيديا اليونانية على تنوعها وطبعها بجغرافية اليونان وعقائدها وأسماء أعلامها ... إلخ. ومع ذلك سنحاول قدر الجهد ألا نرتكب في سبيل ذلك شططاً؛ لأنه سيظل هناك دوماً عناصر غير متطابقة بين الملاحم الثلاث. وهو أمرٌ يجب الاعتراف به بهدوء، تحاشياً لئليّ عنق بعض الحقائق في تفاسير متكلفة من أجل إثبات فروضنا، وهو الأمر الأبعد ما يكون عن مبتغانا وغايتنا.

بخصوص العراف الأعمى تيرياس في الملحمة الأوديبية — كمثال — والذي كان يعلم ملابسات استبعاد أوديب طفلاً، وجد فليكوفسكي أن نموذج الواقعي في تل العمارنة

كان هو العراف الحكيم العجوز الأعمى وراعي العميان «آمنحتب بن حابو»، الذي وصف في نصوص العمارنة بأنه: «عالم وثيق بأسرار تربية الأطفال الملكيين». لكننا لا نجد له نموذجاً مطابقاً في رواية التوراة عن موسى، التي قررت استبعاد كل ما يشير إلى أصول موسى المصرية، وضمنها ولا شك كان هذا العراف، لكن ربما تسد لنا الرواية الإسلامية تلك الثغرة، فلدى المؤرخين الإسلاميين خبرٌ متواتر عن شخصٍ حكيم من حاشية البلاط الفرعوني زمن موسى، كان ناصحه الأمين والمدافع عنه في القصر، هو الذي جاء ذكره باسم «حزقيل مؤمن آل فرعون». ورغم أن الواضح في الاسم أنه عبراني بلا جدال، فإن المؤرخين المسلمين ما كانوا ليدققوا في هذا الأمر. ونفترض أنه مجرد تسمية موضوعة، لتحديد شخصية كانوا متأكدين من وجودها، أعطوها هذا الاسم على الاتفاق، وهو الرجل الذي جاءت بشأنه آيات القرآن تقول: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الشعراء: ٢٠)،^{٢٣} وبهذه النصيحة هرب موسى إلى مديان، وهي رمزية استبعاد البطل الملكي الطفل صغيراً إلى مديان، ثم إن «مؤمن آل فرعون» هذا هو من واجه الفرعون ومليئه مدافعاً عن موسى. أما «أدراستوس» حمو «بولينكيس» في الملحمة الأوديبية، فلا نشك أنه كان «دوشراتا» بحذف السين الأخيرة من «أدراستوس»، فيتطابق الاسمان تطابقاً تاماً (دوشراتا = أدراستو). ونحن نذكر أن دوشراتا حسب نظريتنا كان ملكاً ميثانياً ضمن الأحلاف الآدومية، وكان حليفاً لمصر يحكم في بلاد آدوم زمن العمارنة. وهكذا نفهم أن بولينكيس ومقابلة المصري سمنخ كا رع بن إخناتون، قد لجأ إلى بلاط أخواله يستمد منهم المدد ضد أخيه توت، عندما انفرد دونه بالعرش. وهو في القصة التوراتية جرشوم ابن موسى الأكبر.

والطريف أن الاسم جرشوم يحمل دلالة ما حدث لصاحبه، ويبدو أن المحرر التوراتي وهو يؤرخ للأحداث بعد قرونٍ من حدوثها، قد رأى أن يختار لابن موسى الأكبر اسماً يليق بما حدث له، وهو دأب توراتي معلوم. فالاسم «جرشوم» في العبرية يعني غريب، وهو من الفعل العبري جرش أي طرد ونفي، فهو المطرود أو المنفي (انظر قاموس الكتاب المقدس).

^{٢٣} انظر مثلاً: الثعلبي عرائس المجالس ... سبق ذكره، ص ١٧٣.

وتقول الأسطورة اليونانية إن «أدراستوس»، هذا كان حاكمًا على مملكة ضمن ممالك متجاورة متحالفة، وإن مملكته تدعى «آرجوس». ومن جانبنا نرجح أن آرجوس باسمها هذا أو بتلويينٍ مقارب، كانت ضمن ممالك آدوم الخمسة. وبالإمكان مطابقتها مع آخر تلك الممالك شمالاً على البحر الميت مباشرة، وتحمل حتى اليوم اسمها القديم صوجر أو سوغر. لكن الأهم أننا عندما بحثنا عن معنى الكلمة ومشتقاتها، وجدناها تحيلنا إلى بلاد العمالة والماعز، والطبقات الاجتماعية المشردة والمأجورة التي تمارس النهب اللصوصية، إلى بلاد آدوم مديان، فكلمة آرجوس Argus اليونانية تعني «عملاق»، ومنها Argali وتعني «ماعز»، ومنها أيضاً Argot. وتعني اللغة السوقية التي تستخدمها فئة أو طبقة اجتماعية من المشردين والمأجورين واللصوص وشُذَّاذ الآفاق، وهي المعاني التي اجتمعت في التاريخ لأخلامو آدوم.

لكن الإشكال الأكبر أمامنا هنا هو في شخصيتين هامتين تمامًا في القصة التوراتية، هما الشقيقان هارون ومريم، وقد لازما موسى في رحلة الخروج عبر سيناء. فمن كانا في الأصل المصري وفي النسخة اليونانية؟ إن هارون بالذات يعد مشكلة، فاسمه اسم سامي واضح العبرية، لكنه منسوب إلى مصر، فهو يتركب من ملصقين هما «هار» أي ربوة أو قبيلة أو رأس أو جبل + «أون»، وهو اسم مدينة عين شمس المصرية المعروفة، فاسمه يعني ربوة أون أو رأس أو سيد عين شمس، وهو ما يذكرنا بكاهن عين شمس أوزرسيف، الذي حدثنا عنه مانيتو ومن بعده يوسفوس، كما أن اسم أوزرسيف نفسه يحيل إلى عين شمس، فهو اسم يعني لسان أوزيريس، أو شفة أوزير فهو «أوزر = أوزير + سيف وهي شفة بالعبرية وبالمصرية سب أو سف».^{٢٤} وأوزير كان أهم المعبودات الرئيسية في عين شمس كما هو معلوم. فربما كان هارون رفيقًا لأوزرسيف، وربما كان هو الوسيط العبري بين إخناتون وبين أسرى مدينة حواريس، سواء كان حقيقة أم اختراعًا اخترعته التوراة كمترجم. وهو الوسيط الذي لم يأتنا ذكره في الأصل المصري؛ لأن الأصل المصري عني بالأسرة الملكية وحدها، خاصة أن ظهور هارون كوسيط يبدأ دوره بعد خروج إخناتون منفياً من مدينته، ومن ثم إذا لم نجد أي ذكر في المدونات المصرية له فهو أمرٌ طبيعي؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد. وبالتالي لم يظهر أيضًا في ملحمة أوديب؛ لأنها قد

^{٢٤} في معنى كلمة «سب»، انظر: أنطون ذكري، مفتاح اللغة المصرية ... سبق ذكره، ص ٧١. وفي معنى كلمة «هار» انظر أي معجم عبري.

استمدت وقائعها من مصر مباشرة وليس عبر التوراة؛ لذلك كان طبيعياً أن يظهر في التوراة وحدها. ولتأكيد إسرائيلية موسى ونفي أصله المصري، ابتدع لهما أصلاً واحداً فهو شقيق موسى، وكلاهما إسرائيليان من بني عمران العبران. فإذا كان هارون وهما توراتياً — وهو المرجح لدينا — فماذا عن مريم بنت عمران؟

مريم وماريه وميرها وماري ومير ومريت وماريا، كلها تنويعات على كلمة واحدة، تعني في المصرية القديمة ومختلف لغات الشرق الأوسط القديم: البقرة، والبحر. وقد غلب عليها معنى البقرة الجميلة وساد وتأسس. ولدينا في العمارنة «مريت-آتون» تطابقها اسماً لكن تخالفها كيفاً، فمريم كانت شقيقة موسى، لكن مريت آتون كانت ابنة إخناتون وليست شقيقته. ومقابلها اليوناني هي أنتيجوني ابنة أوديب وليست شقيقته، فالحالة الوحيدة النشاز بين الحالات الثلاث هي حالة التوراة التي قالت إن مريم شقيقة موسى وليست ابنته.

وتقول الرواية اليونانية إن أنتيجوني عندما دفنت أخاها بولينكيس، تم دفنها هي بدورها حية في كهف صخري، عاشت فيه حبيسة حتى ماتت. وقد طابق فليكوفسكي تلك القصة مع أحداث العمارنة، واعتبر أنتيجوني هي مريت آتون زوجة أخيها سمنخ كا رع الابن الأكبر لإخناتون. ويقابل بولينكيس الابن الأكبر لأوديب. ونعلم أن سمنخ كا رع لم يحكم سوى عام واحد بعد خلع أبيه إخناتون، تنازل بعده عن العرش لأخيه حسبما وصل إليه فليكوفسكي، لكن أخاه أتيوكليس/توت رفض التنازل عن العرش لأخيه حسب الاتفاق، فلجأ بولينكيس/سمنخ كا رع إلى أدراستوس (دوشراتا/ذو الشرى) ملك أرجوس في مديان، واستمد منه المدد العسكري ضد أخيه وضد جيش بلاده، فاستحق اللعنة بعد الموت. وحكم عليه خالهما أي الذي أمسك بزمام الأمور بعدم الدفن، لكن زوجته التي هي شقيقته أنتيجوني/مريت آتون دفنته، فاستحق بدورها اللعنة والدفن حية. والرواية اليونانية تؤكد أن بولينكيس قد ذهب من طيبة إلى البلاد التي نفى إليها والده، وبهذا المعنى يكون الأب المخلوع والابن المخدوع قد التقيا في مديان. ومن الطبيعي أن تلازم أنتيجوني/مريت/آتن زوجها، فتذهب بدورها إلى مديان، لنجدها هناك بصحبة أبيها أوديب/إخناتون. وهو ما يطابق وجود شخصية مريم بجوار موسى في مديان، التي ربما عادت إلى مصر مع زوجها المطالب بعرشه حيث يموت في المعركة، ثم تحبس هي حية في كهفها الصخري، وهو الذي رمزت له التوراة بغضب موسى عليها، بعد أن عيرته بزواجه من المرأة الكوشية، فضربها الرب بالبرص فتم عزلها وحدها (سفر العدد، إصحاح، ١٢:

من ١٥: ١)، تعبيراً عما حدث لها في طيبة المصرية بعزلها في كهفٍ هو مقبرتها. كذلك أقرت الأسطورة اليونانية بذلك عندما أُكِّدَت أن أنتيجوني قد عادت إلى طيبة، وحضرت المعركة بين أخويها وجيوشهما.^{٢٥} ويبقى السؤال: كيف كان الفرعون إخناتون هو ذاته موسى رغم أحداث الصراع الطويل، الذي أوردت التوراة تفاصيله بين الفرعون المتأله وبين موسى النائر؟

يتفق فليكوفسكي وأحمد عثمان ونحن معهما، على أن المصريين قد استعانوا بشتى القوى السماوية والأرضية، لعزل الفرعون بكل ما له من قدسية؛ ولأنه ما كان بالإمكان اتخاذ قرارات أكثر صرامة مع مثل ذلك الرمز المقدس، فقد تم نفيه إلى منطقةٍ منعزلة رآها أحمد عثمان عند قلعة «شور/زارو/سيله» على مختلف التنغيمات، حيث كان يعيش بقايا الهكسوس الأسرى وبني إسرائيل. ونذهب من جانبنا إلى أن هذا النفي قد تم تحديداً إلى القصر الفرعوني الصيفي، الواقع في مدينة الهكسوس القديمة حوارييس على حدود الدلتا الشرقية مع سيناء، وقد قمنا بتدقيق هذه المواضع جغرافياً في الجزء الأول من هذا العمل.

وفي حوارييس عاش المصريون المنفيون بحكم القانون، من نهايين وقطاع طرق وموظفين مرتشين وعسكر عصاة، إضافة للإسرائيليين المأسورين هناك، ليذهب إليهم الفرعون وحاشيته وأتباعه المؤمنون بدعوته. لكن بالطبع ليسكن الفرعون القصر، فهو قيمة قدسية حتى لو تم عزله ونفيه، ووصول إخناتون وحاشيته إلى حوارييس، يطابق وصول أوزرسييف عند مانيتو، ومن نقل عنه من المؤرخين الكلاسيك إلى حوارييس.

وبالطبع لم يعلم مانيتو إطلاقاً بأسرة العمارنة التي محاهها المصريون من تاريخهم؛ لذلك كان ينتقل فوراً من آمنحتب الثالث إلى حور محب باحتسابه ابنه المباشر؛ لذلك لم يربط مانيتو بين إخناتون وبين أوزرسييف. وإذا كان أوزرسييف عند مانيتو كاهناً للشمس من عين شمس، فإننا نعلم أن إخناتون قد قضى ردهاً من عمره في مدينة أون/عين شمس، لينال من ثقافتها الرفيعة، وربما قد منح لقب أوزرسييف هناك كرتبة كهنوتية عالية الشأن، ثم إن مدينته نفسها أخت آتون التي بناها شرقي النيل بين المنيا وأسيوط، فإنها أيضاً، تعني ضمن ما تعني، مدينة الشمس؛ لأن ربها آتون كان هو الشمس ذاتها.

^{٢٥} عبد المعطي الشعراوي، أساطير ... سبق ذكره، ص ٢٦١.

ولو سلمنا بكلام مانيتو دون مناقشة، فسيفرز نتائج لا تتسق مع المقدمات؛ لأن كهنة عين شمس بالذات كانوا أشد الكهنة حرصًا على التقاليد المقدسة، بينما كان أوزرسياف ثائرًا على كل التقاليد، خاصة تلك التي أرسطها مدرسة أون/عين شمس. ولا تنطبق تلك العقائد الجديدة التي يرويها مانيتو منسوبة إلى أوزرسياف، إلا على شخص واحد هو الفرعون المارق إخناتون. ثم إنه وحده وليس أي كاهن آخر صاحب المبرر في اختيار حوايس كمَنفَى؛ لأن هناك سيجد من يمكنهم الالتقاء ثقافيًا بما يدعو إليه.

ونستعيد هنا ما دونه يوسفوس نقلًا عن مانيتو بشأن فتنة أوزرسياف؛ إن يقول: «إن الهكسوس تركوا منهم بقايا لم يستطيعوا الفرار، فوقعوا أسرى بيد المصريين حيث سيموا العذاب الطويل. وفُرضت عليهم السخرة انتقامًا منهم. وبعد أن قضى أولئك الذين أرسلوا للعمل في المحاجر، زمنًا طويلًا على تلك الحالة البائسة، طلبوا من الملك أن يخصص لهم أفاريس Avaris — وكانت قد خوت على عروشها، بعد أن تركها الرعاة الهكسوس — لتكون لهم مسكنًا ووقاءً، فاستجاب للرغبة وحققها لهم. والواقع أن هذه المدينة كانت مدينة الإله تيفون Typhon سيت وفقًا للديانة القديمة، لكن لما دخلوها ووجدوا المكان صالحًا لإشعال الثورة، أقاموا على أنفسهم من بين كهنة هليوبوليس/أون/عين شمس/حاكمًا عليهم، وأعطوه العهد أن يطيعوه في كل شيء. وكان أول ما فعله أن سن لهم هذه الشريعة، التي بموجبها حرم عليهم أن يعبدوا آلهة المصريين، وأن يمسكوا عن عبادة أي حيوان من تلك الحيوانات المقدسة، التي يعظمها المصريون أيما تعظيم. بل أمرهم أن يقتلوا ويدمروها جميعًا، كذلك نهاهم أن ينضموا لغير رابطتهم. وبعد أن وضع لهم أمثال هذه الشرائع المعادية في أغلبها لعادات المصريين، أمرهم أن يستخدموا ما يملكون من سواعد كثيرة لبناء سور حول المدينة، وأن يعدوا أنفسهم القتال الملك أمنوفيس/أمنحتب Amenhotep. أما هو نفسه فأنشأ صداقات مع الكهنة الآخرين، ومن كانوا قد أفسدوهم، وأرسل السفراء إلى الرعاة الهكسوس الذين كان تثموزيس، قد طردهم من البلاد إلى أورشليم. وعن طريق السفراء أبلغهم بأحواله وأحوال أولئك الذين عوملوا بكل تلك الشناعة، وطلب إليهم أن تجتمع كلمتهم على أن يخفوا لمساعدته في حربه ضد مصر. كذلك وعدهم أنه سيبادر إلى إعادتهم إلى مدينتهم ودولتهم القديمة أفاريس، وأنه سيمون جموعهم بالغذاء وبأنه سيحميهم، ويقاقل من أجلهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وأن في ميسوره أن يخضع البلاد لسلطانهم. وقد اغتبط هؤلاء الرعاة بهذه الرسالة أيما

اغتيال، وخفوا على وجه السرعة، وكان عددهم ٢٠٠٠٠ رجل، وبلغوا أفاريس في وقتٍ قصير.^{٢٦} وكان هذا ما أمكن تسميته الغزوة الهكسوسية الثانية الفاشلة، التي نرجح وقوعها إبان حكم الفرعون أي، منذ وصايته على العرش حتى ولايته الرسمية، وهو ما سنخرج عليه بالشرح فيما بعد.

وكان هرمبيس أو حور محب هو القائد العسكري للجيش المصرية، التي تصدت للغزوة الهكسوسية الثانية، وهو القائد العسكري الذي قضى نهائياً على أسرة العمارنة، بعد اختفاء آخر فراعنتها «أي»، الذي لم نعث له على مومياء حتى الآن، وأسس الأسرة التاسعة عشرة الحاكمة.

ويكون حور محب هو قائد الجند الذي طرد هؤلاء، ذلك الطرد الذي أسمته التوراة خروجاً، ثم بعد ذلك صار فرعوناً عرف برقته الشديدة، وبعده مع المصريين وبقسوته الشديدة إزاء الأجانب، وإذا كان أي كما نزعم هو فرعون الخروج؛ فإن ذلك يفسر لنا ما جاء في المأثور الإسلامي والقرآن، عن شخصيتين أساسيتين في قصة موسى والخروج؛ الأولى هي الفرعون والثانية شخصية تلي الفرعون أهمية هي شخصية هامان. وقد طابقنا شخصية كرايون مع شخصية أي مع شخصية الفرعون المقصود. فإذا كان ذلك صحيحاً فلا شك إذن أن هامان كان هو هايمون ابن كرايون/أي ومساعدته الأول. ويبدو أنه كانت تتم تهيئته لتسلم العرش، لكن هايمون مات مبكراً عندما انتحر على أسوار طيبة إبان المعركة، فقدّم نفسه قرباناً لنصر بلاده ضد الغزاة الذين جاءوا ينصرون بولينكيس ضد أخيه أتيوكليس.^{٢٧} وربما كان ذلك هو السبب الذي هدى بالأب إلى الحقد المميت على سمنخ كا رع، الذي تسبب في موت ابنه هايمون/هامان، وفي تكريم توت عنخ آمون كل هذا التكريم في كنوز قبره.

وقد علمنا أن ذلك الأثاث الجنائزي الفاخر الهائل بمدفن توت عنخ آمون كان مخصصاً للفرعون أي، ويبدو أنه قد قرر تخصيصه لولده هامان أو هايمون لما أقدم عليه، ولكنه منح هذا الجهاز الجنائزي للملك توت عنخ آمون، الذي قدم بدوره نفسه فداء لبلاده عندما مات، وهو يحارب أخاه والغزاة.

^{٢٦} لويس عوض، مقدمة ... سبق ذكره، ص ١٤، ١٥.

^{٢٧} للمزيد عن هايمون، انظر: الشعراوي، أساطير ... سبق ذكره، ص ٢٦٧-٢٧١.

ملحوظة

إبان تبييض هذا الجزء من العمل طالعنا صحيفة روز اليوسف بتاريخ ٢٨ أبريل ٩٧ ص ٢٩ بالخبر التالي: «عالم المصريات بوب براير الذي يزور القاهرة حاليًا، اكتشف خلال الأبحاث التي أجريت على جثة توت عنخ آمون، باستخدام أشعة إكس أنه مات مقتولًا». وبعدها بأيام طالعنا صحيفة الأخبار القاهرة يوم ١١ مايو ٩٧ تحت عنوان: «سكوتلانديارد تحقيق في مقتل توت عنخ آمون»، في موضوع يقول في مقدمته: «عادت الوفاة الغامضة لفرعون مصر الشهير توت عنخ آمون، لتثير من جديد اهتمام العالم، ولكن باعتبارها جريمة قتل يتعين مشاركة رجال الشرطة وخبراء علم الإجرام لكشف ملابساتها ... وصرح الدكتور إيان إيشرود عالم الأشعة البريطاني، بأن تحليلات الأشعة على جمجمة الفرعون، كشفت عن وجود جرح عميق غير ظاهر في الخلف، مرجحًا أن سببه هو ضربة على الرأس، أدت إلى الوفاة، في حين توصل ضابط سكوتلانديارد السابق، إلى أن الذي نفذ الوفاة هو إما أي وزير توت عنخ آمون، أو حور محب قائد الجيش أو كلاهما معًا».

هذا ما كان الخبر والاحتمالات والتساؤل عن القاتل، وما يشغلنا اكتشاف أنه مات مقتولًا، وتبقى لنا اجتهاداتنا بشأن القاتل.

ويؤكد لنا أن الهجمة الهكسوسية الثانية الحليفة لإخناتون وولده المنفيين، قد حدثت زمن أي، وأن أي هو فرعون الخروج، أننا أبدًا لم نعر على مومياء «أي» حتى الآن، كما أن هناك صفة لحقت بأي لا مبرر لها في وثائقه على الإطلاق، غير ما نقول نحن هنا، وهي فيما يقول قدرتي: «الشيء الملفت للنظر هو وصف الملك أي، بأنه المنتصر على آسيا»^{٢٨} ثم نص مصري آخر لشاعر كان يكتب قصائده في حقبة العمارنة. ويلخص عبد المنعم أبو بكر قصة هذا النص بقوله إنه «كتبه أحد كهنة معبده الذي شيد لآمون في طيبة، ويحوي النص ابتهالات لآمون، ثم يسرح الشاعر ببصره إلى مستعمرات مصر في آسيا القريبة، فيجدها قد تضاءلت وذهب معظمها إلى حد محاولة الاعتداء على مصر نفسها»^{٢٩} وهو ما يؤكد الغزوة الهكسوسية الثانية التي نشير إليها.

وتتواتر الأخبار الغامضة عن هذا الاعتداء على مصر في نهاية فترة العمارنة، فيشير جاردنر إلى هجوم يصفه بأنه ربما كان حيثيًا، وذلك استنتاج يربط بين قتل المصريين للأمير الحيثي القادم للزواج من الأرملة الملكية المصرية بناء على طلبها، وبين الأخبار

^{٢٨} قدرتي، المؤسسة ... سبق ذكره، ص ١٧٤.

^{٢٩} أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٧.

الغامضة عن الهجوم الأجنبي على مصر. ويقول جاردنر في ذلك: «وأخيراً أرسل الأمير الحيثي الصغير، لكنه قتل في الطريق، وقد كان من أثر ذلك إشهار الحرب على مصر، وإن كنا لا نعرف شيئاً من هذا عن طريق المصادر المصرية.»^{٣٠}

ويقصد جاردنر أن مصدر تلك المعلومة هو آثار بوغاز كوي الحيثية. ويزيدنا تأكيداً على تأكيد بشأن الغزوة الثانية، أن حور محب قائد الجيش المصري إبان حكم العمارنة، قد جاء عنه نص في نقش يرجع إلى زمن توت عنخ آمون، يقول فيه: «إنه كان يحرس قدمي سيده في ميدان القتال يوم ذبح الآسيويين.» بل نعلم أن الملك توت قد حارب الآسيويين، وذلك في نقش على جدار صندوقه الملون، ثم نشاهد نائبه حوى يتلقى جزية من أشخاص «ذوي سمات آسيوية وسمات زنجية».^{٣١} كذلك يقول أحمد عثمان: «ونحن نعلم أن حور محب هو الذي حوّل منطقة جاسان إلى سجن كبير، وهو الذي قضى على الثورة الدينية في مصر.»^{٣٢} وعلى ظهر تمثال حور محب المعروض حالياً بمتحف Turin، مرسوم تتويجه فرعوناً، ويتضمن فقرة تقول:

لقد أخذ الملك يبحث عن مرايض الآلهة ومعابدها التي أصبحت خراباً، وقام بإصلاحها وترميمها حتى أصبحت في نفس الشكل الذي كانت عليه في العصور القديمة، وأوقف عليها القرايين المنتظمة كل يوم، كما زين هياكلها بالذهب والفضة، وعين لها الكهان العاديين والكهان المرتلين، الذين اختارهم من الصفوة الممتازة من رجال الجيش.

كما جاء بنص هذا المرسوم القول:

إن كل المعابد من طرف الأرض حتى طرفها الآخر، قد هُجرت وسقطت محاريبها وهياكلها، وتحولت إلى خرائب، ولم يحدث لها مثل هذا من قبل أبداً.^{٣٣}

^{٣٠} جاردنر، مصر الفرعنة ... سبق ذكره، ص ٢٦٧.

^{٣١} سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج ٦، ص ٣١، ٣٢.

^{٣٢} أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٩٥.

^{٣٣} قدرى، المؤسسة ... سبق ذكره، ص ١٨٧، ١٨٨.

لكن جاردنر يلفت النظر إلى إشارة هامة، رغم عَجالتها في ذلك النص فيقول: «وهناك إشارة عابرة إلى استدعائه للقصر الملكي حين حلَّ الغضب بالقصر». ويوضح أن ذلك قد حدث إبان حكم العمارنة، وأنه زمن إخناتون وأخلافه، كان نائباً للملك يدير الحكومة في شمال البلاد.^{٣٤}

ولعل لعبارة: «حين حل الغضب بالقصر»، تفصح عن حدث إسقاط الفرعون. ويحيطنا «شتيندورف» علماً أن: «حور محب استطاع أثناء حكمي إخناتون وتوت عنخ آمون، أن يرتقي أعلى المناصب فأصبح القائد العام للجيش. وبصفته نائباً للملك كان يحتل المركز الثاني في الإمبراطورية بعد الملك نفسه ... ولم يتحول حور محب مطلقاً إلى ديانة آتون، بل ظل في منف، حيث يقيم موالياً للآلهة القديمة ... ومن المحتمل أن الفضل الرئيسي يعود إلى حور محب في المحافظة على سلامة البلاد، ومنعها من التمزق كليةً خلال الأزمة العاصفة. ومن المحتمل أيضاً أن حور محب هو الذي أحبط الخطة الجسورة، التي دبَّرتها الأرملة الملكة نفرتيتي للزواج من أميرٍ حِيثي».^{٣٥}

ويبدو أن حور محب بالإضافة إلى أنه كان رجل العسكرتاريا المصرية الأول حينذاك، فإنه قد تمتع بقدرٍ من المرونة السياسية الماكرة، وانتظر الدور والوقت المناسب ليقفز على العرش، فرغم عدائه لفرعون العمارنة ولدعوته؛ فإنه لم يسفر عن هذه العداوة مطلقاً، بل كان يحاول الظهور بمظهر المنفذ الأمين لأوامر الفرعون. وترك العرش يخرج من يده إلى يد العجوز الداهية آي، بعد أن فرض وصايته على الطفلين سمنخ كا رع وتوت، ثم استولى بموتهما المبكر على العرش، وفي ذلك يقول (سيل) و«شتيندورف»: «بينما استطاع آي بزواجه من أرملة توت عنخ آمون، أن يظهر باعتباره المرشح الممكن الوحيد، فعلى أية حال سواء بانتفاء حق آي في العرش بعد وفاتها، أو بالقضاء على الملك العجوز نفسه نتيجة لثورة، أحس حور محب أن اللحظة الحاسمة قد وصلت لارتقائه العرش، فقام بمشيئته الخاصة، أو ربما بمشيئة كهنة آمون أيضاً، بالزحف على رأس جيشه إلى طيبة، وهو يتلقى استقبالاً حماسياً من الجماهير المبتهجة في كل مدينة يتوقف بها في طريقه. وكان أعظم استقبال بالطبع في العاصمة؛ لأن الإله حورس رافقه شخصياً إلى طيبة، ليقدمه في حضرة آمون ويسبغ عليه المنصب الملكي ... وبعد انتهاء حفلات التتويج في

^{٣٤} جاردنر، مصر الفرعنة ... سبق ذكره، ص ٢٦٩.

^{٣٥} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٣١، ٢٣٢.

طيبة، عاد الملك إلى الشمال وبدأ في القضاء على آخر ذكريات الثورة الدينية، وإزالة كل ما يذكر بإخناتون وخلفائه المباشرين توت عنخ آمون وآي، فطمس أسماءهم بلا رحمة من على الآثار، واستبدل بها اسمه حور محب، وواصل هذا الاضطهاد إلى نهايته لدرجة أنه لم يُعد للهراطقة الأربعة «إخناتون، وسمنخ كا رع، وتوت عنخ آمون، وآي» أي ذكر، كما لم يوجدوا ... ومُحيت مُد حكمهم من وفاة آمنحتب الثالث لحور محب، وتم تدمير معبد آتون تدميرًا تامًا، وتمت تسويته بالأرض (بالكرنك/المؤلف) ... وبعد حكم استمر نحو ٣٥ سنة مات حور محب، ودفن في مقبرة لم تتم بوادي الملوك، وخلفه على العرش رمسيس الأول.^{٣٦}

ويعقب سيرل آلدريد قائلًا: «إن ما قام به حور محب لم يزد كثيرًا عما كان يقوم به سلفاه، فإنه للأسف اغتصب آثارهما التي صنعها أصلاً لتمجيد عبادة آتون، ومحا اسميهما من قائمة الملوك الرسمية، بحيث يظهر حور محب كما لو كان هو الفرعون الذي خلف آمنحتب الثالث مباشرة ... وقد بذلت كل الجهود لاقتلاع أي ذكرى لإخناتون من أذهان الناس، وعندما كان الأمر يستدعي الإشارة إليه كانت ينعت بأنه: مجرم أخت آتون، أو ببساطة: المجرم».^{٣٧} وهكذا أكد لنا المؤرخون أن حور محب قد «أرخ بداية حكمه ابتداء من وفاة آمنحتب الثالث، كما لو كان آمنحتب الرابع وسمنخ كا رع وتوت عنخ آمون وآي، لم يكن لهم أي دور أو وجود في التاريخ المصري القديم».^{٣٨} ومن جانبنا نرى أن أحداث الخروج الإسرائيلي من مصر، ليس لها أثر في الآثار المصرية لهذا السبب تحديدًا؛ لأنها وقعت آخر زمن حكم العمارنة، الذي قرر المصريون نسيانه بكل أحداثه وتفصيله كأنه لم يكن، ودمروا كل المدونات التي كان من الممكن أن تشير إليه أو إلى الأحداث التي تمت إبانها.

لهذا يقول لنا جاردنر إننا لا نجد مثلًا في تاريخ مانيتو أي ذكر لأي ملك من ملوك العمارنة، بل يبدو هذا المؤرخ المصري الجليل جاهلاً تمامًا بهذا الأمر وبهذه الأسرة الحاكمة، بعد عمليات المحو المنتظم لها من التاريخ، وعادة ما كان المصريون لا يحون من تاريخهم سوى الأسرات الحاكمة غير المصرية كما فعلوا مع الهكسوس. ويبدو أن الدم

^{٣٦} نفسه، ص ٢٣٣، ٢٣٥.

^{٣٧} آلدريد، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٧٨.

^{٣٨} رمضان السيد، تاريخ ... سبق ذكره، ص ١٢٩.

الميتاني/المداني الذي كان يجري في عروق العمارنة، كان مبرراً كافياً لاستبعادهم من التاريخ المصري المدون بحسابانهم أجنب، وبحسبان هذا الدم ذاته كان معلوماً بحسابانه دماً هكسوسياً.

وقد ذكر المؤرخ الفلسطيني الكلاسيكي «يوسابيوس» حور محب مرتين في ترتيبه للملك مصر، المرة الأولى باسم «أورس» وواضح لنا أن «يوسابيوس» ذكر هنا الشق الأول من اسم حور محب وهو «حور»، بعد أن أعطاه التصريف اليوناني فأصبح «حورس أو أورس». وقد وضعه «يوسابيوس» مباشرة بعد آمنحتب الذي وصفه بأنه «آمنحتب المشهور المعروف بعلاقته بالتمثال، الذي عرفه اليونان باسم ممنون الصوتي». ثم ذكر يوسابيوس حور محب مرة ثانية باسم «أرميس»، مختصراً فيما يبدو لنا اسم حور محب في «حور إم»، بدلاً من اسمه المصري الأصلي الكامل «حور-إم-حب»، ثم أضاف إليه التصريف اليوناني فأصبح «حورمايس» أو «أرميس»، ويؤكد لنا جاردنر أن قائمتي الملوك في أبيدوس وسقارة، قد تجاهلت تماماً إخناتون وخلفاءه الثلاثة الذين وصموا بالآتونية الكافرة، وأن القائمتين قد وضعتا حور محب مباشرة بعد آمنحتب الثالث.^{٣٩}

وشأن يوسابيوس هنا بحاجة لتوضيح، فهو يضع حور محب مباشرة بعد فرعون معروف مشهور باسمه آمنحتب، وأن هذا الفرعون له علاقة بتمثال ممنون الصوتي. فإذا علمنا أن ممنون هو الاسم الذي أطلقه اليونان على تمثالين، أقامهما آمنحتب الثالث لنفسه عند مدخل معبده الجنائزي المندثر، فيكون آمنحتب المقصود عند يوسابيوس هو آمنحتب الثالث تحديداً وبالقطع اليقيني.

وحول تمثالي ممنون نستمتع إلى شتيندورف وسيل يقولان: «والتمثال الشمالي منهما كان من المعتقد في أزمنة الرومان، أنه تمثال ممنون بن أيوس EOS، أورورا ربة الفجر. والآن كما تمضي الأسطورة قائلة يجلس ممنون الراحل كتمثال حجري على سهل طيبة، ويحيي أمه أيوس كل صباح عندما تظهر في الفجر. وعندما تسمع الربة نحب ابنها تذرف دموعها، ندى الصباح على تمثال ابنها المحبوب. وقد شهد كثير من زوار الرومان في مخربشات تركوها على قاعدة التمثال الكبير أنهم سمعوا صوت نحيب ممنون. وقد قيل لتفسير هذا الصوت إنه كان يحدث نتيجة للسخونة المفاجئة للتمثال — الذي تشقق بفعل الزلازل — بسبب أشعة الشمس الحارقة. وهي عملية تحدث سريعاً في جو مصر

^{٣٩} جاردنر، مصر الفراغة ... سبق ذكره، ص ٢٦٨.

الصحراوي الجاف، فتتعدد جزئيات الصخر داخل التمثال فتخرج هذه النغمات الموسيقية، التي فسرها الأقدمون هذا التفسير الشعاري. وعلى أية حال فعندما رُم التمثال في زمن الإمبراطور سبتيموس سيفيروس، صمت صوت ممنون ولم يعد يُسمع بعد ذلك.^{٤٠}

وربة الفجر في المصرية القديمة أو الفجر بالأحرى هو بالمصرية القديمة أمو Amu أو عامو، وهي الكلمة التي تعني أيضًا الشرق كما تعني العامو الآسيويون، وكلها معانٍ تحيل إلى شرقي مصر حيث العامو الآسيويين، وهو ما يفصح عن معرفة الأقدمين أن أم ممنون/أمحتب الثالث كانت من العامو، كانت ميتانية أو مديانية. وهي التي عرفناها باسم «موت أم أويا» أو «موتا ميا»، وحرفا الميم والنون يتبادلان، فهل كان اسمها هو «مديانية»؟! ربما ... لكن الأسطورة اليونانية اختارت لام ممنون اسمًا آخر شديد الدلالة، هو «أيو» الذي يحيلنا إلى أنثى الإله ياهو.

[انظر شكل رقم «٢٢٤»]

السؤال الأهم الذي يعترض نظريتنا مرةً أخرى، ما زال كما هو: كيف يمكن احتساب الفرعون إخناتون هو بعينه النبي موسى؟ بينما نعلم من قصة التوراة أن موسى كان الإسرائيلي الثائر على الفرعون، وأنه دخل معه في جدلٍ طويل، مما يعني أنهما لا بد كانا شخصين متمايزين عن بعضهما تمامًا.

نستضيء هنا بالقرآن رغم اختلاف موسى القرآني كنبى كريم عن موسى التوراتي، فنجد أنه يضيف أمرًا جديدًا أبدًا لم تذكره التوراة ولا حتى ألمحت له، وهو أن فرعون موسى كان قد أله ذاته وأمر الناس بعبادته من دون رب السماوات، وهي معلومة لا بد قد تواترت حتى وصلت عرب الجزيرة وعرفوها وفهموها. وهنا نستمتع إلى «شتيندورف» و«سيل» يقولان: «بالرغم من أن الملك كان يُعد إلهًا، إلا أنه نادرًا ما كانت هذه الفكرة تصل إلى نهايتها المنطقية، أي عبادة الفرعون كإله في معابد أقيمت بهدف مزاوله عبادته المقدسة.» ومن بين الفراعين الذين نعلم أنهم قد ألهوا ذواتهم، وطلبوا من رعاياهم عبادتهم، وأقاموا المعابد لذلك الغرض، الفرعون رمسيس الثاني المظنون أنه فرعون الاضطهاد الإسرائيلي، لكن هناك حالة أخرى واضحة يشير إليها شتيندورف بقوله: «وهناك استثناءات جديرة بالذكر، مثلما كان يجري في معبد صولبا Soleb بالنوبة، حيث كان أمحتب الثالث يعبد

^{٤٠} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ١٨٧.

باعتباره الصورة الحية لرع على الأرض. كذلك في مدينة سيدنجا Sedeinga النوبية، حيث كانت الملكة تي تلقى تكريمًا مشابهًا في محراب بُني خصيصًا لعبادتها.^{٤١} وهكذا يكون آمنحتب الثالث والد إخناتون أحد الحالات النادرة، التي أله فيها الفرعون نفسه وأنشأ معابد لعبادته بالفعل، وطلب من رعاياه عبادته باعتباره إلهاً. والكتاب المقدس كان يشير إلى ملك مصر، زمن موسى باللفظ فرعون خلواً من أي تمييز، كما لو كان «فرعون» هذا ليس لقباً ملكياً كما نفهم، بل يبدو كما لو كان اسم علم لشخص، والمؤرخ هيرودت يذكر لنا أن ملكاً على مصر قد حمل اللفظ فرعون كاسم له وليس لقباً. ويقول إنه فيروس أو فيرون ابن الملك سيزوستريس الشهير. لكننا للأسف الشديد ليس لدينا أية إشارات إلى من يكون سيزوستريس بين ملوك مصر، حيث لم يرد هذا الاسم إطلاقاً في قوائم الملوك المصرية. ونص هيرودت بهذا الخصوص يقول عن سيزوستريس: «بعد ذلك عاد الملك إلى بلده وانتقم من أخيه، ثم شرع يستخدم الجموع الذين أحضرهم معه من البلاد التي غزاها، في نقل كتل الصخر الضخمة التي نقلها إبان حكمه إلى معبد فولكان «آمون» ... ولم يكن سيزوستريس ملك مصر فحسب بل وملك إثيوبيا أيضاً، وكان هو الملك المصري الوحيد الذي حكم ذلك القطر الأخير. ومن الآثار التي تركها تخليداً لذكرى حكمه، تلك التماثيل القائمة أمام معبد فولكان، اثنان منها يمثلانه هو وزوجته، وارتفاع كلٍّ منهما ثلاثون ذراعاً ... وقال الكهنة إنه بعد موت سيزوستريس اعتلى العرش ابنه فرعون، ولم يقم هذا الملك بأية حملات حربية؛ إذ أصابه العمى بسبب هذه الظروف، في إحدى السنوات ارتفع ماء النيل ارتفاعاً غير عادي، حتى وصل إلى ثمانية عشر ذراعاً وأغرق الحقول، وتصادف أن هبت الرياح فجأةً فارتفعت المياه في موجاتٍ عظيمة، عندئذٍ استبدت بالملك نزوة إلحاد، فأمسك رمحه وقذفه في وسط اللجج العاتية، وفي الحال أصابه مرض في عينيه، انتهى إلى إصابته بالعمى بعد فترة وجيزة.^{٤٢}

وقد ذهب الباحثون إلى أن شخصية سيزوستريس، تطابق شخصية الفرعون رمسيس الثاني، الذي افترضوه فرعون الاضطهاد اعتماداً على تشابه بين أحد ألقاب رمسيس الثاني (سيتي) وبين الاسم سيزوستريس؛ ولأنه سخر الأجانب في حمل الأحجار، وهو ما يطابق قصة الاضطهاد الإسرائيلي؛ ولأن ابنه حمل لقب فرعون كاسم، وهو ما يطابق رواية التوراة

^{٤١} نفسه، ص ١٠٤، ١٠٥.

^{٤٢} إيفانز، هيرودت ... سبق ذكره، ص ٩٦، ٩٧.

عن ملك الخروج المصري باسم «فرعون». وقد احتسب تيار كبير من المؤرخين أن فرعون هذا هو مرنبتاح بن رمسيس الثاني صاحب لوح إسرائيل. وبهذه الدلائل تم التسليم بأن سيزوستريس، هو ذاته رمسيس الثاني المفترض أنه فرعون الاضطهاد، وأن ولده «فرعون» هو مرنبتاح، المفترض أنه فرعون الخروج، لكن لأننا أبدأ لم نقتنع بذلك، فقد رجعنا ندقق فوجدنا استرابون، يرفض أن يكون سيزوستريس هو حرمسيس ميامون (ميامون لقب خاص برمسيس الثاني)؛ لأنه حكم ٦٦ سنة بينما سيزوستريس حكم ٤٨ سنة؛ لذلك وضعه بعد فرعون باسم «أمانمس»؛ ولأن آخرين رفضوا مع استرابون أن يكون سيزوستريس هو رمسيس الثاني، فقد وضعوا افتراضات منها أنه ربما كان سنوسرت الأول أو ربما سنوسرت الثالث.^{٤٣}

ومع التضارب حول شخص الفرعون سيزوستريس، رجعنا إلى رواية هيروت نتفحصها: الملك سيزوستريس عند هيروت أقام تماثيل أمام معبد له ولزوجته، وكان ارتفاع كلا التمثالين واحدًا حوالي ثلاثين ذراعًا، ونحن نعلم أن رمسيس الثاني قد سار على السنة التقليدية لتصوير الفراعين، فصور زوجته بحجم ضئيل تقف بين رجلي تمثاله، ولا تصل قمة رأس تمثالها إلى ما أسفل ركبتيه. بينما هناك حالة واحدة نادرة بين تلك التماثيل الكبيرة، تم فيها تصوير زوجة الملك بذات حجم الملك، وكان ذلك أول خروج على المألوف في التقاليد المصرية القديمة. وتلك الحالة هي تماثلا الفرعون آمنحتب الثالث وزوجته تي الموجودان الآن بالمتحف المصري.

[انظر الشكل رقم «٢٢٥»]

وحسبما وصل استرابون من معلومات عن تمثالي ممنون قال: «أحدهما لآمنحتب الثالث والآخر لزوجته الليبية تي»^{٤٤} لقد كان استرابون يعرف أن تي غير مصرية، وأنها أيضًا بدوية، لكنه لم يتمكن من نسبتها لبدوها الحقيقيين في سيناء، فنسبها لبدو الساحل المعروفين باللوبيين آنذاك، باعتبار ساحل المتوسط الأفريقي كان يسمى عند اليونان بالساحل الليبي.

^{٤٣} سترابون في مصر ... سبق ذكره. ملاحظة للمترجم ص ٥١، انظر كذلك: محمد رمزي، المعجم الجغرافي

... سبق ذكره، البلدان المدرسة، ص ٣٣٩.

^{٤٤} سترابون في مصر ... سبق ذكره، ص ١١٣.



شكل رقم «٢٢٦»: الطريقة المصرية التقليدية في تصوير الملكة بالنسبة للملك بحجم ضئيل بين سيقانه، ولا تصل قامتها إلى ركبتي الملك. والمشهد لرمسيس الثاني في أربعة تماثيل متجاورة. قارن مع تمثالي آمنحتب الثالث وزوجته الملكة تي.

ويقول هيرودت: «وحيث مات سيزوستريس خلفه ابنه فيرون، وهو أميرٌ لم تكن له مغامرات عسكرية، وقد خلف فرعون أحد مواطني ممفيس».^{٤٥} ونحن نعلم أن مرنبتاح قضى أيامه الملكية في معارك عظيمة، لا تطابق تلك القصة إطلاقاً، بينما يمكن للقصة أن تطابق إخناتون وشخصه الحالم الكاره للحروب. ثم إن الذي خلف مرنبتاح الملك ستي الثاني، وهو بالطبع ليس من مواطني ممفيس. أما الذي خلف إخناتون (بإسقاط

^{٤٥} خشيم، آلهة ... سبق ذكره، ج ١، ص ١٠٦.

أسرة العمارنة) هو حور محب، الذي قضى حياته على رأس كتائبه في ممفيس، بعيداً عن الصراع الدائر في العمارنة. هذا ناهيك عن أمر مقطوع به، وهو أن أقدم نص موثوق يشار فيه إلى ملك مصري، تم تدوين اسمه فقط بالصيغة فرعون، هو النص الذي يشير إلى إخناتون في دعاءٍ يقول: «بر-ع. و ع ن خ. و د أ. س ن. ن ب» أي: «فرعون له الحياة والسلامة. الرب» أو «طويل العمر فرعون».^{٤٦}

ثم لا نجد ذلك مثل ذلك، ولا بعد ذلك أبداً إلا مرة واحدة، حدثت في عهد الشناشقة من الأسرة الثانية والعشرين، يذكر فيه لقب فرعون مقروناً باسم الملك الشخصي، حوالي أوائل الألف الأولى قبل الميلاد.^{٤٧}

فإذا كان فرعون المقصود هو إخناتون، فلا بد أن يكون سيزوستريس هو أمانحتب الثالث، ووفقاً لسترابون أن الملك ممنون (الاسم اليوناني المقابل لأمانحتب الثالث)، كان ابن «سيزيا» وأنها كانت من مدينة بذات الاسم فهي من «سوز». ويبدو لنا أن استرابون قد خلط بين آرية/إيرانية العنصر الآدومي، وبين أصوله العائدة للمدينة الإيرانية القديمة «سوز»، وهو ما يشير عموماً إلى أصولٍ تجتمع عند الاسم سيس، وسيسي هو اسم الحصان، الذي جاء مع الغزو الهكسوسي، وهو ما يحيل إلى آدوم مديان، حيث أحوال أسرة العمارنة فهم السيسيون، وسيزوستريس اسم منسوب إلى سيسيا، فاسترابون (ويا لحظنا المبهري) يقول: «إن قلعة سوز كانت تسمى ممنونيوم نسبة لممنون [الاسم اليوناني لأمانحتب الثالث]، ويسمى السوزيون أيضاً السيسيين».^{٤٨}

ومن الجدير بالذكر أن هيردوت نفسه كان يفرق بين سيزوستريس وبين رمسيس الثاني، صاحب التماثيل المعبودة عند معبد أبي سمبل، فهو يقول إنه بعد موت فرعون، جاء ملك اسمه (رامبسينيتوس) Rhampsinitus أي رمسيس، وترك آثاره في المدخل الغربي لمعبد فولكان/آمون، والتمثالان القائمان أمام هذا المدخل، يطلق المصريون على أحدهما الصيف وعلى الآخر الشتاء، وأن السكان الوطنيين يعبدون تلك التماثيل.^{٤٩}

^{٤٦} الموضع نفسه.

^{٤٧} الموضع نفسه.

^{٤٨} سترابون ... سبق ذكره، الكتاب الخامس الفصل الثالث. انظر أيضاً: أنتاديوب، الأصول الزنجية ...

سبق ذكره، ص ١٣٠.

^{٤٩} إيفانز، هيردوت ... سبق ذكره، ص ٩٩.

ويقول هيرودت: إن سيزوستريس أقام أعمدة في البلاد والمواطن، التي كانت تخضع له نقش عليها أمجاده، ونحن نذكر أن القرآن ينعت فرعون موسى بأنه ذو الأوتاد أي صاحب الأعمدة.^{٥٠}

ثم هل من الصدفة البحتة أن يستخدم مرنبتاح بن رمسيس الثاني، لوحًا يخص الفرعون آمنحتب الثالث،^{٥١} لينقش عليه الانتصارات والذي سمي بلوح إسرائيل، وهل من الممكن أن يكون مرنبتاح قد اغتصب لوح آمنحتب الثالث، كعادة الفراعنة ونسب أمجاد اللوح لنفسه؟ أم كان يكرر معلومة تواترت عن زمن آمنحتب الثالث وأولاده، فنسبها لنفسه ليشتهر بعد ذلك، بأنه هو الذي طرد بني إسرائيل من مصر؟ إن ما قدمناه حتى الآن يستبعد دور مرنبتاح ووالده رمسيس الثاني، ويثبت دعائم إخناتون ووالده آمنحتب الثالث. أما الأشد دلالة في صدق ما نقول هو ما جاء على لسان الكهنة المصريين، من ذكريات مروية لهيرودت عن تلك الأيام، التي أصيب فيها الملك المعروف باسم «فرعون» بالذات — وبالتخصيص من بين كل ملوك مصر — بالعمى، إثر موجة إلحاد أصابته ضد أوزيريس النيل، فيا لبهرة الكشف ومهابته! ونحن نعلم أن الملحد الأكبر بالآلهة مصر وخاصة الإله أوزيريس، كان هو الفرعون إخناتون الذي نسخه اليونان في صورة الملك أوديب، الذي أصابه العمى بدوره في نهاية حياته. وهكذا نكون قد وصلنا إلى أن إخناتون قد أصيب بالعمى في نهاية حياته، رغم أن الآثار لم تفدنا بذلك، بشكل مباشر وفصيح.

^{٥٠} نفسه، ص ٩٥.

^{٥١} أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٨٢، ٨٣.

الفصل الثاني

فرعون أعمى وأعرج

لكن هل نجد في التوراة أية إشارات إلى عمى أصاب النبي موسى؟ إن المعتاد على التعامل مع ذلك الكتاب المقدس، سيتأكد يقيناً أنه عندما كان يريد أن ينفى أمراً قد حدث، فإنه كان يؤكد عكسه تماماً، أو يخترع له قصة تنفيه، فعندما شابت قصة يوسف علاقة شاذة، بحكم جماله المبالغ فيه مع صاحب البيت رئيس الجند فوطي فارع، ظل المقدس يؤكد على أن فوطي فارع كان خصياً، ونحن نعلم أن المصري القديم إطلاقاً ولا حكام الهكسوس قد عرفوا الخضاء، خاصة إذا تعلق برجولة وفحولة قائد الجيش، الذي كانت قوته العسكرية تقترن وتقارن بفحولته الجنسية والجسدية. ثم أبداً لا يتفق ذلك مع زواج القائد من امرأة فاتنة، كما جاء برواية التوراة، ومن هنا صاغ المحرر التوراتي قصة رغبة الزوجة في يوسف وامتناعه عنها؛ وذلك لأن زوجها كان خصياً لاستبعاد أي شبهة تلحق بيوسف، الذي كان محبوباً من سيد القصر حباً جماً، حتى أنه سلمه كل أمواله وأملاكه. «فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه، فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له ... فترك كل ما كان له في يد يوسف، ولم يكن معه يعرف شيئاً إلا الخبر الذي يأكله، وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر» (تكوين، ٣٩: ٣-٦).

وهو أمرٌ يتكرر بعد ذلك في قصة لوط، الذي عاش بين الشواذ وعاشرهم، وكان لا بد أن تنفي التوراة عنه تلك التهمة، رغم أن أهل القرية اتهموه صراحةً، بأنه جاء بالملكين السماويين ليعاشرهما. ثم يتكرر ذات المنهج في إصرار التوراة، على أن الإسرائيليين بمصر كانوا لا يعيشون بين المصريين إطلاقاً، حتى تتحقق لعنة الرب على المصريين، فتصيب ضرباته مواضع المصريين، ولا تصيب مواضع سكنى الإسرائيليين، رغم أن هناك نصوصاً بالتوراة، تؤكد أنهم كانوا يعيشون بين المصريين، كما في نصيحة يهوه لشعبه، باستعارة الحلي الذهبية من المصريين، وسلبها منهم ليلة الخروج. وهو ما يعني أن كليهما كان

يعيش في ذات المواضع، بل إن تعبير التوراة يشير إلى اختلاط مساكنهم «تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها، أمتعة فضة وأمتعة ذهباً ... فتسلبون المصريين» (خروج، ٢٢-٣).

وعلى ذات الوتيرة يأتي تأكيد التوراة بلا مقدمات وبلا أسباب واضحة وبلا معنى: «وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات، ولم تكل عينه ولا ذهب نضارته.» (تثنية، ٣٤-٧) ولا ننسى عصاته التي كان يتوكأ عليها، وتضيف رصيذاً لفكرة العمى الذي أصابه، وقامت التوراة تصر على نفيه، لنفي أي إشارات يمكن أن تكشف الأصل المصري لأعظم أنبيائها.

وقد صادفني نصٌ غريب لا معنى له، إلا إذا كان يشير إلى حدثٍ حقيقي قد حدث عن قلع عيون أحد الفراعين، أو لعقاب كان يمارس في بلاد الحيثيين تحديداً، وأنه ربما حدث أيضاً في مصر، والنص يأمل ألا يتكرر ذلك. وقد جاء ذلك في نص معاهدة السلام التي عقدت بين الملك المصري رمسيس الثاني وبين الملك الحيثي حاتوشيليش. ويقول هذا البند من الاتفاقية: «إن رعمسيس وحاتوشيليش حقاً أخوان؛ ولذلك عليهما ألا يفرضا عقوباتٍ على ذنوبهم، وألا يقتلوا عيونهم وألا ينتقما من أهلها.»^١

كما أفادتنا المصادر المصرية أن «حور محب» من بين الفراعين تحديداً، قد أمر بالتمثيل بالخونة وبعقوبات التشويه الجسدي والنفي معاً، وجعل منفاه في مدينة تقع شرقي الدلتا على الحدود السينائية، أسماها الرومان (رونو كولورا) — يضعها المؤرخون عند العريش وهذا خطأ كما سنرى)، والكلمة رونو كولورا تعني بالضبط «مجدوعي الأنوف». لكننا نفهم من نصوص حور محب أنه كان يمارس ألواناً أخرى من التشويه الجسدي خاصة مع أعداء البلاد، أو من يعتدون بالسرقة على أوقاف المعبد. ومن ثم لن يكون هناك مانع من سمل العيون، كطريقة مسموعة في عقوبات العالم القديم، وهي الحالة التي ربما تعرض لها إخناتون، عندما تم إسقاطه عن عرشه ثم نفيه بعد ذلك. وفي الكتاب المقدس إفراطٌ في الحديث عن حاسة الشم بدلاً من حاسة البصر، ودوماً كان هذا الكتاب يتحدث عن المحروقات المقربة إلى يهوه باعتبارها «رائحة سرور للرب».

وبعد مراحل تطويرية في الديانة اليهودية تم فيها التخلي عن آتون أو الأدون السيد، الذي اصطبغ برقة شخصية إخناتون، لصالح يهوه السفاح الجبلي بانتصار أتباع يهوه

^١ سامي سعيد، الرعامسة ... سبق ذكره، ص ٥٩.

البركاني الذي سيأتي شرحه، مع استبعاد كل ما يمت للأصل المصري بصلة، نصادف نصًا أكثر غرابة بالكتاب المقدس، وهو نص يتحدث عن انتقال الملك الإسرائيلي داود من مدينة حبرون إلى أورشليم، حيث يعيش اليبوسيون ليتخذها عاصمة لملكه. وهنا يعترض اليبوسيون بطلب من أعجب المطالب، ناهيك عن كونه كان حتى كتابة هذه السطور غير مفهوم الإطلاق، يقول النص:

وذهب الملك (أي داود) ورجاله إلى أورشليم إلى اليبوسيين سكان الأرض، فكلّموا داود قائلين: لا تدخل هنا ما لم تنزع العميان والعرج، أي لا يدخل داود إلى هنا، وأخذ داود حصن صهيون، هي مدينة داود. وقال داود في ذلك اليوم إن الذي يضرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة والعرج والأعمى المبغضين من نفس داود؛ لذلك يقولون لا يدخل البيت أعمى أو أعرج، وأقام داود في الحصن وسماه مدينة داود.

(صموئيل ثاني، ٥: ٦-٩)

النص شديد التناقض وغير مفهوم على الإطلاق، لكن لنحاول! يقول النص إن داود ورجاله ذهبوا إلى أورشليم يريدون دخولها، فواجهه أهلها اليبوسيون بطلب هو ألا يدخل مدينتهم إلا بعد أن يتخلص من العميان والعرج. ويفسر المقدس ذلك بجملة إلحاقية، أي لا يدخل داود إلى هنا. ونحن نعلم أن داود لم يكن أعرج ولا أعمى. نظن المقصود هو أن يتخلى داود عما يحمل من عقائد، وهنا قرر داود أن يأخذ أورشليم بالقوة وضرب اليبوسيين، لكن يبدو أنه قد اضطر للتنازل عن ذلك التمسك بالأعرج الأعمى، حيث نجد العرج والعميان فجأة مبغضين من نفس داود، بل وبات من المحرم على الأعرج والأعمى من دخول البيت المقدس، وربما المقصود بعد ذلك الهيكل.

إن المحرر التوراتي والحقائق تفلت من بين يديه، يحاول طمسها وتزويرها، لكن لتفصح في اضطراب واضح عن نفسها، فعقيدة داود تعود إلى فرعون، كان أعمى كما كان أعرج؛ لتورم سيقانه وقدميه ... وعصا موسى تصبح ضرورتها مع الحاليين شديدة الضرورة، والأهمية التي ظهرت بها في الأسطورة التوراتية، حتى صارت عصا مقدسة فعالة للأعاجيب.

هذا بينما المصري حتى اليوم ما زال يحتفظ بذكريات باهتة في وصفه للشخص الأعمى للبصر، إذا كان أعمى البصيرة في الوقت نفسه، بالقول أن عماه «عمى حيثي».

وكثير ما تساءلت في طفولتي عن معنى حيثي تلك، حتى برزت وأنا أكتب هذه الفقرات. وهو ما يذكرنا بأن أصول إخناتون من جهة خنولته تعود إلى آدوم، حيث كان يعيش الإسكيت الحيثيون مع أحلافهم.

أما الصراع الجدلي الذي نشب بين موسى وبين الفرعون حسب حكاية التوراة، فتفسره لنا أسطورة أوديب في قول يوربيدس: إنه بعد نفي أوديب وتحديد إقامته في قصر بذلك المنفى يعيش فيه أعمى، راودت أوديب نفسه بالعودة واستعادة ملكه مرة أخرى، فوقف ضده كرايون وولده بولينكيس وأتيوكليس؛ حتى تحقق نفيه نهائياً. وهو ما يساعد على إعادة تصور السيناريو المصري لأحداثه، عندما تم نفي الملك إخناتون وجماعته إلى حواريس، حيث عاش هناك وسط شعبه الجديد، الذي تحالف معه وسلم بعقيده، ثم إنه كان هناك على مقربة من أنسابه وأخواله المديانيين، مما شجعه فيما يبدو على محاولة العودة للتفكير في استعادة عرشه مرة أخرى مستعيناً بأنسابه. وهو ما يلتقي مع رواية مانيتو عن أوزرسيف، الذي استعان بالهكسوس في غزوة هكسوسية ثانية.

ومن جانبه كان كمال الصليبي شديد العجب من عبد عبراني يمتلك كل تلك الجراً، ولا ينزعج الفرعون بل يسمح بها، ويبرر ذلك في قوله: «ويبدو أن موسى التاريخي بعد رجوعه من مديان إلى مصر، استعاد على الأقل بعض من نفوذه الذي كان له هناك من قبل، فكان يدخل على فرعون ... كلما شاء ويتكلم أمامه بكامل حريته وبقدر كبير من الجراً»^٢. ومنطق الأحداث يجعلنا نفترض أنه كان مع إخناتون آنذاك، ولده المخلوع سمنخ كا رع على رأس تلك الجيوش لاستعادة عرشه، وأنه قد تمت مواجهة عسكرية مع الجيوش المصرية، انتهت بصد تلك الهجمة على الحدود، ويدعم لنا فكرة الغزوة الهكسوسية الثانية التي نتمسك بها، نص عثر عليه بمكتبة العمارنة من الملك البابلي بورنا بورياش الثاني، يقول فيها للملك المصري:

في عهد أبي كوريكالزو أرسل إليه الكنعانيون يقولون: لنذهب إلى مصر ولنغزوها جميعاً، وسوف نعقد معك حلفاً. أما أبي فقد أجاب على رسالتهم قائلاً: ليكن الحلف ما بينكم، لكن لتحذروا جانبي إذن لما كان ملك مصر حليفي، فمن ذا الذي يصدني عن غزوكم، وهكذا من أجل أبيك لم يسمع أبي قولهم.^٣

^٢ الصليبي، خفايا ... سبق ذكره، ص ٢٢٨.

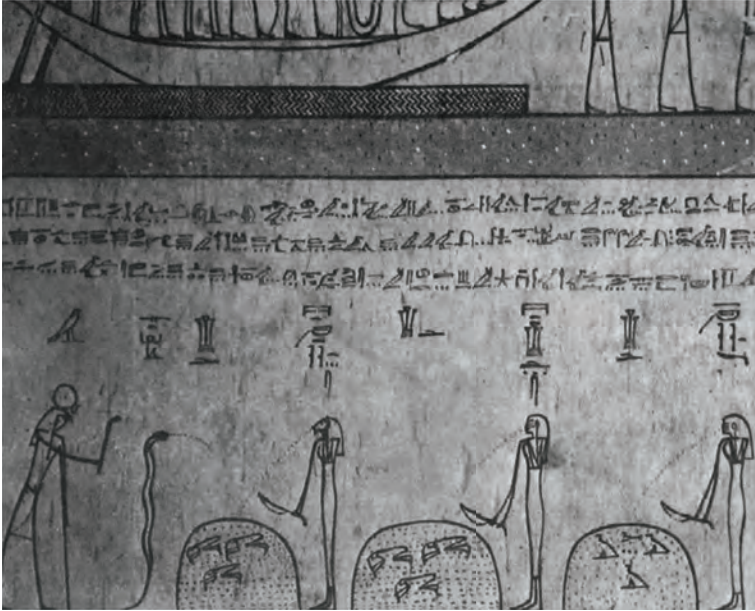
^٣ باقر، الوجيز ... سبق ذكره، ص ٤٦١.

ونعود إلى رسم سيناريو الأحداث في مصر، حيث نفهم أن الملك توت عنخ آمون قد قتل في المعركة، كما أنه لا ريب قد استعان كلُّ منهما بما في إمكانه لإثبات الشرعية أمام الناس. وفي هذا يقول أحمد عثمان: «والكلمة العبرية التي استخدمت في التوراة، للدلالة على عصي موسى هي نحش، وتُقرأ أحياناً حنش. والكلمة نفسها لها معنيان آخران كذلك في اللغة العبرية، فهي تعني ثعبان كما تعني أيضاً النحاس الأصفر. وتخبرنا أحد قصص الهجاء — وهي الجزء الأسطوري من التلمود — أن العصا التي استعملها موسى كانت مصنوعة ومحفورة على شكل صولجان. ومن الطبيعي إذا أراد موسى إقناع المصريين بصدق قوله، استخدام أدلة يكون لها أثرها الفعال في مشاهديه من الكهنة والحكماء، والثعبان عند المصريين القدماء يرمز إلى سلطة العرش، وهو يوضع داخل التاج الملكي فوق جبهة الملوك. وكانت عصا الصولجان الملكي المصري تصنع أيضاً على شكل ثعبان مخطط وملتقٍ، وهو إما يكون مصنوعاً من النحاس أو مغطى بطبقة منه. وهذا أيضاً يتضح من موضوع الرسالة التي نال بها الدكتور علي حسن وكيل الوزارة لشئون الآثار المصرية درجة الدكتوراة التي حصل عليها من ألمانيا، والعرض الذي قام به موسى أمام فرعون وقومه، يشبه العرض الذي كان الملوك المصريون، يقومون به في أهم احتفالاتهم الشعبية وهو احتفال السد ... وكان على الملك نفسه أن يقوم بعددٍ من الطقوس في قاعة العرش بقصره أمام حكماء ونبلاء البلاد. ومن بين هذه الطقوس كما يتبين من الرسوم الموجودة على جدران مقبرة خيوف أحد وزراء آمحتب الثالث: كان الملك يضع يده في عبه ثم يخرجها ليربها للناظرين، ثم كان الملك يقدم عرضاً وهو مَسْك صولجان وُضع عند نهايته رأس ثعبان، وهكذا فإن المصريين أدركوا مغزى الآيات التي عرضها موسى أمامهم.»^٤

هذا فرض، ولدينا فرض آخر لهذا الاستعراض الذي يؤكد شرعية الملك، وهو أن الملك كان يتم تدريبه من قبل الكهنة على التعامل مع الحية الدفانة في حال تصلبها وبياتها، والتي كان يتم إيقاظها بالضغط على غدة خلف الرأس، كعلامة شاهدة على تمكن الملك من منح أنفاس الحياة للبشر وحتى الجمادات، وهو دأب معلوم ومتكرر في عبارة دائمة الورد في النصوص المصرية عن الفرعون الذي «يمنح أنفاس الحياة».

ويبدو أن مسألة العصا تلك كانت شديدة الأهمية، بل اعتقد المصري القديم أن العصا/صولجان هو منحة مُعطاه من الله نفسه؛ إذ نجد عند بلوتارك: «وفي اليوم الثالث

^٤ عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١، ص ٦٩، ٧٠.



شكل رقم «٢٢٧»: العِصِيُّ/ الحيات الدفانة في مصر القديمة، وكيفية استخراجها من مكانها، تحولت إلى أسطورة عصا حية تفعل المعجزات.

والعشرين من شهر بابه (ويوافق اليوم العشرين من شهر أكتوبر)، يحتفلون بعيد ميلاد عصا الإله.^٥ العصا كانت عصا الإله، وهو الذي يعطيها للفرعون، وكان لها يوم ميلاد، لقد كانت العصا كائنًا حيًّا أو «حية».

أما وضع الملك يده في فتحة ملابسه في صدره وإخراجها ليريها للناظرين، مع ما جاء في التوراة والقرآن أنها تظهر في تلك الحال بيضاء مضيئة، فنعتقد ذلك يرتبط بما سبق، وفعلته حتشبسوت لتأكيد شرعية ملوكيتها المشكوك فيها، وأرسلت لهذا السبب خصيصًا بعثتها إلى بونت لإحضار تلك المادة المضيئة، التي أسمتها النصوص مادة السام.

[انظر أيضًا الشكل رقم «٢٢٨»، «٢٢٩»، «٢٣٠»]

^٥ بلوتارك، إيزيس ... سبق ذكره، ص ٨١.

ويذكر أنها دهنت جسدها كله من باب التأكيد المبالغ فيه، فأضاعت لشعبها في الليل كنجوم السماوات. ويبدو أنها كانت العادة التأكيدية لشرعية الملك في أعياد سد، فكان الملك يخفي يده في جيب صدريته، ويغمس يده في مادة السام المخفية في ملابسه ليخرجها مضيئة للناظرين. وهو بالضبط ما فعله إخناتون أمام أي وجماهير شعبه كآيات للملك، وذكرته بعد ذلك التوراة كمعجزات قام بها النبي موسى أمام الفرعون. أما بقية المعجزات كضرب مصر بالبعوض والضفادع والجراد والذباب والقمل، فهي كلها أمور اعتيادية في أرض مصر التي تضج بالحياة. وهي في ذات الوقت أمور غريبة على محررِ توراتي يعيش في صحراوات جافة ضئيلة بالحياة وشحيحة. ويبدو أن الأمر لم يحسم لصالح الدلائل السحرية للشرعية، إنما حسم بقوة السلاح، وتم طرد إخناتون وجماعته من مصر، ورغم أن التوراة حاولت القول إن الخروج تم رغماً عن إرادة الفرعون، وأنه طاردهم لهذا السبب حتى غرق في البحر المفلوق تأثراً باللوحات المصرية، فإنها أفصحت في أكثر من موضع آخر عن صدق ما حدث حقيقة، وكون هذا الخروج قد حدث بإرادة الفرعون، وأنه كان طرداً لهم من البلاد، كما في النصوص:

فقال الرب لموسى: الآن تنظر ما أنا فاعل بفرعون، فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.

(خروج، ٦: ١)

وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر، خبز كله فطيراً إذا كان لم يختمر؛ لأنهم طردوا من مصر ولم يقدرُوا أن يتأخروا.

(خروج، ١٢: ٣٩)

وهو الطرد الذي ينفي تماماً فكرة مطاردة الفرعون لهم وغرقه هو وجيوشه في البحر، ذلك الحدث الذي لم تذكره لا نصوص مصر، ولا أي نصوص أخرى لأي دولة من دول الشرق القديم معاصرة للأحداث، إزاء حدث هائل كهذا مفترض أنه قد لحق بجيوش الدولة الإمبراطورية لذلك الزمان، ذكرته فقط التوراة باستخدام المأثور الفني المصري، وإعادة إخراجه في ثوبٍ إسرائيلي إعجازي (انظر مثلاً ذلك المأثور الفني في اللوحات).

ثم نقرأ في حروب سיתי الأول الذي حكم ١٣٠٩ قبل الميلاد أنه خرج من مصر إلى فلسطين، لصد هجمات جديدة للعابرو تحاول عبور نهر الأردن من الشرق إلى الغرب

داخل فلسطين.^٦ وبحسب بسيط سنجد الفارق بين زمن سقوط إخناتون ١٣٥ ق.م. وبين زمن تلك الغزوة العابرية على فلسطين التي صدها ستي الأول ١٣٠٩ ق.م. يعطينا فارق أربعين عامًا، هي المدة التي انقضت ما بين سقوط إخناتون وبين وصول الخارجين إلى فلسطين، وسُميت في التاريخ الديني بسنوات التيه الأربعين. ومع حملة ستي الأول تلك على شاسو سيناء الشرقية، نقف قليلًا نقرأ نصوص الملك المظفر، تروي لنا الحدث:

السنة الأولى من حكم ملك الوجه القبلي والبحري من ماعت رع، التخريب الذي ألحقه سيف الفرعون البتار له الحياة والفلاح والصحة، بالشاسو الخاسئين من قعلة ثارو حتى باكنعان، عندما سار جلالتة نحوهم مثل الأسد المفترس وصيرهم أشلاء.

وكالعادة كانت الانتصارات تُنسب لرب الدولة، ومع هذا الانتصار يقول الإله آمون، في الفقرات الختامية لنصوص حملة ستي الأولى على الشاسو:

وإني أولي وجهي قبل المشرق، وآتي بأعجوبة لك فأغلبهم لك، جميعًا مجتمعين في قبضتك، إني أجمع كل ممالك بونت سويًا، وكل جزيثهم من بلسم وقرفة، وكل الأخشاب الزكية الرائحة من أرض الإله، ناشرًا شذاها أمامك.^٧

إن الشاسو كانوا يعيشون في مجموعة ممالك متحدة سويًا، يعرفها هذا النص بأنها ممالك بلاد بونت أرض الإله، التي تقع في الشرق وليس في الجنوب الصومالي. وهكذا تتأكد نظريتنا طوال الوقت؛ أن بلاد بونت هي مجموعة الممالك التجارية المتحالفة الدلتاوية الشرقية لتصل إلى بي كنعان، حيث تغلب الفرعون على كل ممالك بونت جميعًا متحدين، لقد كانوا دومًا أخلاقًا أو أخلامو.

وبين الأسماء المتطابقة التي تقفز بين أيدينا، لتستكمل تضيير النسيج بين إخناتون وأوديب وموسى، إقليم أتيكا الذي تم نفي أوديب إليه أعشى، حيث يعيش وقتًا على جبل كيثابرون ثم يموت هناك. وبالعودة إلى النصوص المصرية نجد الفرعون رمسيس

^٦ السواح، الحدث ... سبق ذكره، ص ٢٦٤.

^٧ سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج ٦، ص ٤٦.

الثالث، كما سبق وأسلمنا، يرسل رجاله إلى الإقليم الآدومي لإحضار النحاس من منطقة أتيكا.^٨ وهو ما يؤكد أن في شرقي سيناء حيث البلاد الميتانية، كان يقع إقليم قرب مناجم النحاس، يحمل الاسم الذي ورد بالنطق الدقيق Atike وترجمناه عتيقة. أما جبل «كيثابرون» الواقع في إقليم أتيكا في أسطورة أوديب، فيطابق اسم الجبل المقدس المعروف حتى الآن في سيناء باسم جبل «كاثرين»، والذي صيغت حول اسمه بعد ذلك قصة أسطورية، عن مؤمنة مسيحية بهذا الاسم حملتها الملائكة لتدفنها هناك. ويعود الاسم في رأينا إلى اسم حمي موسى «يثرن»، الذي يُنطق بكل سلامة «جثرون» و«كاثرن» و«كاثرين» دون أية مشاكل لغوية. ونحن نعلم من قصة التوراة أن يثرن أو كاثرين كان كاهن بلاد مديان. وأطلقت التوراة على ذلك الجبل اسمًا آخر هو جبل الله حوريب، أو الجبل المقدس حوريب، فالنص يقول:

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرن حميه كاهن مديان، فساق الغنم إلى وراء البرية، وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة، وإذا العليقة تتوقد بالنار، والعليقة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العليقة؟ فلما رأى الرب أنه مال لينظر، ناداه الله من وسط العليقة، وقال: موسى موسى. قال: ها أنا ذا. فقال: لا تقترب إلى هنا. اخلع حذاءك من رجلك؛ لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرض مقدسة.

(خروج، ٣: ١-٥)

ونتذكر أن أرض الإله بونت كانت عند المصري القديم أرضًا مقدسة، وسميت «أرض الإله»، رأيناها تقع في شبه جزيرة سيناء، لا سيما قسمها الجنوبي والشرقي الملتحم مع وادي عربة وجبال السراة/سعير. ولأنها مقدسة فقد جاء أمر الإله لموسى التوراتي عندما دخلها يقول له: «اخلع حذاءك من رجلك؛ لأن الموضع الذي أنت واقفٌ عليه أرض مقدسة.» (خروج ٣: ٥) وهو ما تكرر في آيات القرآن حيث نجد ذات الأمر الإلهي، يُوجّه إلى موسى القرآني يحمل ذات المعاني: «اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى».

^٨ سامي سعيد، الرعامسة ... سبق ذكره، ص ١٦١.

والغريب أن هناك لفظة لم يتم الالتفات إليها في ملحمة أوديب بصياغة سوفوكليس، لكنها تعيننا بشدة؛ فالملحمة تصف المكان الذي وصل إليه أوديب منفياً، بعد رحلة طويلة في صحارى جرداء، بحسابه قرية جميلة كثيرة الأشجار، تجري فيها القنوات المتدفقة من الينابيع والعيون، مليئة بأشجار عطرية ذات روائح زكية (بخور)، تغرد فيها الطيور على أشجار الكروم والزيتون والتين، وصخورها رائعة الألوان. وهذا شرح سوفوكليس للمكان الذي يلتقي مع الصورة التي رسمناها لبلاد آدوم وكاثرين، لكن سوفوكليس يقول: إن أوديب لم يرَ هذه الصورة لأنه كان أعمى، إنما أدركها بحسّ الداخلي. لكنه الحس الذي ما كان ممكناً أن يدرك لون الصخور مثلاً، فهذا ما وصل إليه عن مواصفات المكان إلى سوفوكليس نفسه. المهم أن سوفوكليس يقول: إن أوديب أدرك من هذا كله، أنه يقف في أرض مقدسة، رغم أن هذه الصورة تتكرر في بلاد كثيرة غير مقدسة. لقد كانت معلومات سوفوكليس أن الحدث واقع في أرض مقدسة. ثم يضيف سوفوكليس إضافة مضيئة؛ إذ يقول إن أحد أهالي تلك البلاد رأى أوديب يجلس على صخرة مع ابنته أنتيجوني، فأمره بالانصراف من المكان فوراً؛ لأنه لا يصح تدنيس أرض الآلهة المقدسة بأقدام البشر.^٩ ثم بعد ذلك بقرون طويلة ننصت للرحالة المحدث ريتشي، يصف لنا رحلته في صحراء سيناء القاحلة، حتى وصل إلى دير كاثرين، يقول: «وبالغرم من موقع الدير في الوهاد المحيطة بالجبال العالية ... تجري في خلال واديه غدائر من الماء العذب ... مع أجسام شجر الزيتون والكروم، والبساتين النامية في الوادي، تسقى من مياه الينابيع المنحدرة من فوق الجبال، والحدائق الملاصقة للدير نفسه، محاطة بسياح من شجر السرو والزيتون، وتنتج مقادير وافرة من البرتقال والخضر ... تسد أود ٢٠٠٠٠ نسمة من البدو القانعين في ظل الدير ... ومن الخطأ الفاحش أن يظن إنسان أن شبه جزيرة سيناء أرض قاحلة عديمة الماء والنبات.»^{١٠}

وهو الأمر ذاته الذي قرأناه في ترجمتنا لرسم، وليس لكلام ورد منقوشاً على صلاية الملك نعرمر، التي سجلت له حروفاً فسرهما علماء التاريخ بأنها حروب التوحيد للإقليمين

^٩ سوفوكليس، الملك أوديبوس، أوديبوس في كولوني، أنتيجيموني، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ٣٣.

^{١٠} رتشي كالدور، رجال ذلوا الصحراء، ترجمة محمد معوض ومحمود الشواربي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت، ص ١٦٨، ١٦٩.

المصريين البحري والقبلي، بينما فسرناها نحن بأنها تسجيل لانتصاراته في بلاد سيناء، وإخضاعها للسلطان المصري حتى بلاد آدوم. ولم يكن مفهوماً على الإطلاق لماذا يسير الملك حافي القدمين في معركة، بينما يحمل أحد أتباعه نعله خلفه؟ لقد كان الملك يخضع للطقس المقدس في الموضع المقدس. وكان الفنان يقصد في تقريره إبراز هذا المعنى تحديداً، وحتى لا تفسر اللوحة بأن الحفا كان أمراً اعتيادياً في تلك الأيام، بالنظر إلى أن بقية الأشخاص في اللوحة كانوا حفاة، فإنه رسم خلف الملك تابعه يحمل نعال الملك بشكلٍ بارز واضح لتبليغ المراد. وخلف رأس هذا التابع نجمة سباعية الإشعاعات، ونحن نعلم قدسية الرقم سبعة في البلاد السامية، كما لو كان الفنان يريد تبليغنا بقدسية ذلك الموضع، الذي يقف فيه الملك حافياً، يمسك بأسيرٍ يضربه بدبوس القتال، وأسفله تم تمثيل سكان تلك البلاد في شخصين يركضان بسرعة تعبيراً عن الهرب من مواطنهم أمام الفرعون. أما رأس الصلابة الأعلى فقد حمل على الجانبين، رأس الإلهة حتحور ربة سيناء المعروفة الشأن.

وعلى الوجه الآخر للصلابة يسير الملك وخلفه تابعه، يحمل نعليه وأمامه حملة الأعلام، وعلى اليمين يمكنك أن ترى أسرى مُوثقين قد أُلقيت رءوسهم تحت أقدامهم، وفوقهم طائر الزقزاق للإشارة إلى جنسهم وبلادهم. وإلى يمين طائر الزقزاق رسماً لسفينة بحرية تشير إلى أن الوصول إلى تلك البلاد قد تم عبر البحر، وأنه لا شك قد سلك ذات الطريق الذي سلكته بعد ذلك بقرون طويلة بعثة حتشبسوت، تحاشياً لقسوة العبور البري في الصحراء السينائية الهائلة.

وفي الملحة الأوديبيية يصعد أوديب إلى جبلٍ يتبع نداء الآلهة، ليختفي ولا يعود وسط أصوات الرعد والصاعقة والعواصف.^{١١} وهي الصورة التي نعرفها للإله حداد تيفون، وفي التوراة تصوير لمشهدية بركانية عظيمة عند جبال كاثرين. وقد صعد موسى مع يشوع إلى جبل نبو ولم يعد مرة أخرى وعاد يشوع وحده، ليقول لشعبه إن موسى قد مات. ثم لا نندهش عندما نعلم أن السفنكس اليوناني صاحب الأغاز، كان يتعلم تلك الأحاجي من ربات الفنون أستمتهم الملحة «الموسيات».^{١٢} أما يوربيد فقد أسماهن الفينيقيات.^{١٣}

^{١١} سوفوكليس سبق ذكره، ص ٤٢.

^{١٢} الشعراوي، أساطير ... سبق ذكره، ص ٢٤٨.

^{١٣} علي نور، ملامح مصرية في المسرح الإغريقي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د.ت، ص ٥٢.

فهل ثمة تبليغ أوضح من ذلك؟! أما الذي تأكد موجزًا، بعد اكتشاف بقايا فخار نبطي في موقع جبل كاثرين وجبل موسى إلى الشمال منه مباشرة، أن هذا الموقع كان مقدسًا عند النبطيين، وأن الأنباط لم يكونوا زوَّارًا لهذا المكان، بل مقيمون.^{١٤}

ثم نقرأ في ملحمة أوديب ما يشير إلى نبوة أوديب وقديسيته.

فيقول سوفوكليس: إن أوديب بعد أن كَفَّر عن ذنبه الذي اقترفه وفقاً عينيه، لم يكن هناك أي مبرر للقدر والآلهة في استمرار بلائه. وهنا تنبأ له الوحي أنه عندما يصل إلى كولونوس وسط إقليم أتيكا ... سيغفر له ذنبه.^{١٥} وقالت نبوءة أبوللون: «إن أوديب قد كَفَّر عن خطاياها، وأصبح طاهرًا بعد أن كان مدنسًا، وغفياً بعد أن كان زانئًا، وروحًا محلقة في سماء الفضيلة، بعد أن كان منغمسًا في الرذيلة ... مباركة تلك الأرض التي تحوي رفات أوديب.»^{١٦}

لقد تحول أوديب إذن من ملكٍ إلى نبي ... مقدس، عندما وصل إلى عتيقة وجبال كاثرين. ولا نظننا بجانب الصواب في افتراض أن موسى أبدًا لم يصل إلى جبل «نبو» شرقي الأردن مباشرة مقابل أريحا ليموت هناك، إنما مات تحديدًا فوق جبل يقع شمالي جبل كاثرين مباشرة، وأن ذلك كان السبب في أن ذلك الجبل قد حمل من يومها اسم جبل موسى، وأن قاتله كان يشوع تلميذه المخلص تحديدًا. وعند تلك اللحظة المفصلية تتغير أمورٌ كثيرة، كانت سببًا في كثير من الالتباسات، التي أدت إلى كثير من الألغاز التي استغرقت عمرنا ونحن نحاول فك طلاسمها، وتلك اللحظة المفصلية في التاريخ بحاجة إلى بعض الشرح، لرسم لوحة تصويرية لما حدث.

[انظر شكل رقم «٢٣١، ٢٣٢»]

لقد تم نفي الفرعون المارق إلى أقصى الحدود الشمالية الشرقية للبلاد المصرية، وتم تحديد إقامته في القصر الصيفي في مدينة حواريس، التي كانت منفًى لكل المارقين والآبقيين والخارجين على القانون. فقد خلع الفرعون إخناتون من على عرشه، وحددت إقامته دون السماح له بالخروج من تلك المدينة المتطرفة على الحدود السينائية، مع أتباعه

^{١٤} أحمد عثمان، في الشعر ... سبق ذكره، ص ١١٧.

^{١٥} سوفوكليس سبق ذكره، ص ٣٣.

^{١٦} الشعراوي، أساطير ... سبق ذكره، ص ٢٥٨.

فرعون أعمى وأعرج



شكل رقم «٢٣٣»: بين آثار الاسكيت وجد هذا النقش الذي يصور عددًا من ال (سفنكس) المجنَّح.



شكل رقم «٢٣٤»: عند جبل نبو المطل على ساحل البحر الميت الشرقي، حيث يفترض أن هناك مدفن النبي موسى، قام فنان مسيحي بإقامة هذا العمل الرائع، الذي يصوّر حياة موسى المعبودة وكيف أنها رمز إلهي، قام الفنان بدمجه مع شخص المسيح المصلوب (من تصوير المؤلف إبان سعيه وراء المواقع القديمة وتدقيقها).



شكل رقم «٢٣٥»: صورة من الجو لجبل نبو شرقي أريحا، المفترض أن النبي موسى قد دُفن فيه حسب رواية التوراة.

ومريديه من مصريين وغير مصريين. وهناك كان لقاءه مع أسرى مدينة حواريس من بقايا هكسوس وإسرائيليين. وهناك ارتبط الجميع بالعقيدة الجديدة التي جمعتهم على قلب واحد، ويقول مانيتون: إن الفرعون قد سمح للأسرى باستيطان مدينة حواريس، وإن هؤلاء وصل إليهم الكاهن المصري أوزرسيف، الذي قادهم لإشعال ثورة عاتية، وإن ذلك الكاهن قد استنجد بالهكسوس المطرودين من مصر إلى براري سيناء وفلسطين، والذين تمركزوا في مدينة رئيسية لهم هي أورشليم، وإن أوزرسيف أحاطهم علمًا بأن في إمكانه أن يفتح لهم البلاد. وهو أمرٌ كان غير ممكن إلا إذا كان أوزرسيف يظن أن لديه هذه القدرة؛ وذلك لا يفسره إلا أن يكون شخصًا ذات قدرات عالية وإمكانات السيطرة على البلاد. وتفسره قصتنا تحديدًا حيث إن أوزرسيف هذا كان فرعونًا مخلوعًا، يمكنه

فرعون أعمى وأعرج



شكل رقم «٢٣٦»: المؤلف شرقي الأردن فوق جبل نبو، عند مدخل قبر النبي موسى المفترض حسب التوراة.



شكل رقم «٢٣٧»: المؤلف على الجانب الشرقي من جبال الجليل المذكورة بالتوراة، وخلفه تظهر من بعيد جبال أريحا الواقعة غربي الأردن.

باستخدام القوة العسكرية استعادة عرشه ومجده بعون هؤلاء الحلفاء. وهنا تصدت له الجيوش المصرية زمن حكم ولده الثاني الصبي توت عنخ آمون، ووصاية آي الذي كان يستثمر كل تلك الأحداث لصالحه؛ للوثوب على العرش. ولا شك أن قائد الجيوش المصرية آنذاك كان هو هارامبيس/ حور محب. وكان ذلك ما أسميناه بالغزوة الهكسوسية الثانية، أو ما دونته الملحمة اليونانية عن استعانة بولينكيس/ سمنخ كارع بجيوش الأجانب ضد بلاده، لاستعادة عرشه المغتصب من أخيه أتيوكليس، أو توت عنخ آمون في ملحمة سبعة ضد طيبة. ويبدو أن سمنخ كارع/ بولينكيس وجد مزيداً من تأييد شرعية مطلبه في وقوف أبيه إخناتون إلى جواره، الذي كان يطمع بدوره في استعادة عرشه. لكن ينتهي الأمر بكارثة للحلفاء من متمردي حواريس والغزاة الهكسوس، يضطرون معها إلى الفرار جميعاً من مصر، في رحلة دونتها المقدسات تحت عنوان خروج الإسرائيليين من مصر بقيادة موسى. وتم تصويرها مصحوبة بعددٍ من الخوارق والأحداث الطبيعية الهائلة.

ويؤيد ذلك ما وجده الأثريون في مقبرة حوي نائب الملك الصبي توت عنخ آمون في النوبة، حيث تدل سلسلة اللوحات المصورة على جدران مقبرته على حصول الملك توت على غنائم من شعب هجين، فاللامح آسيوية وزنجية، ضمنها خيول وعربات ثمينة وأوان ذهبية وفضية. أما الأشد غرابة لكنه مع نظريتنا يصبح اعتيادياً، فهو أن ضمن تلك الغنائم «زرافة حية».^{١٧} وقد سبق ورأينا الزرافة ضمن واردات بونت في لوحات حتشبسوت، وقد جاءت هذه الزرافة من آسيا وليس من صومال أفريقيا.

ويورد شتيندورف وصفاً للصور التي تزين جانبي غطاء أحد صناديق الملك توت، وضمنها مشاهد لمعارك عنيفة خاضها الملك ضد شعوب صُورت في سمات سامية وزنجية معاً. وزمن الملك توت تحيطنا السجلات الحيثية علماً بحملة مصرية على مدينة باسم قادش،^{١٨} التي فسرت كالعادة بأنها قادش نهر العاصي، وهو تفسير يجافي تماماً وضع مصر المتمزق حينذاك، لكن الخبر يمكن قوله إذا احتسبنا قادش المقصودة هي قادش سيناء/ عين قديس.

كما نعلم من المصادر الحيثية إبان تلك الأحداث المتسارعة أن الحيثيين قد أرسلوا حملة جديدة نحو الأراضي المصرية، لكن كل معلوماتنا عنها أنها كانت فاشلة، وأن الجنود

^{١٧} شتيندورف وسيل، عندما حكمت ... سبق ذكره، ص ٢٢٥.

^{١٨} السواح، أرام ... سبق ذكره، ص ١٩٦.

الحيثيين قد عادوا منها يحملون وباء تفشَّى في المملكة الحيثية، بل ومات به الملك الحيثي نفسه شوبيلوليوماس عام ١٣٤٦ ق.م.^{١٩} وهو لا شك الوباء الذي تفشى في بدو حوارييس، وكان عاملاً من عوامل طردهم في رواية آبيون النحوي التي رد عليها يوسفوس، معتمداً على تاريخ مانيتون أن هذا الوباء كان وراء الخروج أو الطرد، وهو ما يلتقي مع وصف توت عنخ آمون لمصر زمن أبيه «وكانت الأرض مريضة». وقد أشارت التوراة كما رأينا للوباء بالتفصيل الممل، وهو أيضاً ما دونته ملحمة أوديب عن وباء أرسلته الآلهة على طيبة نتيجة زواج أوديب بأمه.

ولمزيد من تأكيد مسألة الطردوليس الخروج، نقرأ عند «رمضان السيد» على عهده: إذ لم نجد ذلك إلا عنده، يقول عن إخناتون: «وفيما بعد أعلن كهنة آمون أنهم طردوه هو وبلاطه ومعاونيه، وكانوا حوالي ثمانين ألف شخص ... وأطلق عليه أعداؤه هو وأعوانه صفة الملحدين».^{٢٠}

ونحن نعلم أن أي نفسه لم يكن مصرياً حسب تقرير عالم التشريح إليوت سميث،^{٢١} وأنه كان ابناً ليويا وتويا الآسيويين. وهو ما يوضح لنا لماذا أسقطه المصريون بدوره، من قوائم الملوك رغم دفاعه عن مصر وتمصره؛ لأنه كان في النهاية سليل عمارنة. وقد كان أصل أي هذا غير المصري مدعاة لوضعه موضع المشكوك في شرعيته. وقد استثمر إخناتون الذي يعود من جهة الأب إلى مصرية أصيله في هذا الوضع، فخاض مباراة إثبات الشرعية بعد مقتل ولده توت، وتمثلت هذه المباريات في مجموعة آيات أو معجزات، قدّمها موسى التوراتي أمام الشعب، لإثبات تلك الشرعية كلمعان اليد وإضاءتها، وتحويل العصا إلى حية، وهو الأمر نفسه الذي قدمه الفرعون برجاله وسحرته أيضاً أمام الجماهير، حسبما روت لنا التوراة.

والمنطق يقول إن موسى كان يحمل تلك الآيات كمعجزة خاصة به لنبوته، وكى تكون معجزة يجب أن تكون فريدة تماماً وخاصة به، لكن التوراة تقول إن كل فعل إعجازي قدمه موسى، تم الرد عليه بذات الفعل من قبل الفرعون ورجاله، وهو ما يعني أن الأمر كان كما نقول: مباراة لها أدواتها المعروفة في زمنهم، ومسموح للطرفين باستخدامها،

^{١٩} الموضوع نفسه.

^{٢٠} رمضان السيد، تاريخ ... سبق ذكره، ١١١.

^{٢١} آلدرين، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٩٥.

مباراة لها غرض ومكسب يتحقق للفائز، وهو برأينا عرش مصر، ويبدو أنها انتهت بهزيمة موسى ورجاله، تلك الهزيمة التي انتهت بخروجهم من البلاد نحو سيناء باتجاه فلسطين، على عكس ما روته لنا التوراة من انتصاراتٍ موسوية في تلك المباراة الكبرى. ونقرأ الآن الصورة التي رسمها لنا فليكوفسكي لآخر أيام تل العمارنة؛ إذ يقول: «لقد كانت نهاية أخت آتون نهاية مفاجئة، إذ انتقل سمنكا رع إلى طيبة [حسب رأيه] وهجر السكان منازلهم ورحلوا عن طريق النهر أو البر إلى طيبة، أو إلى أي مكانٍ آخر اختاروه. أما الأبنية فلم تكن قد اكتملت، فقد تركت على حالها، فأمام أحد المنازل التي كانت على وشك الاكتمال نهائياً، وضعت قطعة من الحجر فوق المدخل، وتركت بجواره ورحل البناءون. لقد كانت هجرة طابعها السرعة، تركت المنازل خاوية من الأثاث ليكون مصيرها التآكل».^{٢٢}

أما سوفوكليس فقد سجل في ملحمة أوديب ملكا، أن أوديب هو من طلب بنفسه النفي، وأنه بعد أن تم نفيه تذكّر رغبة والديه عند ميلاده في موته على جبل كيثابرون، ومن ثم أراد تحقيق تلك الرغبة لهما، وقرر الخروج من مدينة منفاه التي احتسبناها حواريس، متجهاً نحو جبل كيثابرون الذي احتسبناه جبل كاثرين ليموت هناك. وهو ما نعتبره إشارة على صدق تقديرنا بمقتل موسى في وسط جنوبي سيناء عند كاثرين وجبل موسى. لكنه قبل ذلك حاول التراجع لكنه قبل بالرفض، وذهب ليموت في كيثابرون.^{٢٣} وتصور لنا ملحمة سوفوكليس ذلك الجبل، بأنه قرية صغيرة جميلة، تجري فيها القنوات وتغرد فيها البلابل، وتمتلئ بأشجار الكروم وروائح المزروعات العطرية، والزيتون والغار والصخور الملونة الجميلة، فهي كالجنة أرض مقدسة، لكنها تقع بكل هذا الجمال، وسط تيهٍ واسع من الفيافي الجرداء.^{٢٤} وهو الأمر الذي ينطبق على منطقة كاثرين انطباقاً تاماً.

وربما بدا لنا أن هناك تناقضاً ظاهرياً بين الصفات، التي نعلمها على إخناتون كفرعونٍ حالم كارهٍ للحروب بين البشر، وبين الصورة التي ترسمها لنا التوراة عن موسى كشخصٍ دموي، وأن أتباعه كانوا بالعبرية «صبأوت»، أي ضباط أو جنود مقاتلين، وتم

^{٢٢} فليكوفسكي، أوديب ... وإخناتون سبق ذكره، ص ١٢٨.

^{٢٣} سوفوكليس ... سبق ذكره، ص ٣٢، ٣٣.

^{٢٤} نفسه، ص ٣٢، ٣٤.

وصف يهوه الرب بأنه رب الجنود تعبيرًا عن حالتهم القتالية. لكن هذا التعارض يجب أن يسقط الآن، بعد ما رأيناه حول تل العمارنة إبان حكم إخناتون، والتي كنت تبدو ثكنة عسكرية متكاملة، وهو ذات التناقض المتضافر والمتفق — إن جاز التعبير — في رواية التوراة عن الخروج التي علق عليها كمال الصليبي يقول: «في (الخروج، ٦-٢٦) بالترجمة العادية نقرأ ما يلي: «هذان هما هارون وموسى اللذان قال يهوه لهما: أخرجنا بني إسرائيل من أرض مصر/بحسب أجنادهم/عل صبء تم.» وعمل بالعبرية تعني على أو فوق أو إلى أو نحو، ولا تعني بحسب. أما لفظ صبء تم فقد تعني أجنادهم صبء ت، أو صبءوت، أي أجناد مضافة إلى ضمير الغائب. لكن سفر الخروج لا يتحدث في أي مكان عن تنظيم عسكري كان لبني إسرائيل، وهم الشعب المسكين العامل بالسخرة في أرض مصر.»^{٢٥}

ثم يقول الصليبي: «في (الخروج، ١٣-١٧) بالترجمة العادية نقرأ ما يلي: «وكان لما أطلق فرعون الشعب، أن الله لم يهدم في طريق أرض الفلسطينيين — عرص فلشيثم — مع أنها قريبة؛ لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربًا ويرجعوا إلى مصر، فأدار الله الشعب في طريق بركة بحر سوف — بدرك مدبريم سوف — وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر — وحمشيم علو بني يسرعل م. عرس مصرم.» وهناك تناقض في المفهوم الذي تقوم عليه هذه الترجمة، التي تفيد من ناحية أن بني إسرائيل كانوا شعبًا يخشى الحرب، ومن ناحية أخرى أنهم خرجوا من أرض مصر متجهزين أي مستعدين للحرب ... حمشيم من حمش يقابلها بالعربية حمس بمعنى الحماس، وحتى اليوم يصف العامي المصري الرجل الجريء القوي بأنه «حمش.»^{٢٦}

وهذا التناقض في رواية التوراة، لا يفسره إلا أن الخارجين مع إخناتون من مصريين، كانوا عسكريًا مدربين من حرسه الخاص وحرس مدينته، إضافة إلى ما تبقى من أسرى الهكسوس، وكانوا بدورهم من المقاتلين. أما القول بكرهة إخناتون المطلقة للقتال، فيشوبها شك كبير بعد أن علمنا أن العمارنة في زمنه، كانت أكبر ثكنة مسلحة في مصر، ناهيك عن كونه ارتكب ما هو أبشع من القتل، بإفناء أبيه نفسه بمحو اسمه من الآثار

^{٢٥} كمال الصليبي، خفايا ... سبق ذكره، ص ٢٢٩.

^{٢٦} الموضع نفسه.

في قتل أبدي، ناهيك عن تعصبه الأعمى الذي ملك عليه عقله وقلبه ضد كل أديان مصر وكهنتها، وانتهى بإغلاق جميع المعابد ومصادرة أموالها. وهو أمرٌ لا شك لم يتم بهدوء ودون عنف قد صعب تلك الحملة المخيفة على مأثور مصر التليد، الذي عاشت عليه طوال تاريخها، وسكن قلوب المصريين وعقولهم ومشاعرهم عبر قرون طويلة.

وتقول التوراة إن الخارجين من مصر بقيادة موسى، قد خرجوا بأملآكلهم وسوائهم، بل كانت لديهم كميات كثيرة وهائلة من الذهب. ومن هذا الذهب صنع لهم هارون العجل الذهبي؛ ليعبدوه إبان غياب موسى فوق جبل الشريعة أربعين يوماً. وحتى تبرر التوراة وجود هذه الكميات الهائلة من الذهب، ساقط تبريراً غريباً وغير مقبول لا عقلاً ولا منطقاً، ولا يتفق وواقع بني إسرائيل في مصر، فتقول بلسان الرب وهو يخاطب موسى:

ولكني أعلم أن ملك مصر لا يدعمكم تمضون ولا بيدٍ قوية، فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها، وبعد ذلك يطلقكم، وأعطى نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين، فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين.

(خروج، ٣: ١٩-٢٢)

وهكذا، ورغم تأكيد التوراة أن الإسرائيليين كانوا يسكنون في منطقة خاصة لا يسكنها المصريون، وهو ما يؤكد لنا فكرة مدينة المنفى، التي جاء ذكرها في نصوص حور محب، وأن ذلك المكان الخاص البعيد عن المصريين، أعطى رب اليهود فرصةً لإنزال ضرباته بالشعب المصري، دون أن يصيب الإسرائيليين، فإننا في هذا النص نجد أنهم يسكنون بين المصريين، ويستعيرون حليهم الذهبية، ليسلبوها ويخرجوا بها من مصر، وتعود التوراة ليلة الخروج تؤكد أن ذلك ما حدث فتقول:

وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وأعطى الرب نعمةً للشعب في عيون المصريين، حتى أعاروهم فسلبوا المصريين. فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت، نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيفٌ كثير أيضاً مع غنمٍ وبقر

ومواشٍ وافرة جدًّا، وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز مَلَّةً فطيرًا؛ إذ كان لم يختمر؛ لأنهم طردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخروا.

(خروج، ١٢: ٣٥-٣٩)

وهكذا نفذ بنو إسرائيل الخطة فسلبوا المصريين — الذين لم يكونوا بينهم أصلًا — ذهبهم، وخبزوا عجينًا للطعام، لكنهم طردوا في تلك الليلة من مصر ولم يخرجوا مطاردين، فصنعوا عجينهم فطيرًا؛ لأنه لم يكن قد اختمر، حتى يمكنهم تنفيذ أمر الطرد في موعده، لكن ذلك كله يسقط أمام أهم معجزات التوراة بالضربات العشر، والتي تمت حيث يقيم المصريون ولم تحدث حيث كان يقيم الإسرائيليون، مما يسقط مسألة الاستدانة والهرب بالذهب، بأمر إلهي يكسر كل القيم الأخلاقية. إن كاتب التوراة فضّل أن يسيء لربه على أن يعترف بالحقيقة. والحقيقة هي أن هذا الذهب كان ذهبًا ملكيًّا، وما كان يمكن مصادرة ذهب ملك، حتى لو كان ملكًا مخلوعًا. هو الذهب الذي كان بحوزة إخناتون، وخرج به من مصر زعيمًا للخارجين والمهزومين المطرودين.

أما المبحر حقًّا فهو أننا قد وقعنا على لوحة من أوغاريت بسوريا، لم يجد لها الباحثون تفسيرًا، وعقب بعضهم عليها بالقول: «رُسم ملك يتعبد أمام الإله إيل من رأس شمرا أوغاريت، يظهر الملك بلباس مصري، وقد يمثل الرسم فرعون مصر أو ملك أوغاريت في زي مصري».^{٢٧} لكن اللوحة أمامنا واضحة تمامًا وفق نظريتنا، فالتاج العالي هنا على رأس الملك، ليس تاج الوجه البحري ولا القبلي، لكنه غطاء رأس عالٍ وبارز جدًّا، ولا يميزه فرعونياً سوى الحية البارزة منه إلى الأمام، وصورة رع منشور الجناحين بأعلى اللوحة، ويتلقى هذا الفرعون ألواحًا من الإله (ألواح موسى)، بل وتعتمد اللوحة إلى تصوير بارز بين أنه يتناول لوحين بالتحديد، ويمسك بذات اليد عصا رأسها رأس حية، وهي لوحة تمزج بين موسى الذي تلقى الألواح وبين فرعون مصري، لن يكون سوى إخناتون حسب نظريتنا. أليس هذا بدليل شديد البهرة على صدق ما قلنا حتى الآن؟

ثم يصف لنا ابن قتيبة شخص النبي موسى وأخيه هارون، وصفًا يذكرنا بالعماليق فيقول: «قال وهب بن منبه: موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحق

^{٢٧} اللوحة نقلًا عن كتاب بعل هداد سبق ذكر تفاصيل النشر، ارجع إلى قائمة المصادر.



شكل رقم «٢٣٨».

بن إبراهيم ... وكان موسى عليه السلام آدم جعدًا طوالاً، كأنه من رجال شنوءة، وكان هارون أطول من موسى وأكثز لحماً، وأبيض جسمًا وأغلظ ألواحًا».^{٢٨} وبنظرة في فنون مصر لن تجد فرعوناً أطول من الفرعون إخناتون، ثم الفرعون آي وهو بدوره من أسرة العمارنة.

ضمن اللوحات التي ضمها كتاب «بعل هداد» جاءت هذه اللوحة، في صدفٍ عبقرية لتؤكد نظريتنا تأكيداً تاماً، وقد عقب المؤلفان على اللوحة بالكلمات التالية: «رسم لملك

^{٢٨} ابن قتيبة، المعارف ... سبق ذكره، ص ٤٣.

يتعبد أمام أب الآلهة إيل من رأس شمرا/أوغاريت. يظهر الملك بلباس مصري، وقد يمثل الرسم فرعون مصر أو ملك أوغاريت في زيِّ مصري.» هذا بينما اللوحة تسجل ذكريات كانت معلومة للفنان التي رسمها، تلك الذكريات التي كشف عنها كتابنا هذا: الجالس على العرش هو الإله يهوه ذو القرون، وأعلى اللوحة رسماً لرع الشمس المصرية المجنحة. والواقف أمام الإله بالفعل فرعون مصري، لكنه يلبس تاجاً بملفحةٍ تتدلَّى على ظهر الفرعون، وهو التاج الخاص بإخناتون وحده. ولا يبدو الفرعون في هيئةٍ تعبدية، إنما هو يتسلم لوحين من يهوه، هي عندنا ألواح الشريعة التي تلقّاها موسى في لوحين، بينما يمسك في اليد الأخرى العصا الحية الموسوية، وجرة ماء لم نجد لها تفسيراً واضحاً، اللهم إلا رمزية لاسم موسى (ابن الماء). إن تلك اللوحة العبقريّة إنما تحكي بإيجاز كل ما أردنا إثباته حتى الآن.

الفصل الثالث

نهاية موسى

فرويد في كتابه موسى والتوحيد يسجل سيناريو الأحداث الذي تصوره لنهاية ذلك الشخص العظيم «موسى»، وفي رسم ذلك السيناريو استند إلى ما وصل إليه «سيلين» في كتابه «موسى وأهميته في التاريخ اليهودي لبني إسرائيل». وكان «سيلين» قد كشف عن نهاية فاجعة لهذا القائد الفذ، وذلك من خلال قراءته لسفر يشوع؛ إذ قال إن الشعب البدوي المشاكس العنيد الإسرائيلي، لم يتمكن من الالتزام بالقوانين الصارمة والراقية للعقيدة الآتونية التي فرضها عليهم الأمير المصري موسى تلميذ إخناتون فيما يرى، فثاروا عليه في تمردٍ عظيم، وتم قتله إبان ذلك التمرد. وعلى الفور نكس الخارجون من مصر عن الدين الذي أعطاه لهم تلميذ إخناتون، وقد ساعد على هذه الثورة ونجاحها في شبه جزيرة سيناء المديانيون أنسباء الإسرائيليين، حيث اعتنق الخارجون جميعًا ديانة يهوه المصبوغة بالبداوة القاسية، التي تمثلت ربها في صورة الوحش السينائي الدموي البركاني، وتم هجر ديانة آتون الراقية والعظيمة. ويرى فرويد أنه عند هذه اللحظة المفصلية من التاريخ، يختفي موسى المصري سليل أسرة الملوك المصريين بالموت قتلًا، لكن التوراة تستأنف قصتها بموسى آخر وهمي، تزعم أنه كان طفل بني إسرائيل الذي رُبي بقصر الفرعون بالتبني، وقامت تنسب إلى موسى الوهمي كل الخرافات التوراتية، وقسوة البدو وربهم الشيطاني المارد البركاني. وهنا تحديدًا وعند هذه النقطة الفاصلة يبدأ الحديث عن الأسرة الوهمية لموسى، ويتم لأول مرة نسبة موسى المصري إلى بيت إسرائيل.

ويتمسك فرويدي بل يصر على هذا التمسك، بأن الفريق الذي بقي مؤمنًا بموسى المصري وبعقيدة آتون الواحد، هم أولئك الذين وُصفوا بعد ذلك باعتبارهم سبطًا من بيت إسرائيل، ووضعوا في سلسالهم بوصفهم كذلك، وكانوا أهم الأسباط من بعد، وهم سبط «لاوي» المنطوق عبريًا «ليفى». وكان اللاويون في رأي سيجموند فرويد هم الحاشية

الملكية المصرية، التي فضلت الخروج مع النبيل المصري موسى، بعد سقوط إخناتون وموته (كما يظن فرويد)؛ لذلك أصروا بعد مقتل موسى في سيناء على التمسك بذكرى مصر، وركزوا على قصة الخروج لهذا السبب تحديداً، حتى أمست لحظة الخروج عصب الديانة اليهودية وبداية التاريخ الإسرائيلي. كما أصر هؤلاء الخارجون على استمرار عادة الختان المصرية؛ لأنه ما كان بإمكانهم وهم مصريون أن يتخلوا عن عادة باتت طقساً مقدساً بطول تاريخ مصر، وأصبح الختان عند هؤلاء الخارجين شرطاً أساسياً للمؤمن؛ كي يكون يهودياً من أتباع موسى. كذلك أصروا على التمسك بموسى وبمصريته، بينما كان الفريق البدوي يخترع موسى آخر، موسى إسرائيلي مدياني منسوباً للبطاركة هؤلاء باعتبارها سنة إسرائيلية من البدء، والحقيقة غير ذلك بالمرة؛ فقد كانت من فجرها مصرية.

وهكذا كانت فتنة عبادة العجل الذهبي رمزاً لنهاية ديانة آتون، والعودة إلى عبادة العجول البعول، كما كانت قصة تحطيم موسى لألواح الشريعة رمزاً لانتهاه ديانتته وشريعته التي أسسها إخناتون، ثم مقتله في الخلاف المذهبي العظيم، الذي أدى إلى ارتداد هؤلاء عن ديانة آتون.

وسبق وأثبتنا أن هناك التقاءً قد حدث في أحد تلك المراحل بين الحمار «سيت» وبين «آتون»؛ حيث نجد الاسم آتون بعد ذلك لقباً ليهوه في الديانة اليهودية بمعنى السيد الرب، من الجذر «تون» أو «دون». ومنها دون كي Donkey، و«أتان» في العربية. كذلك يلتقي مع تقديس الفرس الأقدمين واليهود لجذوة نار مشتعلة داخل المعبد، لا ينبغي أن تنطفئ أبداً هي الأتون الناري، وتحمل في طياتها الأتون الأعظم الشمسي، تشبيهاً بالبركان الذي يقذف الحمم المشتعلة.

وفي قادش حيث استقر الخارجون من مصر حوالي ثمانية وثلاثين عاماً، ثم عقد اجتماع مصالحة بين كافة الفرقاء، تحزب فيه اللاويون لسيدهم القاتل. ومن هنا ظل اسم موسى وقصة تربيته بالبلاط المصري، بديلاً عن نبلة الوراثي المنسوب لإسرائيل. كما تم الاحتفاظ باسم الإله آتون كلقب ليهوه، فأصبح هو الأدون السيد. كما تمت الإشارة في هذا الاجتماع إلى اختيار إخناتون/موسى للإسرائيليين، في رمزية اختيار الرب يهوه لهذا الشعب، بعكس كل الشعوب التي تختار آلهتها. لذلك لم يفتأ الكتاب المقدس يردد نفية الشديد، أن يكون يهوه إلهاً أجنبياً على إسرائيل، بينما نعلم أن إله إسرائيل كان إيل السامي، وأن يهوه كان إلهاً من أصول كنعانية سيناوية، مدمجاً في سيت تيفون وبعل حداد صافون.

كما حافظ اللاويون في هذا الاجتماع على مجموعة التفاصيل، التي استخدمها بعد ذلك أنبياء اليهود للعودة إلى مفهوم الرب الجلاي الواحد، الذي أسَّسه موسى المصري، لكن بعد موته بقرون طوال.

ومن جانبنا نذكر هنا أن سبط أو بيت لاوي، يرتبط عندنا بالاسم في صيغته اليونانية «لايوس»، وهو بيت آمنحبت الثالث، أو بيت العمارنة في أخت آتون حسب نظريتنا.

ثم نقرأ بالمقدس التوراتي قصة اللحظة الأولى، لتحرك ركب الخارجين من مصر بقيادة موسى، فنجدّه يقول:

فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت (سكوت أول محطة في طريق الخروج بعد رعمسيس باتجاه سيناء، وقد سبق وحددناها بالقنطرة غرب اليوم/المؤلف)، نحو ستمائة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيفٌ كثير أيضًا مع غنمٍ وبقر، ومواشٍ وافرة جدًّا، وخبزوا العجين الذي أخرجوه من مصر خبز ملة فطيرًا؛ إذ كان لم يختمر؛ لأنهم طُردوا من مصر ولم يقدرُوا أن يتأخروا، فلم يصنعوا لأنفسهم زادًا. وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر، فكانت أربعمئة وثلاثين سنة، وكان عند نهاية أربعمئة وثلاثين سنة، في ذلك اليوم عينه، أن جميع أجناد الرب خرجت من أرض مصر. (خروج، ١٢: ٣٧-٤١)

وأبداً لا يمكن أن يعقل — كما أسلفنا القول — أن ينجب أربعة أجيال هذا العدد الهائل من الخارجين ٦٠٠٠٠ رجل عدا الأولاد. ويلاحظ هنا أنه لم يذكر نساءً، مما يشير إلى ندرة النساء مع الخارجين إلى حد إسقاطهم من تعدادات الخارجين، وهو الأمر الذي لا يفسره سوى الغزوة الهكسوسية الثانية، التي جاءت مصر حلفاً مع ملكها المخلوع وولده، ومن الطبيعي أن يكونوا من الرجال، مع القلة الإسرائيلية وبيوتهم وأولادهم، مع تلك الإشارة غير المفهومة إلى آخرين خرجوا مع الإسرائيليين، مر عليهم المحرر التوراتي سريعاً في فلاشٍ خاطف، في جملةٍ واحدة غامضة، لم تتكرر أبداً بعد ذلك تقول: «وصعد معهم لفيفٌ كثير أيضًا!»

فمن كان هؤلاء اللفيف؟ وهي الكلمة التي تحمل ذات المعنى، بذات التصويت في العربية والعبرية معاً.

نزعم هنا وننفرد بالقول إن هذا اللفيف كان إختاتون وأتباعه من كهنة وحاشية مصرية، وأنهم هم من صاروا بعد ذلك كهنة إسرائيل اللاويين حسبما نبهنا فرويد. وقد عمد المحرر التوراتي هنا إلى وضع الحقيقة الساطعة في لغة بلاغية تقلل من شأن هؤلاء، فهم مجرد لفيف انتهز الفرصة فخرج مع الخارجين. لكن الصيغة البلاغية هنا تضيء الموقف في حملها لأكثر من معنى؛ لأن «لفيف» هي من «ليفي» أو «لاوي»، في العبرية كما هي في العربية.

وننقب بالكتاب المقدس عن أي إشارات أخرى تدعم هذه الرؤية، عن أي إشارات ولو ضمنية لوجود مصري مع الخارجين من البدو الآسيويين الهكسوس، فنقف مع تلك الوفرة في الأغنام والبقر والمواشي مع الخارجين، التي تتناقض تناقضًا صارخًا مع الجوع الذي عاناه هؤلاء، إبان رحلة الخروج حتى أكلوا المن والسلوى. وهو الأمر الذي لا يفسره إلا قائد قد حرّم على أتباعه أكل الأغنام والبقر، أو أمرهم بصيامٍ عن اللحوم طويل الأمد. وهو أمرٌ كان معلومًا في ديانات المصريين الذين كانوا لا يأكلونها إلا في مناسبات طقسية بعينها، وكانوا يفضلون الطيور على لحوم السوائم في صيام طقسي طويل. ويبدو أنه كان أحد الجوانب الطقسية المصرية، التي أخذها إختاتون ودمجها بعقيدته الجديدة المزيج بين عقائد مصر القحة، وبين عقائد مديان بسيناء المصرية. وهو ما وصل إلى علم محرري المقدس التوراتي، عندما كان المحرر يروي مناظرات موسى مع الفرعون، حيث كان موسى يوهم الفرعون أنهم سيخرجون فقط لمدة ثلاثة أيام، ليذبحوا ذبائح لعيد ديني لهم بعيدًا عن المصريين، الذين يقدسون تلك الحيوانات، أو بالنص:

فدعا فرعون موسى وهارون وقال: اذهبوا اذبحوا لإلهكم في هذه الأرض، فقال موسى: لا يصلح أن نفعل هكذا؛ لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلها. إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا؟ نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلها كما يقول لنا.

(خروج، ٨: ٢٥-٢٧)

ونستمر في التنقيب نبحث عن إشارات أشد إفصاحًا، حتى نجد نصًا واضحًا فصيحًا، يقول الرب فيه لشعبه:

لا تكره مصرًا؛ لأنك كنت نزيلاً في أرضه، الأولاد الذين يولدون لهم في الجيل الثالث، يدخلون منهم في جماعة الرب.

(تثنية، ٢٣: ٧-٨)

إنها الإشارة الصريحة الوحيدة واليتيمة، التي تشير إلى وجود مصريين مع الخارجين، رغم أنهم كانوا القادة وأصحاب الفكر والكهنة، بل وأصحاب الديانة. وتتأكد بذلك رؤية فرويد النفاذة التي ألقاها على عجلٍ دون مؤيدات، يقول فيها: إن أتباع ديانة أتون كانوا هم مؤسسي ديانة إسرائيل وكهنتها، الذين عرفوا باسم اللاويين أو الليفيين، وتم إدراجهم بين أسباط إسرائيل، باعتبارهم البيت الذي أنجب عمران/العمارنة، ومنهم كان موسى قائد الخروج.

ويزداد الفرض رسوخاً عندما نقرأ المقدس، فنعلم أن هؤلاء اللفيف الذين أشار إليهم المقدس تلك الإشارة العابرة، كانوا كثرةً عديدة أكثر من مجرد تعبير «لفيف كثير»؛ لأن اللاويين كما قرر المقدس نفسه، كانوا اثنين وعشرين ألفاً (انظر سفر العدد، ٣-٣٩). وقد تم هذا التحديد بعد عملية التعداد، التي أمر بها موسى للخارجين في سيناء، لكنه عدّهم وحدهم دون بني إسرائيل، بناءً على ما زعمه المحرر التوراتي أمراً إلهياً يقول:

أما سبط لاوي؛ فلا تحسبه ولا تعدّه بين بني إسرائيل.

(عدد، ١: ٤٩)

وهو ما يعني أن اللاويين الكهنة وأصحاب الفكرة والديانة، لم يكونوا أبداً إسرائيليين، وبكل الدأب تملّكتنا الرغبة في الحصول على مزيدٍ مما يؤيد رأينا، فوجدنا أن المحرر التوراتي كان يعلم أصل هؤلاء يقيناً، فكان يحذر دوماً قائلاً:

واللاوي الذي في أبوابكم ليس له قسم ولا نصيب معكم.

(تثنية، ١٢: ١٢)

وتعبير [الذي في أبوابكم] يفصح عن أكثر من معنى، فهو يشير إلى تماس اللاوي مع الإسرائيليين من خارج، كما يحمل أيضاً معنى القيادة؛ فباب المنزل هو سيده، وعتبة

المنزل هي سيدته. ثم نتابعه فنسمع الرب يحذر شعبه من كهنته (!؟)، نعم يحذر شعبه من اللاويين ويقول لشعبه المختار:

احترز من أن تترك اللاوي كل أيامك على أرضك.

(تنثية، ١٢-١٩)

لا يكون للكهنة اللاويين — كل سبط لاوي — قسم ولا نصيب مع إسرائيل، يأكلون وقائد الرب ونصيبه [يعني الكهانة فقط / المؤلف]: فلا يكون له نصيب في وسط إخوته، الرب هو نصيبه كما قال له.

(تنثية، ١٨: ٢-١)

ويبدو لنا أن وجود هذا العدد من المصريين، الذين كانوا لا شك حاشية إخناتون المصرية ورجال عسكره، وسبق وعلمنا أنه كان قد جعل من مدينته أخت آتون ثكنة عسكرية كبرى، وأنهم خرجوا معه مؤمنين به وبدعوته. إن هؤلاء مع قائدهم كانوا وراء تحريم ذبح البقر. وهو ما لم يحتمله أهل البداوة والرعي ومعتدمهم في الطعام على اللحم، وهو ما يفسر لنا فتنة العجل الذهبي بسيناء، التي كانت في رأينا ترميزاً دالاً على انتهاء الآتونية، والعودة إلى عبادة العجول وأكلها بذبحها طقسياً، بل على موت صاحب الدعوة ذاته قتيلاً، كما ذهب سيللين وفرويد. ويبدو أن ذبح البقرة في المقدس الإسرائيلي كان ترميزاً لكيانٍ قدسي، ترميزاً لقتل موسى. وتبدأ الفتنة مع غياب موسى عن شعبه على جبل الشريعة، حيث صعد ليأتي لهم بالواح الشريعة من الله الذي:

أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء ... لوحين حجر مكتوبين بإصبع الله.

(خروج، ٣١-١٨)

وقد بدأت الفتنة فيما تروي التوراة، عند تلك اللحظة عند الجبل المقدس، فهي تقول:

ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أضعفنا

من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلًا مسبوگًا. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر ... وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب ... فانصرف موسى ونزل من الجبل ... وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه، فقال لموسى: صوت قتال في المحلة، فقال ... بل صوت غناء أنا سامع، وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص، فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه، وكسرهما أسفل الجبل ... ولما رأى موسى الشعب أنه معرّى ... وقف موسى في باب المحلة وقال: من للرب فأليّ، فاجتمع إليه جميع بني لاوي، فقال لهم: هكذا قال الرب إله إسرائيل: ضعوا كل واحد سيفه على فخذه، ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة، واقتلوا كل واحد أخاه، وكل واحد صاحبه، وكل واحد قريبه ... وقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل ... فضرب الرب الشعب؛ لأنهم عبدوا العجل الذي صنعه هارون.

(خروج، ٣٢ من ٣٥: ١)

أول ملحوظة هنا هي التحدث عن موسى، كما لو كان شخصًا لا علاقة لهم به، يعرفونه وليس منهم، بل يبدو كما لو كان على غير علاقةٍ قرابية بهارون المفترض أنه أخوه، «لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من مصر»، ثم عودة هارون بهم بدعوةٍ منه إلى العودة لعبادة الثور. ثم كيف نادى موسى رجاله الموثوقين «اللاويين» تحديدًا، دون كل هذا الحشد من الخارجين، وتحزب مع اللاويين وبدأت معركة طاحنة بين الطرفين «واقتلوا كل واحد أخاه».

والتوراة تؤكد أن موسى ظل على قيادة بني إسرائيل، إلى أن وصلوا إلى شرقي الأردن، وصعدوا إلى جبل نبو، ومن هناك رأى أريحا في غربي الأردن وبقية الأرض الموعودة، وأنه قد مات هناك.

وفي موت موسى تروي التوراة، أنه عندما وصل بالخارجين إلى شرقي الأردن:

كلم الرب موسى في نفس ذلك اليوم قائلاً: اصعد إلى جبل عباريم، هذا جبل نبو الذي في أرض موآب الذي قبالة أريحا، وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها

لبني إسرائيل ملكًا، ومت في الجبل الذي تصعد إليه، وانضم إلى قومك كما مات هارون أخوك في جبل هور وضم إلى قومه؛ لأنكما خنتما في وسط بني إسرائيل، عند ماء مريبة قادش في برية صين؛ إذ لم تقدساني في وسط بني إسرائيل، فإنك تنظر الأرض من قبلتها، ولكنك لا تدخل إلى هناك، إلى الأرض التي أنا أعطيها إلى بني إسرائيل.

(تثنية، ٣٢: ٤٨-٥٢)

وخلف موسى على قيادة بني إسرائيل تلميذه يشوع بأمر من موسى ومن ربه: ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة؛ إذ وضع موسى عليه يديه، فسمع له بنو إسرائيل، وعملوا كما أوصى الرب موسى.

(تثنية، ٣٤-٩)

ومن ثم أصبح يشوع هو قائد الخروج والعبور من الأردن إلى أريحا وأرض الميعاد. وكان بعد موت موسى عبد الرب، أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبّر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض، التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى.

(يشوع، ١: ١-٣)

هذا ما روته التوراة عن موت موسى، لكننا من جانبنا قد جمعنا من القرائن ما يكفي، للتدليل على أن موسى المصري أبدًا لم يغادر سيناء، وأنه قتل عند جبل الإله حور المقدس (حوريب/ جبل سيناء/ جبل الشريعة) إِبَّانَ فتنة العجل الذهبي، وأنه بموته هناك انتهى إخناتون وانتهت ديانته الآتوية، وتم وصم موسى من قبل يهوه بخيانته له، وبدأت قصة موسى الوهمي التوراتي كمرحلة جديدة، هي التي شكلت فيما بعد الديانة اليهودية، وهو الأمر الذي سندلل عليه الآن.

لا يغيب على فطن كقريئة أولى تحطُّم ألواح الشريعة عند سفح جبل الإله حور، كرمز لنهاية العقيدة الآتوية ونهاية صاحبها. وعبئًا نحاول البحث عن تلك الخيانة التي

قام بها موسى وهارون لربهما، والتي أدت إلى اتخاذ قرار قتلهما. والطريف أن التوراة تؤكد أن الله هو الذي أمات موسى بنفسه، وقام بدفنه في جبل نبو بنفسه، والموت الطبيعي لا حاجة أبدًا لتبريره، لكن عندما تصر التوراة على التبرير، فعلينا البحث عن سبب خفي، وهو ما يبدو في إخفائها اسم القاتل الحقيقي ونسبته إلى الله.

وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان، وجميع نفتالي وأرض إفرايم ومنسى وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي، والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر. وقال له الرب هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلًا لنسلك أعطيها، قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر، فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض موآب.

(تثنية، ٣٤: ١-٦)

والحالة الوحيدة التي غاب فيها موسى عن بني إسرائيل برفقة شخص يحتمل أنه كان القاتل، هي حالة جبل حوريب بسيناء، عندما صعد بزعم إحضار ألواح الشريعة، وكان رفيقه يشوع ابن نون وهو شخصية دموية، تفصح بدمويتها كل أسفار التوراة أينما ذكرته.

وأبدًا لم يكن إخناتون رجل حروب ودمار رغم ترسانته العسكرية، وما دخلها مرة إلا مكرها؛ المرة الأولى لاستعادة عرشه له ولابنه سمنخ كا رع أو بولينكيس، واستعان فيها بأحلاف الهكسوس، وكانت عاصمتهم حينذاك أورشليم حسبما أخبرنا يوسفوس. والمرة الثانية عند خروج موسى مع رجاله إلى سيناء، عندما هاجمه فرع عماليقي في رفيديم، فلم يشترك في القتال حسب رواية التوراة، إنما صعد إلى تل عالٍ يشرف على المعركة، يطلب معونة ربه برفع يده نحو السماء؛ لذلك كان غريبًا أن يأمر اللاويين بقتال أصحاب فتنة العجل الذهبي. لقد حدثت الفتنة عبر شخصين، الأول هارون الذي صنع العجل، والثاني يشوع الذي صعد مع موسى إلى الجبل، وبينما هارون يعلن خلع موسى وآتون بين الأتباع أسفل الجبل، كان يشوع يقتل موسى فوق الجبل، وكان محالًا أن يقوم اللاويون المنبوزون حسب نصوص المقدس، بعملية قتل للشق الهكسوسي العظيم العدد، بل يبدو أن ما حدث كان على العكس تمامًا، فما إن عاد يشوع من الجبل، حتى تمت

إبادة أكبر عدد ممكن من المصريين، على يد الهكسوس اليهوديين عند سفوح جبل حور المقدس.

والمعلوم أن عادة الختان عادة مصرية أصيلة قديمة أخذها عنهم الإسرائيليون والساميون عمومًا، ونسبها الإسرائيليون إلى آبائهم الأوائل زمن إبراهيم ١٧٠٠ ق.م. تقريبًا، بينما مصر تعرفها من فجر تاريخها قبل ثلاثة آلاف عام أو أكثر قبل الميلاد. وتشير التوراة إلى أن الخارجين من مصر كانوا مختونين جميعًا، لكن التوراة تفاجئنا عند استلام يشوع القيادة بعد موت موسى، أن من معه جميعًا كانوا غلفًا غير مختونين، ووجد يشوع أن ذلك قد يؤدي إلى هزيمتهم عند الهجوم على أرض فلسطين. فأمر جميع أتباعه بالختان على الطريقة المصرية بالصوان، أو بالنص «في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان، وعد فاختن بني إسرائيل ثانية، فصنع يشوع سكاكين صوان، وختن بني إسرائيل في تل القلف». وهذا هو سبب ختن يشوع إياهم: إن جميع الشعب الخارجين من مصر الذكور، جميع رجال الحرب ماتوا في البرية على الطريق بخروجه من مصر؛ لأن جميع الشعب الذين خرجوا كانوا مختونين، وأما جميع الشعب الذين وُلدوا في القفر على الطريق بخروجهم من مصر فلم يختنوا؛ لأن بني إسرائيل ساروا أربعين سنة في القفر، حتى فني جميع الشعب رجال الحرب الخارجين من مصر، الذين لم يسمعوا لقول الرب الذين حلف الرب لهم، أنه لا يريهم الأرض التي حلف الرب لآبائهم أن يعطيها إياها، الأرض التي تفيض لبنًا وعسلًا، أما بنوهم فأقامهم مكانهم فإياهم ختن يشوع؛ لأنهم كانوا قلفًا؛ إذ لم يختنهم في الطريق» (يشوع، ٥: ٢-٧).

ولا معنى لهذا الكلام سوى إبادة جماعية، تمت للمصريين مع زعيمهم في فتنة العجل الذهبي، للتخلص من تلك السيادة المصرية، وهو ما يؤكد استكمال قراءة ذلك الإصحاح في سفر يشوع، إذ يقول:

وقال الرب ليشوع: اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر.

(يشوع، ٥: ٩)

ألا يعني ذلك التخلص من كل ما أمكن التخلص منه من أثر فكري مصري، ومن الأشخاص أصحاب هذا الفكر؟

وعند هذه النقطة يظهر دون سبب واضح ولا هدف، الأمر بصناعة تابوت يحمله الخارجون معهم، بزعم أن الرب سيستلقي بداخله ليحملوه معهم في ترحالهم (!؟)

قرر رب الجبل الهائم المدموم أن يترك مقره السينائي العظيم، ليثوي في تابوتٍ يحمله الإسرائيليون في رحلتهم. لقد أمموه وأخذوه من سيناء معهم، لكن لماذا اختار تابوت بالذات، ونحن نعلم أن التابوت شيء خاص بالموتى لا بالأحياء، فما بالك بإله؟ ثم لماذا يطلب الإله في هذه اللحظة تابوتًا، بينما كان يسير أمام شعبه، وخلفهم يحرسهم في شكل أعمدة من سحابٍ وأعمدة من نار، وينزل سخطه على أعدائهم في شكلٍ كلي القدرة، هائل الرغبة في سفك الدماء. لماذا فجأة وفي تلك اللحظة تحديدًا، وفي ذلك المكان تحديدًا، يطلب هذا الإله صناعة تابوت له، ينام فيه ليحمله معهم، فيكون معهم حيثما حلوا وارتحلوا؟ وبطول الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج، توضع مواصفات هذا التابوت التي تفاجئك بصيغتها المصرية، لتواييت الملوك الفراعنة تحديدًا وبالذات، مع ملاحظة أنه ليس كتواييت أفراد الشعب المصري المعروفة، بل تابوتٌ ملكيٌّ كامل المواصفات، يشكل معدن الذهب فيه الجانب الأعظم:

فيصنعون تابوتًا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف، وتغشيه بذهب نقي، من داخل ومن خارج تغشيه، وتضع عليه إكليلاً من ذهب حواليه، وتسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمها الأربعة ... وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب، وتدخل العصوين في الحلقات على جانبي التابوت ليحمل التابوت بهما ... وتصنع غطاء من ذهبٍ نقي طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وتصنع كرويين من ذهب صنعة خراطة، تصنعهما على طرفي الغطاء، فاصنع كرويًا واحدًا على الطرف من هناك، وكرويًا على الطرف من هناك ... ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء.

(خروج، ٢٥: ١-٢٠)

وفي أسطورة أوديب، يتحوّل الملك أوديب من ملكٍ خاطئٍ مخلوعٍ إلى رجلٍ مبارك (نبيًا)، ويتسابق الملوك لدعوته إلى ممالكهم، لكنه يصر على البقاء في كولونس في جبل كيثابرون، الذي طابقناه بجبل كاترين، وهو الاسم الحديث لجبل الله حور أو حوريب. وتجمع الروايات على أنه كان يجلس يومًا في هذا الجبل، فسمع صوتًا يناديه من السماء، ارتفع على إثره نحو السماء واختفى عن الأنظار، وقيل إن ربّات الرحمة رفعتة إلى السماء، لتعوضه عما لاقاه من عذابٍ في الأرض، وكانت تلك هي رواية سوفوكليس في أوديب ملكًا.

لكن هوميرس يذكر من جانبه نهاية مختلفة لحياته، وهي «أنه قتل في معركة وانتهت حياته بالعنف، ودُفن جثمانه بعد أن وُسِد في تابوت، وتُليت عليه المراسم الجنازية»^١ ومن جانبه يطرح أحمد عثمان^٢ ذات التساؤلات المستريبة، فيقول: «وليس من الواضح لماذا غضب الرب على موسى؟! وكانت النتيجة أن الرب منع موسى من دخول أرض كنعان مع بني إسرائيل وأماته ... وبعد أن أعطى موسى بركته إلى بني إسرائيل، صعد الجبل ونظر عبر الأردن إلى كنعان، ثم مات هناك ودفنه الرب في قبر ليس له علامة ... ويحتوي التلمود على رواية تختلف عن ذلك بخصوص الطريقة التي مات بها موسى، فهي تقول إن موسى تصارع مع خصمه فوق الجبل قبل أن يموت، وهي تسمى هذا الخصم ملاك الموت. وهذا هو الذي جعل باحث التوراة الألماني إرنست سيللين يقول: إن موسى مات مقتولاً».

وفي الرواية الإسلامية تقول الآيات:

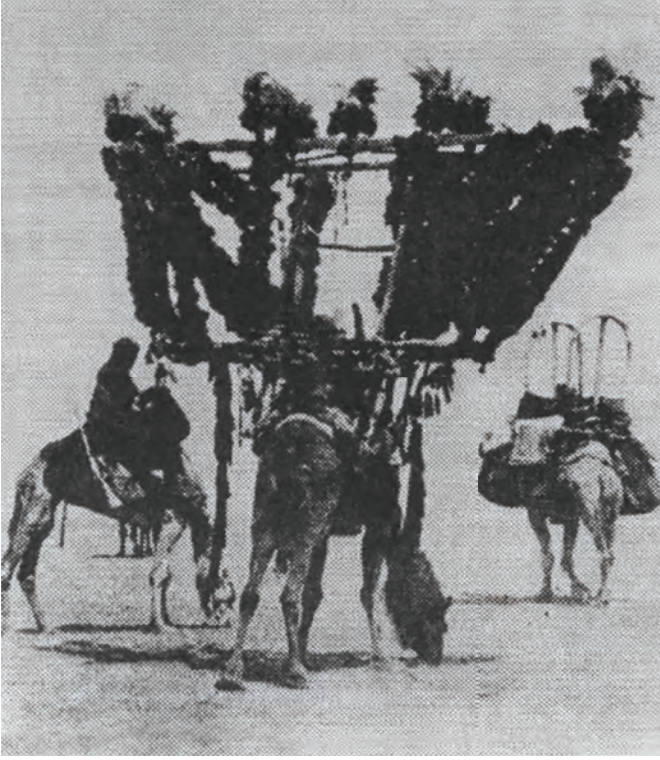
﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ، وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضَعِفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٨).

ويعقب ابن كثير في شروحه: «لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل، كما قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾»^٣، ولم ينف القرآن الكريم موضوع التابوت، بل أكدته قائلًا: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٤٨)، كذلك وافقت الروايات الإسلامية قصة صراع موسى مع خصمه قبل قتله، لكنها كالتلمود قالت إن القاتل كان الملاك عزرائيل ملك الموت. ويحكي ابن كثير رواية عن ذكرى باهتة لقلع العيون، لكنه قال إن العيون المقلوعة كانت لعزرائيل ملاك الموت، وإن من قلعها

^١ الشعراوي، أساطير ... سبق ذكره، ص ٢٦.

^٢ أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ١.

^٣ ابن كثير، البداية ... سبق ذكره، ج ١، ص ٢٦٩.



شكل رقم «٢٣٩»: ما زالت قبائل البدو تحمل فوق جملها القائد سر القبيلة، أو رمز سلفها في شكل هودج يسمونه مركب إسماعيل، وهنا نموذج قائد قطيع قبيلة الروالة.

كان موسى إبَّان صراعه معه قبل موته،^٤ بل ويشير إلى اتهام يشوع بذلك القتل بشكلٍ سافر ومباشر، وذلك في قوله: «ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه، إذ أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسى وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله، فاستل موسى عليه السلام من تحت القميص وترك

^٤ نفسه، ص ٢٩٥، ٢٩٦.

القميمص في يدي يوشع، فلما جاء يوشع بالقميمص آخذته بني إسرائيل، وقالوا: قتلنا نبي الله؟ فقال لا والله ما قتلته، لكنه استل مني»^٥

وفي روايات يونانية أخرى نجدها تشير إلى أن أوديب ظل بعد موته روحًا هائمة تنتقل مرتحلة من مكان إلى مكان، وهو ما نظنه قد حدث بتوسيد موسى/أوديب/إخناتون في التابوت بعد مقتله، وحمله معه في شكل قيادة رمزية عبر ارتحالات طويلة، انتهت بالوصول إلى جبل نبو على مشارف كنعان الشرقية.

لقد كانت فتنة العجل الذهبي النهائية المنطقية والعاجلة لتحالف مؤقت بين فرقاء متناقضين، إخناتون وعقيدته الآتونية وأتباعه من مصريين، والبدو الأسرى في حواريهم وهم من عرفوا باسم بني إسرائيل، وعلى الطرف الآخر يهوديين هكسوس طردوا من مصر وسكنوا أورشليم، وعادوا إليها في غزوة ثانية تحالفًا مع ملكها المخلوع. كانت الأطراف شديدة التناقض بين فرعون يمجّد ربًا واحدًا هو الشمس آتون، وبين مجموعات بدوية دموية همجية تعبد عددًا من الآلهة تتمثل في تجليات مختلفة، أظهرها كان دومًا العجل أو الثور. أما رمزه فهو القرون أو الهلال، فكانوا قمرين لا شمسين. ولا مفر من الاعتراف بردة بعض المصريين من الخارجين في قسوة الصحراء، وحاجتهم إلى البروتين الحيواني، أو استسلامًا لسيادة العدد الغفير والقوي. وربما كان ذلك العجل قد اتفق عليه من قبل البدو عباد البعل العجل، وبين هؤلاء المصريين الذين كانوا يعبدون قبل آتون تجليات إلهية أبرزها عجل أبيس، ولكن عجل أبيس كان يضع بين قرنيه الشمس، إلا أن إيريك هورنونج يعيد الأمر إلى نصابه، ويقول عن هذا القرص إنه «قد فسر مؤخرًا على أنه قرص قمري»^٦.

ثم يؤكد أن العجل الذهبي كان بدوره طقسًا مصريًا، ما وجدناه عند سليم حسن وهو يقول: إن الإله أتم، كان يتم تمثيله في هيئة عجل من الذهب الخالص^٧. ولم يبق من تأثيرات الآتونية في صلب العقائد اليهودية، إلا ما كان لهم في بلاد مديان، من عقائد متمثلة في إنكار البعث والخلود، حيث أبدًا لم يقل إخناتون بعالم خالد فيه

^٥ نفسه، ص ٢٩٧.

^٦ إيريك هورنونج، ديانة ... سبق ذكره، ص ٢٧٥.

^٧ سليم حسن، مصر القديمة ... سبق ذكره، ج ١، ص ١٩٨، ١٩٩.

بعث وحساب وعقاب وخالف جميع المصريين، وقد قلنا إنه جاء بها من مديان المصرية، وجل ما كان يدعو به العابد ربه آتون: فلتضمن لي حياةً طويلة وسعيدة.^٨ وهو ذات المبدأ التوراتي نصاً ومعنى، الذي ظل سائداً حتى العهود المتأخرة، لتظهر تدريجياً مع أنبياء العهد الأخير، قبل الميلاد بقرنٍ أو قرنين من الزمان، فكرة عالم آخر هو عالم الخلود.

ويؤكد لنا عبد المنعم أبو بكر أن إخناتون نجح في تحريم ديانة أوزيريس، التي تقول بالبعث والحساب والخلود: «وهكذا نجح إخناتون في تحريم ديانة أوزيريس، بل لم يحدث أن ذكر اسمه في نقشٍ من النقوش، التي وردت على جدران مقابر العمارنة، بل لم تعد الصلوات الجنائزية توجه إلى آلهة العالم السفلي ... لكنها كانت ترفع إلى إخناتون رأساً».^٩

«ويستفاد مما ذكره استرابو عن الأنباط، أنهم كانوا لا يحفلون شيئاً بأمر الموتى؛ إذ يقول في هذا الصدد: ونظرتهم إلى الموتى كنظرتهم إلى الروث؛ لهذا فإنهم يدفنون الموتى حتى الملوك منهم إلى جانب أكوام القمامة».^{١٠} ثم أبداً لا نجد تفسيراً لذلك العداء الهائل والعظيم، الذي تموج به التوراة ضد العماليق، سوى أنه أثر مصري بقي صدها ذكرى، تردد كراهية المصريين للهكسوس، وليس كراهية الإسرائيليين للعمالقة. وقد ظل أمر التشدد التوراتي في كراهية العماليق، مثار دهشة شديدة لدى الباحثين حتى الآن؛ لعدم وجود مبرر واضح له، لكنه لو كان كراهية مصرية من المصريين الخارجين للمحتلين البرابرة، فإن الأمر يصبح واضحاً ومنطقياً.

ولا نجد تفسيراً للقول بخيانة موسى للرب، سوى أنها وجهة نظر المنتصر في الصراع الذي نشب عند جبل حور المقدس، التي أرادت أن تجد تبريراً لقتل موسى/إخناتون، ونهاية المصرية وبداية اليهودية المستترة، وفيما بعد سنجد الإسرائيليين ينسون تماماً جبل حور المقدس في سيناء، حيث كان الأتون المصري، ويبدؤون في تقديس موضع آخر، هو عاصمة الهكسوس/الخابيرو/يهوذا (أورشليم)، وعلى جبل صهيون يقيمون هيكلمهم

^٨ أبو بكر، إخناتون ... سبق ذكره، ص ٩١.

^٩ نفسه، ص ٩٠، ٩١.

^{١٠} إحسان عباس، تاريخ ... سبق ذكره، ص ١٢٣.

ويضعون فيه تابوتاً لا أشك أنه كان يحمل رفات الفرعون إخناتون، وحيث يعتقد أنه الممكن الأزلي ليهوه.

نحن إذن نقول بوضوح: إن الكامن في التابوت بوصفه الرب يهوه (الكائن الذي لا اسم له)، كان هو إخناتون بذاته بعد موته، وفي حياته كان إخناتون في نظر أتباعه إلهاً ونبياً في آنٍ معاً. وإذا كان ليهوه اسم خفي لا يمكن معرفته، فكذلك كان إخناتون، فبعد سقوطه عن العرش أصبح لا اسم له، أصبح كائناً دون اسم حسب الشريعة المصرية.^{١١} أصبح فعل كينونة فقط To be، وهو ذات اسم يهوه. وعلينا أن نلاحظ أن أم موسى في التوراة، عندما ولدته لم تعطه اسماً، واسمه فقط هو وصف لحالته التي وجدته عليها ابنة الفرعون (ابن الماء/موسى). أما كمال الصليبي فقد اكتشف من جانبه، أن موسى كان مرة نبياً ومرة إلهاً، وهو ما كانه إخناتون.

وانتصر سيت/يهوه، واختفى آتون ولم يبقَ له من ظلٍ سوى لقب يطلق على يهوه، يخاطبه به اليهود العابدي «آدوناي»: يا ربي أو يا سيدي.

ويخبرنا أحمد عثمان عن وجود دلالات واضحة في منطقة سراييط الخادم بسيناء، تؤكد استمرار عبادة الإله آتون زمنًا بعد انتهائها في وادي النيل.^{١٢} وغني عن التذكير أن إخناتون وأوديب، نُسبت لهما مُدَّتَا حكم مختلفة ١٦ سنة و ٢٠ سنة. وبينهما فارق ٤ سنوات أضافته الأسطورة اليونانية لمدة حكم إخناتون وهو ١٦ سنة. وهي عندنا السنوات الأربع التي قضاها إخناتون ملجأً منفياً في حواريس، حتى وقت الخروج النهائي من مصر، بعد المعركة التي قُتل فيها الصبيان سمنخ كارع وتوت عنخ آمون، وهزمت الغزوة الهكسوسية الثانية. ونلاحظ بالكتاب المقدس اختفاء ذكر ألعازر وجرشوم، ابني موسى تماماً بعد عبور جبل سيناء، دون أي توضيح من جانب التوراة لسر هذا الاختفاء الذي أوضحته لنا أسطورة أوديب فيما حفظته من ذكريات عما وقع من أحداث، حيث أكدت مقتل الملكين الصبيين.

ومن جانبه يحيطنا المصروولوجيست هنري بروغش، أن جماعات كانت تعيش في شرقي دلتا مصر زمن الخروج، واحتسبهم جماعات فينيقية، قرأ الاسم الدال عليهم

^{١١} جريفت، الانقلاب الديني ... سبق ذكره، ص ٤٢.

^{١٢} أحمد عثمان، تاريخ ... سبق ذكره، ج ٢، ص ٦٠.

«الخالو»،^{١٣} والتي نراها بالقراءة السليمة «أخلامو» أي الأحلاف، وأن هؤلاء الخالو في رأي بروغش، خرجوا مع الخارجين تحت عنوان «اللفيف» الوارد بالتوراة. وهم برأينا كانوا الهجمة الهكسوسية الثانية. أما اللفيف فكان إخناتون وحاشيته المصرية والمديانية.



شكل رقم «٢٤٠»: الموكب الجنائزي في قاعة دفن توت عنخ آمون (الkehنة يسحبون التابوت).

ويقول سيجموند فرويد: إن دخول بني إسرائيل إلى مصر لم يشملهم جميعاً، فهناك قسم من الأسباط دخل مصر، وقسم منهم لم يدخلها وبقي في مواضعه التاريخية بفلسطين، ويرى أن من بقي مقيماً بفلسطين، ولم يدخل مصر، أولئك الذين استقروا شمالي فلسطين، وهم من استقلوا بعد ذلك عن المملكة الموحدة بعد موت سليمان، وأقاموا هناك دولة إسرائيل الشمالية. أما الذين دخلوا مصر وخرجوا منها فقد استقروا جنوبي فلسطين، وهم من شكلوا عند انقسام دولة سليمان، دولة يهوذا الجنوبية، والمعنى أن الذين لم يدخلوا مصر أبداً، هم من شكلوا دولة إسرائيل الشمالية، بينما شكل الخارجون من مصر دولة يهوذا الجنوبية.

وهنا نختلف مع فرويد اختلافاً تاماً، وعلى العكس تماماً مما قال، وذلك في ضوء سيناريو الأحداث الذي رسمناه حتى الآن، لأسبابٍ عديدة ستقودنا إلى محاولة رسم طريق الخروج من مصر إلى فلسطين.

^{١٣} الخشبة، رحلة ... سبق ذكره، ص ٢٢٨، ٢٤٨.



شكل رقم «٢٤١»: الإلهات الحامية للتوابيت المصرية، والتي اقتبسها التابوت اليهودي، وأطلق عليها الاسم (كرويين).

السبب الأول والأوضح أن النصف الشمالي أو مملكة إسرائيل كانت تموج بعباداتٍ خصيبة عديدة، تلتقي تمامًا مع العبادات المصرية؛ مما يشير إلى تأثرٍ شديد بمصر، خاصة عبادة العجل أبيس ومراكب الشمس، وغيرها من ظواهر العبادة الخصيبة، التي استمرت حتى أيام المسيح، وكان تأثيرها في المسيحية شديد الوضوح، حتى كادت المسيحية تكون نسخة أخرى معدلة تعديلاً طفيفاً لعقائد الخصب المصرية، المرتبطة بالإله أو وزير رب الخضرة والخصب. بينما كان النصف الجنوبي (مملكة يهوذا) أقرب إلى البداوة، وقامت به عدة حركات إصلاحية للتخلص من الآثار المصرية على التوالي. والسبب الثاني أننا نعرف من مانيتون ويوسفوس أن الهكسوس، عندما طردوا من مصر أمام جيوش

أحمس قائد التحرير، قد اتخذوا طريق حورس الحربي الشمالي المحاذي للبحر المتوسط حتى وصلوا شاروهين، وحاصر أحمس شاروهين ثلاث سنوات، وانتهى الأمر بخروجهم من شاروهين إلى جنوبي فلسطين، أو ما يشكل المملكة الجنوبية التي عُرفت بعد ذلك باسم يهوذا، وأنهم هم من أقام هناك مدينة أورشليم. بينما يشير الكتاب المقدس إلى أن الخروج الإسرائيلي قد اتخذ طريقاً آخر، اندفع نحو جنوب سيناء، نحو الجبل المقدس حوريب/كاثرين، ثم اتخذ ساحل العقبة الغربي، وعبر من شماله عند إيلات وعصيون جابر جنوبي أدوم، ليقوم بالتحفة كبرى عبر البادية الأردنية الآن، لينتهي عند رأس البحر الميت شرقي نهر الأردن. ومن هناك تم غزو الشمال الفلسطيني بعد عبور الأردن عند أريحا من شرقه إلى غربه.

وهكذا نجد أن الذين خرجوا من مصر متأثرين بثقافتها هم من استقروا شمالاً. أما يهوذا أو العبيرو أو الهكسوس هم من استقروا جنوباً، وبعد موت سليمان أقام الشماليون مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأقام الجنوبيون مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم.

المصادر

الكتب الموسوعية

- (١) القرآن الكريم.
- (٢) الكتاب المقدس بشقَّيه العهد القديم والعهد الجديد، الترجمة العربية الصادرة عن الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.
- (٣) قاموس الكتاب المقدس.
- (٤) الموسوعة العربية الميسرة.
- (٥) دائرة المعارف البريطانية.
- (٦) معجم فولكنر.
- (٧) معجم أوكسفورد.
- (٨) معجم بدج.
- (٩) موسوعة تاريخ العالم، وليم لانجر رئيسًا للجنة علماء متخصصين، أشرف على مجموعة المترجمين العرب د. مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، د. ت.
- (١٠) الموسوعة الأثرية العالمية.

لم تتم الإشارة في الهوامش إلى تلك المصادر وأرقام الصفحات، حيث يتم الرجوع إليها حسب الأصول المرعية للبحث في الموسوعات والمعاجم، حسب مادة المعلومة.

المصادر العربية والمترجمة إلى العربية

أ

- (١) الأثير (ابن)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، د.ت، مطبعة الشعب، القاهرة.
- (٢) إرمان (أدولف)، ديانة مصر القديمة، ترجمة د. محمد عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري، نشر مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.
- (٣) آلدريد (سيرل)، إخناتون، ترجمة د. أحمد زهير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
- (٤) أنتاديوب (شيخ)، الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة، ١٩٩٥م.
- (٥) أورسيوس (هروشيوش)، تاريخ العالم، الترجمة العربية التي تمت في منتصف القرن الرابع الهجري، تحقيق وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م.
- (٦) إيفانز (أ. ج)، هيرودت، ترجمة أمين سلامة، الدار القومية، القاهرة، د. ت.

ب

- (٧) بافقيه (محمد عبد القادر)، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٩م.

- (٨) باقر (د. طه)، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الشئون الثقافية العامة بوزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٦م.
- (٩) برستد (جيمس هنري)، فجر الضمير، ترجمة سليم حسن مكتبة مصر، القاهرة.
- (١٠) أبو بكر (د. عبد المنعم)، إخناتون، المكتبة الثقافية، القاهرة، عدد ٢٥.
- (١١) بكر (د. محمد إبراهيم)، صفحات مشرقة من تاريخ مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ط ٢.
- (١٢) بلوتارك، إيزيس وأوزيريس، ترجمة حسن بكري ومحمد خفاجي، دار القلم، القاهرة، د.ت.
- (١٣) البهيتي (محمد نجيب)، المعلقة العربية الأولى، عند جذور التاريخ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨١م، جزءان.
- (١٤) بهنسي (د. عفيف)، إيبلا والتوراة، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، عدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨م.
- (١٥) بوابة مصر الشرقية (الإسماعيلية)، مجموعة من الباحثين، لجنة صياغة التاريخ بالحزب الوطني الديمقراطي بالإسماعيلية، مطبعة الفجر، الإسماعيلية، ١٩٩٠م.

ت

- (١٦) تشيرني (ياروسلاف)، الديانة المصرية القديمة، ترجمة (د. أحمد قدرى)، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- (١٧) توفيق (د. سيد)، إخناتون أول الموحدين، فكر للدراسات والأبحاث، العدد ٩، القاهرة، ١٩٨٦م.

ث

- (١٨) الثقافة العالمية (مجلة)، الكويت، عدد ٥٥ نوفمبر ١٩٩٢م.

ج

- (١٩) جاردنر (آلن)، مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م.

- (٢٠) جارستانج، إمبراطورية الحيثيين، ترجمة دريني خشبة، المجلد الثاني، ضمن العمل الموسوعي (تاريخ العالم)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة د. ت.
- (٢١) جارودي (روجيه)، فلسطين أرض الرسالات الإلهية.
- (٢٢) جرنى (أ.ر)، الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر، مطبوعات البلاغ، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (٢٣) جريفث (ليوولين)، الانقلاب الديني في مصر، ترجمة عبد الرحمن صدقي ودريني خشبة، النهضة المصرية القاهرة، المجلد الثاني من تاريخ العالم، د. ت.

ح

- (٢٤) حتى (فيليب)، تاريخ العرب، دار الكشف، بيروت، ١٩٦٥م.
- (٢٥) حداد ومجاصص (د. حسني وسليم)، بعل هداد، دار أمواج، ١٩٦٥م.
- (٢٦) حسن (د. سليم)، أقسام مصر الجغرافية في العهد الفرعوني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٤م.
- (٢٧) حسن (د. سليم)، مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.
- (٢٨) حسن (د. سليم)، الأدب المصري القديم، مطبوعات كتاب اليوم (جزءان)، مؤسسة أخبار اليوم العددان ٢، ٣، ديسمبر ١٩٩٠م، القاهرة.
- (٢٩) الحلبي (برهان الدين)، السيرة الحلبيية في سيرة الأمين والمأمون إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ٤ أجزاء.
- (٣٠) حماد (د. محمد)، كامس، دار الجيل للطباعة مع دار المطبوعات المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
- (٣١) حمدان (جمال)، شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان، الناشر عالم الكتب، دار نافع للطباعة، ٤ أجزاء.

خ

- (٣٢) الخشاب (د. عبد المحسن)، تاريخ اليهود القديم في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٩م.

- (٣٣) الخشبة (غطاس عبد الملك)، رحلة بني إسرائيل إلى مصر الفرعونية والخروج، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- (٣٤) خشيم (د. علي فهمي)، آلهة مصر العربية، دار الآفاق الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٠ م، جزءان.
- (٣٥) الخير (عز الدين)، أضواء عربية في الأسطورة الإغريقية، مجلة المعرفة، بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق عدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨ م.
- (٣٦) دوماس (فرانسوا)، آلهة مصر، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦ م.
- (٣٧) ديب (سهيل)، التوراة بين الوثنية والتوحيد، دار النفائس، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢ م.
- (٣٨) دي بوا إيميه، كتاب وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ م، القاهرة، الجزء الثالث، الدراسة السادسة والسابعة والثانية عشرة.
- (٣٩) ديسو (رينيه)، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

ذ

- (٤٠) ذكرى (أنطون)، مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواعها وخطوطها وأهم إشارات، القاهرة، د.ت.

ر

- (٤١) روبنسون (تيودور)، إسرائيل في ضوء التاريخ، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني في تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د. ت.
- (٤٢) رمزي (محمد)، القاموس الجغرافي للبلدان المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- (٤٣) ريجيسكي (م)، أنبياء التوراة والنبوءات التوراتية، ترجمة د. آحوى يوسف، دار الينابيع، دمشق، ١٣٩٣ م.

ز

- (٤٤) زايد (د. عبد الحميد)، أسماء مصر، مجلة كلية التربية، جامعة الكويت، العدد ٢، ١٩٧٢م.
- (٤٥) زايد (د. عبد الحميد)، الشرق الخالد، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
- (٤٦) زغلول (د. سعد)، الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام، مجلة عالم الفكر، الكويت مجلة ١٢، عدد ٤، ١٩٨٢م.
- (٤٧) زيعور (د. علي)، قطاع البطولة والنجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢م.

س

- (٤٨) سامسون (جوليا)، نفرتيتي، ترجمة مختار السويقي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- (٤٩) سترابون في مصر، ترجمة وهيب كامل، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣م.
- (٥٠) سعيد (د. سامي)، الرعامسة الثلاثة الأوائل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٨م.
- (٥١) السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ٤ أجزاء.
- (٥٢) سوسه (د. أحمد)، العرب واليهود في التاريخ، العربي للإعلان والطباعة والنشر، دمشق، د.ت.
- (٥٣) السواح (فراس)، أرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٥م.
- (٥٤) السواح (فراس)، الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، دار علاء الدين، دمشق، ط ٢، ١٩٩٣م.
- (٥٥) السواح (فراس)، مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت.
- (٥٦) سوفوكليس، الملك أوديبوس، أوديبوس في كولونس، أنتيجوني، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

(٥٧) السيد (رمضان)، تاريخ مصر القديمة، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٩٣ م.

ش

- (٥٨) شبهات وهمية حول العهد القديم، نشر كنيسة قصر الدوبارة، القاهرة، ١٩٩١ م.
- (٥٩) شتيندورف وسيل، عندما حكمت مصر الشرق، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠ م.
- (٦٠) شطا (د. عبده)، جيولوجية شبه جزيرة سيناء، ضمن موسوعة جزيرة سيناء، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢ م.
- (٦١) الشعراوي (د. عبد المعطي)، أساطير إغريقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣ م.
- (٦٢) شقير (نعوم بك)، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١ م.
- (٦٣) الشوك (علي)، بين الخطاب الموسيقي والخطاب اللغوي، مجلة النهج، دمشق، عدد ٤، ١٩٩٥ م.
- (٦٤) الشوك (علي)، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٤ م.
- (٦٥) الشوك (علي)، مأساة أوديب بين تحليلات فرويد وفرس الماء، صحيفة الحياة اللندنية، العدد الصادر في ١٧/١٩٣٦ م.
- (٦٦) شيفمان (أ. تين)، ثقافة أوغاريت، ترجمة د. حسان ميخائيل إسحق، الأجدية للنشر، دمشق، ١٩٨٨ م.

ص

- (٦٧) الصليبي (كمال)، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت، ط ٢.
- (٦٨) الصليبي (كمال)، خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقى، لندن، ١٩٨٨ م.
- (٦٩) الصليبي (كمال)، حروب داود، دار الشروق، بيروت، ط ٢، ١٩٩١ م.

ع

- (٧٠) عابدين (عبد المجيد)، لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده، مطبعة الشيكشي بالأزهر، القاهرة، ١٩٦٤م.
- (٧١) عباس (إحسان)، تاريخ دولة الأنباط، دار الشروق عمان، الأردن، ١٩٨٧م.
- (٧٢) عبد البر (ابن)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب.
- (٧٣) عبد الجواد (عصام)، الوحش الذي يهدد الصعيدة، مجلة روز اليوسف، القاهرة، عدد السابع من أكتوبر ١٩٩٦م.
- (٧٤) عبد الحليم (د. عبد المنعم)، محاولة لتحديد موقع بونت، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، دراسات أثرية وتاريخية، العدد الخامس، ١٩٧٤م.
- (٧٥) عبد الحليم (د. عبد المنعم)، موجز رسالتيه للماجستير والدكتوراه، في مذكرة مطبوعة بجامعة الإسكندرية.
- (٧٦) عبد الحليم (د. نبيلة محمد)، معالم التاريخ الحضاري والسياسي في مصر الفرعونية، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.
- (٧٧) عبد الرحمن (مرعي): الإمبريالية اليهودية، المطابع الموحدة، ١٩٨٧م.
- (٧٨) العبري (ابن)، تاريخ مختصر الدول، د. ن، د.ت.
- (٧٩) عثمان (أحمد)، تاريخ اليهود، الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.
- (٨٠) عثمان (أحمد)، غريب في وادي الملوك، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٩م.
- (٨١) عثمان (أحمد)، صحيفة الحياة، عدد ١٨ / ١٠ / ١٩٩٦م.
- (٨٢) عثمان (أحمد)، في الشعر الجاهلي واللغة العربية، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.
- (٨٣) علي (أبو عساف)، الأراميون، دار أمان، طرطوس، سوريا، ١٩٨٨م.
- (٨٤) العقاد (عباس محمود)، الله، كتاب الهلال، عدد ٤٢، القاهرة، سبتمبر ١٩٥٤م.
- (٨٥) العقاد (عباس محمود)، إبليس، كتاب الهلال، عدد ١٩٢، القاهرة.
- (٨٦) العلو (إبراهيم)، كائنات وضوء، مجلة العربي الكويتية، عدد يناير، ١٩٩٥م.
- (٨٧) علي (د. جواد)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت.

- (٨٨) عمار (د. عباس مصطفى)، المدخل الشرقي لمصر، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٤٦م.
- (٨٩) عوض (د. لويس)، مقدمة في فقه اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.
- (٩٠) عوض الله (د. عاطف)، بلاد بونت، محاولة لتحديد موقعها، مجلة نزوى العمانية، عمان، العدد السادس، أبريل ١٩٩٦م.
- (٩١) عياد (د. شكري)، البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.

ف

- (٩٢) الفردوسي، الشاهنامه، ترجمة الفتح بن علي البنداري، تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م، جزءان.
- (٩٣) فرويد (سيجموند)، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الكشاف، بيروت، ط٤، ١٩٨٢م.
- (٩٤) فريحة (د. أنيس)، دراسات في التاريخ، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠م.
- (٩٥) فريحة (د. أنيس)، ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.
- (٩٦) فريزر (جيمس)، الفولكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م، جزءان.
- (٩٧) الفقي (محمد)، قصص الأنبياء والمرسلين: أحداثها وعبرها، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩م.
- (٩٨) فليكوفسكي (إيمانويل)، أوديب وإخناتون، ترجمة فاروق فريد، وزارة الثقافة بالمشاركة مع دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت.
- (٩٩) فليكوفسكي (إيمانويل)، عصور في فوضى، ترجمة رفعت السيد، دار سيناء، القاهرة، ١٩٩٥م.
- (١٠٠) فيللور، نشيد عليان بعل، مجلة سوريا، ١٩٣٢م.
- (١٠١) فيللور، موت، مجلة سوريا، ١٩٣٤م.

ق

- (١٠٢) ابن قتيبة، المعارف، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م.
- (١٠٣) قدرى (د. أحمد)، المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفي، هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م.
- (١٠٤) القمني (سيد محمود)، الأسطورة والتراث، دار سينا، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م.
- (١٠٥) القمني (سيد محمود)، النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.
- (١٠٦) القيم (د. علي)، المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة، الأهالي، دمشق، ١٩٨٧م.

ك

- (١٠٧) كاسيدوفسكي (زينون)، الواقع والأسطورة في التوراة، ترجمة: حسان ميخائيل، أبجدية للنشر، دمشق، ١٩٩٠م.
- (١٠٨) كالد (رتشي)، رجال ذللو الصحراء، ترجمة محمد معوض، محمود الشواربي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
- (١٠٩) كامل (إبراهيم محمد كامل)، إقليم شرق الدلتا في عصوره التاريخية القديمة: ج٢، الهيئة المصرية لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٥م.
- (١١٠) كامل ومحمد (مراد والبكري)، تاريخ الأدب السرياني، القاهرة، ١٩٤٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٩٨٨م.
- (١١١) ابن كثير، البداية والنهاية.
- (١١٢) كوزنيتسوف (د.ت.م.)، الإسكيفيون، مجموعة نصوص المؤرخين الكلاسيك يونان ورومان حول شعب الإسكيث (بالروسية سكيف)، دار نشر المدارس العليا، موسكو، ١٩٩٢م، ترجمها خسيصًا لهذا البحث: الفنان (ميدالور ونحات)، ألكسندر مولسطوف، والدكتورة عزة الخميسي، مجموعة أجزاء.
- (١١٣) كون (كارلتون)، القافلة، قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجاني، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- (١١٤) كون (كارلتون)، قصة الإنسان، ترجمة محمد توفيق وعبد المطلب الأمين، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥م.

(١١٥) كينون (كاثلين)، الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة د. شوقي شعث وسليم زيد، دار الجيل، ١٩٩٠م.

ل

(١١٦) لسنر (إيفار): الماضي الحي، ترجمة إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م.

م

(١١٧) ماكليستر، الأقوام الجدد، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الثاني من تاريخ العالم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

(١١٨) المتنبي (ديوانه)، تحقيق عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥م.

(١١٩) محمد (د. عبد القادر)، آثار الأقصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

(١٢٠) المسعودي، التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، بيروت.

(١٢١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت.

(١٢٢) بهجة المعرفة، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، طبعة إيطاليا، ١٩٨٢م.

(١٢٣) مقار (شفيق)، قراءة سياسية للتوراة، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص ولندن.

(١٢٤) ابن منبه (وهب)، التيجان في ملوك حمير، حيدر إياد، الدكن، ١٣٤٧هـ

(١٢٥) منى (زياد)، بنو إسرائيل، جغرافية الجذور، الأهالي، دمشق، ١٩٩٥م.

(١٢٦) مهران (د. محمد بيومي)، دراسات في الشرق الأدنى القديم، حركات التحرير في مصر القديمة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.

(١٢٧) موسكاتي (سبتيانو)، الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. السيد يعقوب بكر، دار الكاتب العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٥٧م.

- (١٢٨) موسى (محمد العزب)، حضارات مفقودة، الدار المصرية للبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م.
- (١٢٩) ميرز (ج. ل.)، المنيويون والميسينيون، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد، النهضة المصرية، مجلدات تاريخ العالم، المجلد الثاني، القاهرة، د. ت.
- (١٣٠) ميلكو (إيلي)، اللآلئ، ترجمها عن اللغة الحورية الأوغاريتية ديل ميديكو، ترجمها إلى العربية مفيد عرنوق، دار أمواج، بيروت، ط ٢، ١٩٨٩م.

ن

- (١٣١) نادوتي (سيد مظفر)، التاريخ الجغرافي للقرآن، ترجمة د. عبد الشافي غنيم، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- (١٣٢) ناصف (عصام الدين حفني)، اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج، بيروت، ١٩٨٥م.
- (١٣٣) نصحي (د. إبراهيم)، السويس في العصور القديمة حتى الفتح العربي، ضمن دراسات بكتاب بعنوان السويس، صادر بالسويس، مصر، د. ت.
- (١٣٤) نور (د. علي)، ملامح مصرية في المسرح الإغريقي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، د. ت.
- (١٣٥) نولدكه (تيودور)، اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (١٣٦) النيسابوري (الثعلبي)، عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د. ت.
- (١٣٧) نيلسن (ديتلف)، تاريخ العلم، دراسة منشورة في كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.
- (١٣٨) نيلسن (ديتلف)، الديانة العربية القديمة، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

هـ

- (١٣٩) هورنونج (إريك)، ديانة مصر الفرعونية، الوحداية والتعدد، ترجمة د. محمود طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

- (١٤٠) هومل (فرتز)، التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨ م.
- (١٤١) الهمداني، مختصر كتاب البلدان.
- (١٤٢) هيرودت، (هيرودت يتحدث عن مصر)، ترجمة محمد صقر خفاجي، تهمشيات وشروح د. أحمد بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧ م.

و

- (١٤٣) وافي (د. علي عبد الواحد)، اليهودية واليهود، دار مصر، القاهرة، د. ت.
- (١٤٤) ولفنستون (إسرائيل)، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠ م.
- (١٤٥) الويسي (حسين بن علي)، اليمن الكبرى، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ م.

ي

- (١٤٦) يحيى (د. لطفي عبد الوهاب)، العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩ م.
- (١٤٧) اليوسف (يوسف سامي)، تاريخ فلسطين عبر العصور، الأهالي، دمشق، ١٩٨٩ م.
- (١٤٨) يونس (د. عبد الحميد)، الفولكلور والميثولوجيا، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثالث، العدد الأول.

المصادر الأجنبية

A

- (1) Albright, W., Akkadian Letters, The Amaran Letters, J.E.A., T.
- (2) Alferd, C., The End of the El-Amarna Period, J.E.A., 1957.

B

- (3) Breasted, Ancient Records.
- (4) Brugsch, H., History of Egypt under the Pharaohs.
- (5) Budge, A. W., Tut-Ankh-Amen, Amenism, Atenism, and Egyption monotheism, 1923.

C

- (6) Childe, The Aryans, New York, 1926.
- (7) Conteneau, G., Civilisation d'Assur et de Babylone, Paris, Payot, 1951.

E

- (8) Epicurea, ED., II, Usener Lipsial, 1987.
- (9) Erman, the Literature of the Ancient Egyptians, 1927.
- (10) Evans, A., The palace of Minos at konssos, 1921.

F

- (11) Frankfort and Pendlebury, The City of Akhenaten, 1933.

G

- (12) Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 1964.
- (13) Gardiner, The Military Road between Egypt and Palestine, J.E.A., Vol VI, 1920.

H

- (14) Hayes. W. C., Egypt from the Death of Ammenemes II.
- (15) Herzog, pynt in Abhandlungen institutes kairo, 6, 1968.

J

- (16) James, T. S., Egypt from the Exploration of the Hyksos to Amenophis I.C.A.H.

K

- (17) Karll, Studien zur Geschichte des Alten Aegypten IV, Das Land
punit wien, 1890.
- (18) Kenyon (Kathleen), Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London,
1974.
- (19) Kitchen, Punt and how to Therein Orientalia, 1971.
- (20) Kupper, Les nomads enrois de mori, 1957.

L

- (21) Lods, A., Israel from it's Beginnings to the Middle of Eighth Cen-
tury, London, 1963.
- (22) Mariette, A., Deir el Bhi, Leipzig, 1977.
- (23) Maspero, G., In the Odore; Davies, M., The Tombe of Queen Tiya,
1910.
- (24) Mercer, S.A.B., The Tell-Elamarna Tablets, 1939.
- (25) Montgomery, Arabia and the Bible, Philadelphia, 1943.

N

- (26) Navil, Archeology of the Old Testament, 1913.
- (27) Naville, E., Le Commerce de l'ancienne Egypte avec les nations voi-
sine, Geneve, 1911.
- (28) Noldeke, The Semitic Languages, Encyclopaedia Britannica, II.

P

(29) Petrie, F., A History of Egypt, 7th ed., 1924.

(30) Petrie, F, Ancient Gaza, London, 1921.

S

(31) Save, S.T., J.E.A., 37.

(32) Sayce, A. H., Menes and Naram sin, J.E.A. 6, 1920.

(33) See the K. Beiträge zur Geschichte Amenophis IV, Kgl. Ges. D. wiss Machrichten phihist klasse, 1921.

(34) Stae, B., Lehrbuch der hebraischen Grammatik, Libzig, 1949.

W

(35) Wallhausen, J., Die Bibllischen atertu mer, calw and Stuttgart.

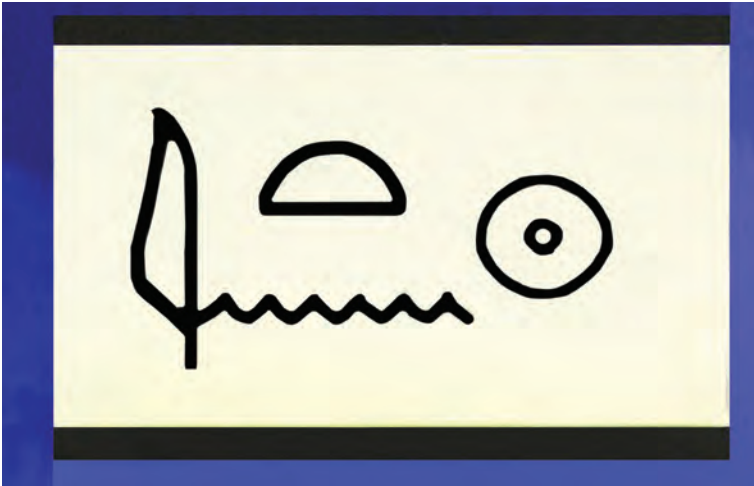
(36) Weigall, The Life and Times of Akhenaten, J.E.A., 1957.

(37) Wilson, J. A., Egyptian Historical Texts, in James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.

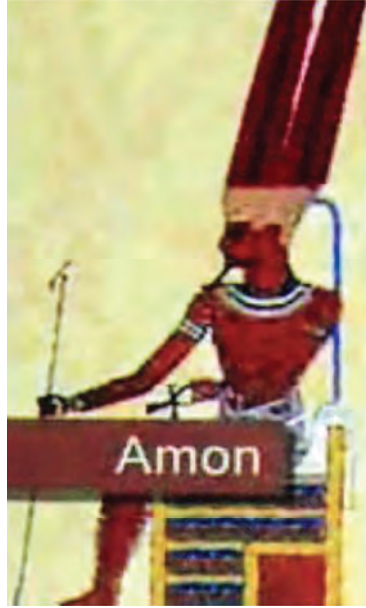
Z

(38) Zallig, S. H., A Grammar of Phoenician Language, New Haven, Conn, 1936.

ملحق الأشكال



شكل رقم «١٥٢»: اسم آتون بالهيريوغليفية.



شكل رقم «١٦٢»: آمون رب الإمبراطورية المصرية الذي نفاه إخناتون.



شكل رقم «١٦٨»: شمعان معكوس لأيدي آتون من تحت إلى فوق.



شكل رقم «١٥٤»: آتون يظهر من وراء الجبال من أرض الإله المقدسة.



شكل رقم «١٥٥»: إخناتون يقبل ولده سمنخ كا رع.



شكل رقم «١٥٦»: إخناتون صبيًا عند ارتقائه العرش.



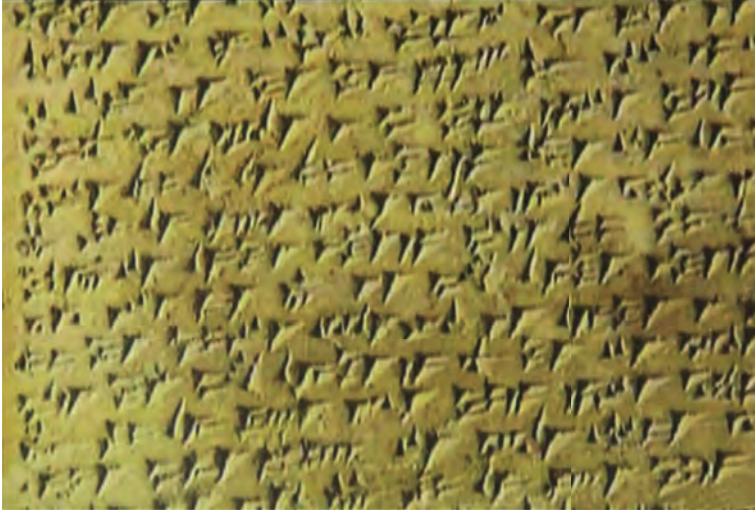
شكل رقم «١٥٨»: لوحات العمارة الأرامية بالمسمارية.



شكل رقم «١٥٩»: لوحات العمارنة مشهد أوضح.



شكل رقم «١٦٠»: لوح من العمارة.



شكل رقم «١٦١»: تكبير للوح مسماري من العمارة.



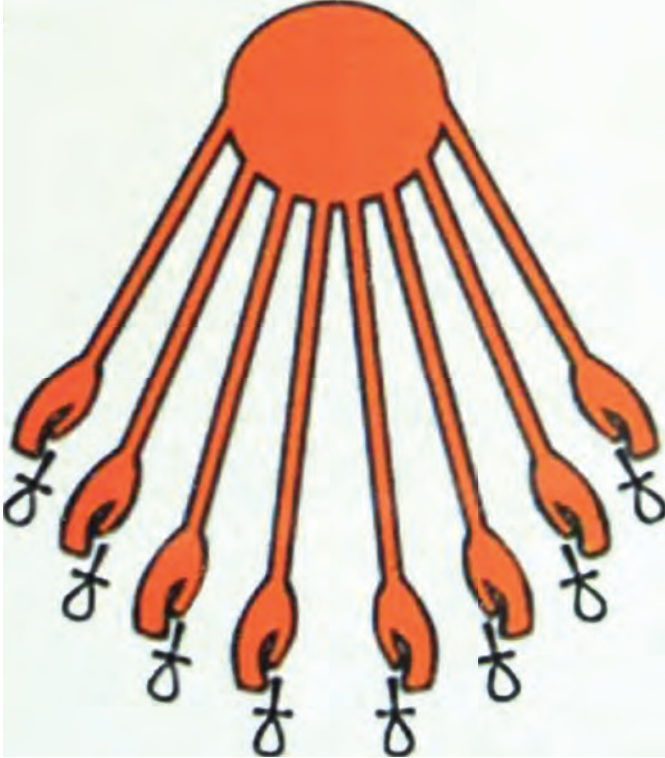
شكل رقم «١٦٣»: إخناتون ونفرتيتي يتعبدان لآتون.



شكل رقم «١٦٤»: إخناتون ونفرتيتي وبناتهما تحت أيدي آتون الرفيعة.



شكل رقم «١٦٥»: أيدي آتون الرفيعة.



شكل رقم «١٦٧»: رسم توضيحي لأيدي آتون الرفيعة قابضة على مفتاح الحياة.



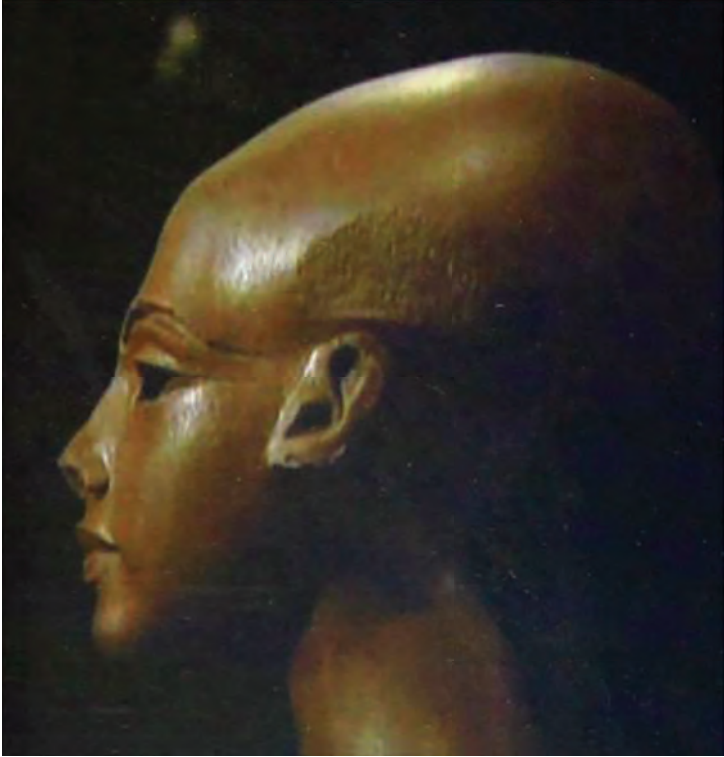
شكل رقم «١٧٠»: آمنحتب الثالث ومليكته تي وبينهما واحدة من بناتهما، وهذه التماثيل هي التي أشار إليها هيروdot أمام معبد فولكان أو آمون، وقد نقلت من مكانها، وتوجد الآن بالمتحف المصري.



شكل رقم «١٨١».



شكل رقم «١٨٢».



شكل رقم «١٨٣».



شكل رقم «١٨٤».



شكل رقم «١٨٥»: بنت إخناتون زوجة الملك توت.



شكل رقم «١٨٦»: بنات إخناتون.



شكل رقم «١٨٧»: جمجمة توت بالأشعة تبرز استطالة الجمجمة.



شكل رقم «١٨٨»: فنانون من العمارنة، غير مصريين. لاحظ الرأس المستطيل، ظهرت زمن إخناتون فقط.



شكل رقم «١٩٦»: رقص أكروباتي، وهو رقص الرجال في مصر القديمة ويختلف عن رقص النساء اللاتي كن يرقصن رقصاً إيقاعياً وشبه عاريات. فن اعتيادي بمصر القديمة.



شكل رقم «١٩٩»: لوحة الراقصات هذه تعود إلى زمن إخناتون تحديداً وتدقيقاً. وقيل هذا ومن بعده لم تظهر هذه الرقصة في نقوش مصر. فقط هذه اللوحة وفي العمارنة، وكما هو واضح فالرقصة عربية لم تزل تؤدي بنفس الأسلوب والطريقة لدى بدو الجزيرة وبدو الأردن والشام حتى اليوم. قارن بين تلك الرقصة الغربية تمامًا على مصر، وبين الرقص المصري في لوحات انتقيناها من بين عشرات اللوحات متعمدين إيجاد أوجه شبه قدر المستطاع، لكن الفرق كان شاسعاً.



شكل رقم «٢٠٠»: نموذج لمحو اسم إخناتون.



شكل رقم «٢٠١»: نموذج لمحو اسم إخناتون.



شكل رقم «٢٠٢»: محو اسم إخناتون وربه، أينما وجد.



شكل رقم «٢٠٣»: الإله بس من العمارة.



شكل رقم «٢٠٤»: شو وفعله في الرايات الطائرة.



شكل رقم «٢٠٧»: الإله آمون كإله مخصب للملكة (لاحظ فالوسه المنتصب).



شكل رقم «٢٠٨»: مشهد من بلاد آدوم (قارن مع التالي).



شكل رقم «٢٠٩»: مشهد من العمارة.



شكل رقم «٢٢٠»: طقس «فتح الفم» كما هو، ممثلاً في مقبرة «تاوسرت» يقف الكاهن «سم» أمام التمثال الملكي، وقد ارتدى صديرية خاصة للاحتفال.



شكل رقم «٢٢١»: قصة البقرة في أصلها المصري.



شكل رقم «٢٢٤»: تمثالا ممنون الصوتي/آمنحتب الثالث.



شكل رقم «٢٢٥»: آمْنَحْتَب الثالث ومليكته تي، وبينهما واحدة من بناتهما. وهذه التماثيل هي التي أشار إليها هيرودوت أمام معبد فولكان أو آمون، وقد نُقلت من مكانها، وتوجد الآن بالمتحف المصري.



شكل رقم «٢٢٨»: الغرقى في الساعة التاسعة من كتاب البوابات بمقبرة رمسيس السادس.



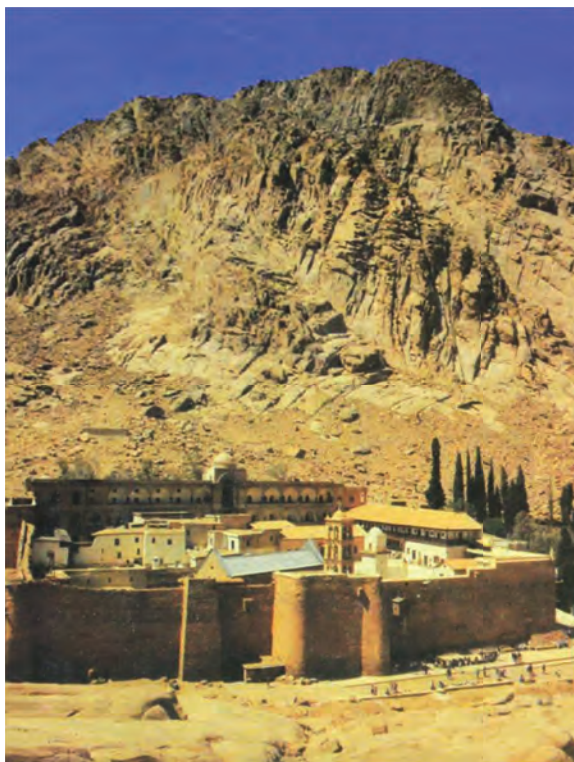
شكل رقم «٢٢٩»: في السطر الثالث من اللوحة شخص يُمسك بعضًا وأمامه موتى غرقى يسبقهم أربعة أشخاص أحياء. هذه اللوحة من اللوحات التي تصور عملية البعث، وأن الغرقى سيقومون من الموت للحساب، لكن لوحة كهذه مع صورة الحية المتكررة كانت كفيلة بانتشار أساطير شق البحر والغرقى في اليم. اللوحة من مقبرة رمسيس الثالث، وتعرف بلوحة الساعة التاسعة من كتاب البوابات.



شكل رقم «٢٣٠»: هذه لوحة وضعها الكهنة، ويفهمها الكهنة والمتقفون، وتصور إحياء الإله الموتى الذين ماتوا غرقاً كالموتى في أي مكانٍ آخر، ليتم بعثهم وحسابهم. لكنها تحولت في الفهم الشعبي وقراءته للوحة إلى شخصٍ معجزة يشق الماء بعصاته (انظر السطر الأخير على اليسار)، وغرقى في بحرٍ مفلوق، استعارها المحرر التوراتي من المفاهيم المصرية الشعبية.



شكل رقم «٢٣١»: جبل كاترين بسيناء.



شكل رقم «٢٣٢»: دير كاترين بسيناء (مشهد أقرب).

